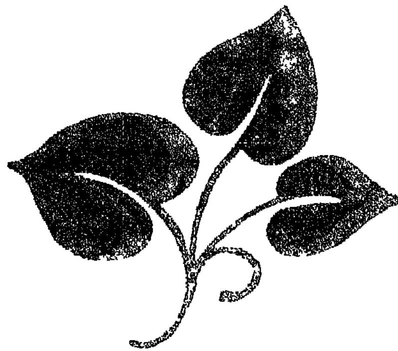
جان جاك روسو

حياته و مؤلفاته و غرامياته



نجيب المستكاوى

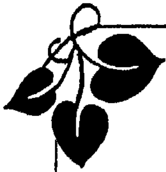
دار الشروق

جان جاك روسو

حياته . مؤلفاته . غرامياته

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقياً شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقياً داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE



القســم الأول

نشــأة روســو



الفصل الأول

طفولته وحياته الأولى

جنيف ١٧١٢ ـ ١٧٢٨

ولد جان جاك روسو في جنيف في ٢٨ يونيو ١٧١٢. ولد عليلاً ضعيفاً، وكان الأمل في حياته طفيفاً، وتولته عمته بعنايتها حتى أنقذته.

وأسرة روسو فرنسية الأصل، نزحت من باريس لأسباب دينية، واستقرت في جنيف في عام ١٥٢٩. وكانت أمه سوزان برنار مليحة القسمات، موفورة الحيوية واسعة الثقافة، تحب الموسيقى، وتقرأ القصص، وتقرض الشعر. وقد كلفتها ولادته حياتها، وهكذا فقد روسو يوم ولادته ـ إلى جانب حنان الأمومة ـ خير ضمان لتربية مستقرة.

ومما هو جدير بالذكر أن فولتير أيضاً فقد أمه في طفولته، وأنه ولد هو الآخر عليلاً ضعيفاً: «كان الأمل في حياته مقطوعاً حتى أن مرضعته كانت تهبط كل صباح لتنبىء أمه بأنه لا يمكن أن يعيش أكثر من ساعة»[1]. ومن عجب أن هذين العلمين

(١) دي فوارتير: فولتير، باريس، ديدييه ١٨٧١، الجزء الأول.

الشهيرين ، اللذين طالت حياتهما زهاء قرن من الزمان، وبقيت روحهما حية تذكي القلوب والأذهان قد ولدا في غاية الهزل (١) .

أما أبوه، اسحق روسو، فيبدو أنه كان متهاوناً، فظاً، غليظ الطبع. ولم يشذ عن غالبية مواطنيه، فكان صانع ساعات، كما كان أستاذاً للرقص أيضاً. وكان مفطوراً على المغامرة، مولعاً بالبحث عن الثروة. وقد ولد روسو أثناء عودته من إحدى مغامراته في الآستانة حيث أقام فترة طويلة.

لأول مرة متع الريف، الذي كان مفطوراً على حبه «يقول» كان الريف شيئاً جديداً علي، حتى أني لم أكن أسأم التمتع به. وقد شعرت حياله بحب بلغ من حيويته أنه لم يخمد قط (٢)» .

وسيستقر هذا الذوق في روسو ويلازمه ويكون إحدى صفاته الجوهرية: سيواجه دائماً بساطة الريف بفساد الحضر.

وفي بوسى تمكنت بين روسو وابن عمه وشائج الصداقة المتينة، وانعقدت أواصر الأخوة الرقيقة. كان حتى ذاك الحين مستسلماً لحياة خيالية، مدفوعاً بأحاسيس لا تتفق وصغر سنه.

---

(١) توفي فولتير يوم ٣٠ مايو ١٧٧٨ ، وتوفي روسو يوم ٢ يوليو ١٧٧٨ .
(٢) الاعتراف، الكتاب الأول، ص ٥

فكان من صالحه أخيراً أن يعيش كطفل وأن يلعب ويلهو مع صبي صغير: «إنَّ بساطة هذه الحياة الريفية قد عادت علي بخير لا يقدر بثمن، إذ فتحت قلبي للصداقة. حتى ذاك الحين كنت أحس بمشاعر سامية لكن خيالية. فلما اعتدت المعيشة الهادئة مع ابن عمي برنار انعقدت بيننا وشائح العطف الرقيق....».

وكان لامبرسييه أعزب، يعيش مع شقيقته وهي عانس تناهز الثلاثين عاماً. وكانت الآنسة لامبرسييه توقع على روسو من آن لآن عقوبات الأطفال ـ أي تضربه على مقعده. ولعلك تقول أنها ملاحظة واهية، لكن اصغ إلى روسو: «لقد وجدت في الألم مزاجاً من اللذة الحسية جعلني لا أخشى بل أرغب أن أتلقاها ثانية من اليد نفسها.. من يصدق أن عقاب الطفل هذا، الذي تلقيته في الثامنة من عمري على يد فتاة في الثلاثين من عمرها قد قرر أمزجتي، ورغباتي، وشهواتي، بل نفسي ذاتها بقية حياتي....» إن لهذا أهمية كبرى: فمعناه أن روسو كان مريضاً بالماسوشيزم، أي حب التهيج العصبي الناشئ من الألم، حب اللذة وليدة العذاب[1] وسوف تتاح لنا الفرصة لتناول هذه المسألة في صدد مغامراته الغرامية. ولنستطرد الآن في قصتنا.

(١) إميل فاجيه، صديقات روسو، باريس ١٩١٢ الفصل الأول.

لم يطل مقامه في بوسى أكثر من سنتين كما ذكرنا. فقد اتهم ظلماً بكسر أسنان مشط لأخت أستاذه، ودافع عن نفسه، ولم يصدقه أحد، وعوقب على نحو أثار غيظه وحفيظته. وعلى أثر هذا الحادث قرر العم برنار استعادة الطفلين.

صديقات طفولته :

لما عاد جان جاك إلى جنيف ليقيم لدى عمه، أنفق هناك زهاء سنتين أو ثلاث سنوات، قبل أن يحصل على عمل. واستمر يلعب ويدرس مع ابن عمه، متمتعاً بحرية واسعة. وكان من آن لآن يزور أباه في نيون. وهناك عرف فتاتين، الآنسة فولسون، والآنسة جوتون، وأحب الاثنتين. كانت الآنسة جوتون تكبره سناً. وهي فتاة صغيرة «ذات وجه من الصعب أن ينسى» وإن لم تكن ذات جمال أخاذ. وكانت تلعب مع روسو دور المعلمة، ولم تكن تسمح له بأية دالة خاصة، بيد أنها كانت تأتي معه بما يذكره بالعقاب الذي كان يتلقاه من الآنسة لامبرسييه. كانت خلوات قصيرة لكنها كانت في نظر روسو أوج السعادة. والشيء الذي كان يروق روسو هو أن يرى الآنسة جوتون تتخذ هيئة الجد، وتعاقبه، وتعامله معاملة الطفل، ونحن نعرف عن لسانه أن هذه المعاملة هي التي كان يتمناها من قبل معشوقاته، والتي كان يتحرج أن يطلبها منهن

«الشيء الذي طلبه دائماً من النساء أو تمناه منهن هو أن يهذبنه، والشيء الذي طلبه دائماً من الحياة أو تمناه منها هو العذاب المعنوي الذي تتولد منه لذة عارمة حزينة[1].

أما الفتاة الثانية، الآنسة فولسون فكانت في الثانية والعشرين، كانت أكبر من الأولى سناً وأكثر تحفظاً. وكل ما فعلته أنها كانت تلهو بإيهام روسو أنه حبيبها. وأخذ روسو غزلها على محمل الجد وسرعان ما جن بها: لم تدخر الفتاة التنهدات ولا العبرات ولا نوبات الغيرة، ولحسن الحظ لم تطل المغامرة، واضطر إلى مفارقتها للبحث عن قوته.

تعلمه حرفة النقش:

تداولت أسرة روسو ملياً في شأن مستقبله، وهل يصبح صانع ساعات أو ينخرط في السلك النيابي أو الكهنوتي، وأخيراً عهدت به إلى أحد المحضرين، ولم تفلح التجربة، فأرسل ليتعلم حرفة النقش لدى نقاش يدعى دي كوفان.

وكان دي كوفان رجلاً فظاً، خشن الخلق، شرس الطبع، أفلح في إساءة أخلاقه، وجعل منه عبداً ذليلاً، وفقد الطفل مشاعره الطيبة، فانتهى أمره إلى التشرد وأمعن أستاذه في

---

(١) إميل فاجيه، صديقات روسو، باريس ١٩١٢ الفصل الأول.

ضربه، وأبعد في ظلمه وعسفه حتى بغّضه في عمل لعله كان يحبه، وعلمه رذائل لعله كان يجهلها. وبدأ روسو يقلد الأطفال المتشردين وكذلك عرف الكسل، والكذب، والمخاتلة، والسرقة.....

وتستبد بالفتى شهوة عارمة، تدفعه إلى التقزز من بيئته، وإن كانت لا تمنع أستاذه من أن يضربه: هي حب المطالعة، الذي استيقظ بعد ركود سنين. طفق يقرأ كل ما يقع تحت يده من كتب، دون تفرقة بين الغث والثمين. كان يقرأ على الدوام وفي كل مكان، في المصنع، في الطريق، في المرحاض حيث كان ينسى نفسه ساعات أنه يقول: «لم يكن لي عمل إلا المطالعة». وكان ينفق في استعارة الكتب كل نقوده حتى إذا ما نفدت باع قميصه، ورباط عنقه، وأضاع قروشه الثلاثة التي ينالها مكافاة كل يوم أحد!!!

وبفضل قراءته القصص، وإذكاء خياله بمغامرات أبطاله، وبالمواقف التي أثارت اهتمامه، وانفعاله، انتهى به الأمر إلى نسيان حالته الواقعية التي كانت مبعث استيائه. ومن هنا تولد حبه للعزلة، الذي لم يفارقه منذ هذا العهد:

«هكذا بلغت السادسة عشرة، قلقاً، مستاء، من نفسي ومن كل شيء، لا أميل لعملي، ولا أشعر بلذة سني،

تفترسني رغبات لا أعرف مبعثها، أذرف ـ الدموع بغير موجب، وأتنهد دون أن أعرف السبب، وأخيراً أستمريء أحلامي العذاب لأني لا أرى حولي ما يساويها»[1]».

وفي أيام الأحد، كان أترابه يقبلون فيصحبونه للتسكع في الريف، حول جنيف ولم يكن يبدأ في المسير حتى يمشي قدماً دون أن تخطر العودة بباله. كان ينسى الوقت وكان لذلك النسيان عواقبه. فإن أبواب مدينة كالفين كانت تغلق في وقت محدد، لا يستطيع ولوجها بعده أحد. ولقد تأخر مرتين ووجد الأبواب مغلقة، وفي كلتيهما ضربه أستاذه ضرباً مبرحاً، وأقسم ألا يعرض نفسه مرة ثالثة لمثل هذه المقابلة. إلا أن المرة الثالثة التي كان يخشاها وقعت، واضطر إلى المبيت في الخلاء خارج المدينة، فأبى أن يدخلها. وهكذا هجر وطنه، وأزمع أن يسير في ركاب المغامرة. وكان ذلك في ١٤ مارس من عام ١٧٢٨.

---

(١) الاعترافات، الكتاب الأول، ص ٢٠ الطبعة سالفة الذكر.

الفصل الثاني

صدر شبابه ـ حياة التنقل

(١٧٢٨ - ١٧٣١)

يتجول روسو بضعة أيام في ربوع الريف، مستفيداً من كرم ضيافة الفلاحين، ثم يصل إلى كونفينيون، وهي قرية تقع على مسيرة ساعتين من جنيف، في منطقة كاثوليكية من سافوا. ويستقبله الخوري دي بومفير بحفاوة ويكرم وفادته، إلا أنه يتصرف معه بطريقة غير شريفة: فهو لا يرى في هذه المغامرة إلا فرصة للتبشير، وعلى ذلك لا يقنع الشاب الأحمق بالعودة إلى أهله، وإنما يحاول على النقيض، أن يغريه على الارتداد عن دينه البروتستنتي واعتناق الدين الكاثوليكي بكل الوسائل، بالطعام الدسم، وبالنبيذ الفاخر، وبالأسلوب الرقيق. وقتنع روسو بكلامه لصغر سنه وقلة تجاربه، ولتأثره بما لقي من الخوري من معاملة حسنة ماهرة، تتعارض مع ما لقي من أستاذه من معاملة سيئة جائرة. والخلاصة أن الخوري يقول له: «اذهب إلى «أنيس»، حيث تجد سيدة طيبة، محسنة، أتاحت لها مآثر الملك أن تنقذ نفوساً أخرى من الضلال الذي أنتشلت هي ذاتها من حماته».

وعلى ذلك يرحل روسو إلى أنيس، حاملاً رسالة من الأب بومفير إلى مدام دي فاران، ورأى الشاب أن يضيف إلى رسالة التوصية هذه، رسالة أخرى من إنشائه، نمقها من بعض الجمل التي اقتبسها من الكتب، محاولاً بذلك أن يكسب عطف حاميته مستقبلاً.

مدام دي فاران :

وصل روسو إلى أنيس في عيد الفصح، في ٢١ مارس ١٧٢٨ . وكان إذ ذاك في منتصف السادسة عشرة: ذا سيماء حي، وشعر فاحم، وفم دقيق، وعينين ملتهبتين تنفثان في قوة «النار التي يضطرم بها دمه»، لكنه للأسف لم يكن يعلم شيئاً من ذلك كله، وكان يشوب تصرفاته الخجل والحياء، ويضطرب دائماً خوفاً من ألا يحظى بالإعجاب.

كانت مدام دي فاران قد غادرت دارها للتو قاصدة القداس، فجرى في أثرها ولحقها. فلندعه يروي لنا قصة هذا اللقاء:

«كانت مدام دي فاران على وشك دخول الكنيسة، فالتفتت نحوي عندما سمعت صوتي. ولشد ما بهت لمرآها! كنت أتصور امرأة عجوز متدينة كظيمة، لأن

السيدة التقية التي حدثني عنها الخوري دي بومفير لا يمكن أن تكون في ظني شيئاً آخر. وإذا بي أرى طلعة تشع فتنة، وعينين جميلتين. زرقاوين تفيضان رقة، وبشرة باهرة، وجيداً ساحراً. لم يفلت شيء من النظرة السريعة التي ألقاها المشايع الشاب، فقد أصبحت في الحال مشايعاً لها، واثقاً من أن ديناً تدعو له مثل هذه المبشرة محال ألا يؤدي إلى الجنة. وتتناول مبتسمة الرسالة التي أقدمها إليها بيد مرتعشة، وتفتحها، وتلقي على خطاب السيد دي بومفير نظرة، ثم تنتقل إلى خطابي الذي تقرأه كله، ولولا أن خادمها نبهها إلى أن وقت الدخول قد حان لأعادت قراءته. وقالت لي في لهجة أثارت في أوصالي رجفة. أي بني أراك تجول في البلاد وأنت في هذا العمر الغض، هذا لعمري مما يدعو للأسف. ثم أضافت دون أن تنتظر ردي، اذهب وانتظرني في داري، اطلب أن يعد لك طعام، وسأحضر لأتحدث معك بعد القداس»[١].

كانت مدام دي فاران سليلة أسرة دي لاتور العريقة، وأصلها من فيفيي، وقد تزوجت في مقتبل شبابها من السيد دي فاران، ولم يكن زواجهما موفقاً، فقررت بغتة أن تهجر

(١) الاعترافات، الكتاب الثاني، ص ٢٤.

زوجهـا، وأسرتهـا، ووطنها، لتلقي بنفسها على أقـدام ملك سافوا فيكتور ـ اميديه، أثناء إقامته في إيفيان، وتسأله الحماية. وأبلغت الملك بنيتهـا في اعتنـاق الكـاثـوليكيـة. فـأحسن استقبالها، ومنحها في الحال معاشاً سنوياً ضخمـاً ـ قدره ألف وخمسمائة جنيه بيمونتي، دعاية لاعتنـاق الدين الكـاثوليكي، وأرسلهـا إلى أنيسي، لتغيث البؤسـاء والملهـوفين، ولتبشـر بدورها بهـذا الدين، وارتـدت عن البروتستنتيـه على يد الأب برنكس أسقف أنيسي. وكانت في ذاك الحين في ربيعها الثامن والعشرين، وعاشت في معزل يشبه الدير، في كنف الأسقف.

وقد أحبها روسو أعمق الحب، وأصبح «ابنها الروحي»، ولعبت في حياته دوراً لـه من الأهمية مـا يدفعنـا إلى أن نقف عندها لحظة.

تيتمت مدام دي فاران في صغرها، ثم درجت في تعاليم المادية على يد السيد دي تافيل، عاشقها الأول، وأستاذها في الفلسفة. وتروي لنا الاعترافات كيف أفلح ذلك الرجل ببراعته في استغلال براءة تلميذته:

«كانت المبادىء التي لقنهـا إياهـا هي المبادىء التي رآها ضرورية لاغراضه. لقد وجـدها وفيـة لزوجهـا، ولواجباتها، فاترة الطبـع، يستحيل التغلب عليهـا عن

طريق الحواس، فهاجمها عن طريق السفسطة، حتى أفلح في أن يظهر لها تلك الواجبات التي تتشبث بها كثرثرة كتاب تعليم لا يقصد به إلا تسلية الأطفال، والاتحاد الجنسي كفعل لا أهمية له في ذاته، والوفاء الزوجي كمظهر إلزامي كل قيمته الأخلاقية منوطة بالرأي، وجماع القول أنه أقنعها أن المسألة في ذاتها ليست شيئاً، وأنها لا تقوم إلا بالافتضاح، وأن كل امرأة تبدو عفيفة، هي عفيفة فعلاً بذلك وحده. كذلك حقق ذلك الرجل الدنيء غرضه بإفساد عقل صبية لم يفلح في إفساد قلبها»[1].

وتحت تأثير هذه الفلسفة المؤسفة، لم تكن السيدة التعسة تجد غضاضة في تسليم جسدها لمن تشاء. كانت تستسلم هادئة البال، مرتاحة الضمير، غير شاعرة بندم. وكانت تقول: لماذا أضن على أصدقاء بجميل لا أهمية له بله يضاعف حبهم؟ ومع ذلك فلا مناص من أن نعترف بأنها لم تمنح هذه الحظوة إلا للبؤساء الذين يحتاجون إليها: فكم من عظيم متألق سعى إلى نيلها وراحت جهوده سدى. ذلك ما يخص أخلاقها ولننظر في دينها.

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ١٠٢.

كانت مدام دي فاران راهبة مخلصة في الدين الجديد الذي اعتنقته، ذلك محقق، إلا أن هذا الدين كان ملطفاً بشيء من الفلسفة. وكانت مشغوفة بالمطالعة: تحب قراءة بايل (وأنت تدرك معنى ذلك) وسانت افريموند، بل حتى فولتير[1]. وكان من الطبيعي بعد هذه المطالعات العقلية أن تتعلم استعمال العقل في أمور الدين. كانت مثلاً تثور على العقيدة المسيحية كلما وجدتها قاسية شديدة، متعارضة مع مشاعرها الرقيقة، وكان العذاب الأبدي يبدو لها أمراً لا يصدق: فقد استحال عليها أن تتصور إلهاً منتقماً غضوباً، وكانت ترى «وجوب الشفقة والرحمة حيث يرى المؤمنون وجوب العدل والعقاب»[2].

وجملة القول أن تلك التي تكفلت بجعل روسو يعتنق

---

(١) بايل: فيلسوف فرنسي (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) من رواد المذهب العقلي، ومن أشهر مؤلفاته القاموس التاريخي والنقدي، وجواب على أسئلة قروي. ارجع إلى ترجمتنا العربية لازمة الضمير الاوروبي لبول هازار، طبعة دار الكاتب المصري ١٩٤٨، الفصل الخامس بيير بايل.

(٢) الاعترافات، الكتاب الثالث ص ٥٦ والسادس ١١٩.

ارجع إلى بييرموريس ماسون، دين روسو، طبعة هاشيت ١٩١٦، الجزء الأول «الفترة الكاثوليكية» مدام دي فاران «ص ٦٢ ـ ٧٢».

الكاثوليكية لم تكن هي ذاتها كاثوليكية بقدر ما نظن. ولنعد إلى السياق الذي قطعناه.

روسو في تورين :

لم يكن في وسع مدام دي فاران إيواء الشاب خوفاً من ألسنة الناس. ومن جهة أخرى لم يكن في وسع روسو أن يسد مطالبه. . . فاقترح الأسقف برنكس أن يرسله إلى تورين، ليلحق بدار للتبشير، حيث يعد لاعتناق دينه الجديد. وقبل الشاب، مبهوراً بحبه لحاميته، لأنه بذهابه إلى تورين ينفذ إرادتها ويضع مصيره في يدها. ثم أن ـ هذه الرحلة كانت تهيىء له تسلية أخرى بحبها: اختراق الألب. ورحل سيراً على الأقدام. وكان خلال الرحلة يحلم في عذوبة بحاميته العزيزة. ويتذكر في وله ما قالته له من كلمات رقيقة. وكان يخترق الألب شاعراً ببعض الفخار لاتباعه طريق هانيبال عبر الجبال. ونسي كل همومه، ولم يفكر قط في تغيير دينه.

وأخيراً وصل إلى تورين، وقدم نفسه في دير «الروح القدس» ولم يدرك خطورة العهد الذي قطعه على نفسه إلا عندما رأى الأبواب الحديدية الضخمة تغلق وراءه بالمفتاح. وكان الجدال حامياً بين الأساتذة وهذا البروتستنتي اليافع، الذي أوتي من سعة العلم وقوة الحجة ما هيأ له أن يقاوم

تعاليمهم مقاومة رائعة. ولكي ندرك مبلغ ما شعر به من نفور في البداية، ينبغي أن نتذكر أنه نشأ ـ مثل بروتسنت جنيف جميعاً ـ على النفور من الكاثوليكية التي تصور لهم كوثنية مروعة، ويصور لهم رهبانها في سواد كريه. ولا تظن أن دير الروح القدس هذا قد ترك في نفسه أثراً أحسن: فقد خالجه ـ على النقيض ـ ألم مر لالتحاقه به. إلى هذا الحد تقززت نفسه من الأخلاق الفاسدة السائدة في الدير. إلا أنه بعد كفاح شهرين قهره الكلال والتعب، فاستسلم آخر الأمر، واشترك في احتفال الردة (٢١ أغسطس ١٧٢٨)، وقد اعترف فيما بعد أن تصرفه كان مشيناً، إذ باع دينه، وكذب على الروح القدس، وأنه ظل في أعماق نفسه مخلصاً لدين أبيه، لكنه كان طفلاً، ولا شك أن صغر سنه عندئذ يشفع له.

ولما خرج من الدير وأصبح على قارعة الطريق، لم يكن في جيبه غير عشرين فرنكاً هو، الذي كانت تراوده مشروعات براقة وبأمل في مستقبل بارع، اضطر في المساء أن يبيت في الشارع! فنسي غده أو أنسيه، وجعل يزور تورين، سعيداً أن يتنسم الحرية في بلد جديد. ونفدت نقوده، فراح يطرق الأبواب عارضاً خدماته البسيطة: أن ينقش رقماً أو سلاحاً على الأواني. وكان يصرف من على الأبواب، في رفق وهوادة. وذات يوم طالعه خلال واجهة أحد المخازن وجه صبيح لبائعة

حسناء، أوتيت من الجاذبية ما جعله يـدخل دون تـردد، رغم فرط خجله.

مدام بازيل :

كـانت إيـطاليـة سمـراء، ريـانـة الجمــال، في ريعـان الشباب. وكان زوجها الذي يكبرها سناً يتركها أثناء أسفاره في رعاية مستخدم بالمخزن. وأحسنت استقبال روسـو، وعرضت عليـه أن يقيم لديهـا، كمستخدم ثـان. وأحب روسو البـائعـة الحسناء من أول نظرة، إلا أنه لم يجرؤ لفرط خجله أن يبادر فيصـارحها بمكنـون قلبه. وكـانت هي تبدو متحفـظة حيالـه. ولندع روسو يروي لنا هذه التفاصيل الشائقة في اعترافاته:

«. . كنت مـرتبكـاً، مـرتجفـاً، أرهب النــظر إليهـا، وأخشى التنفس بجـانبهـا، ومــع ذلـك كنت أخــاف الابتعـاد عنهـا خـوفي من المـوت. كنت التهم بعين جشعة كل مـا يمكنني أن أراه منها دون أن تلمحني: زهور فستانها، طرف قدمها الجميلة، فاصل ساعدهـا الملفوف الناصـع الذي يبـرزغ من بين قفازهـا وكمها القصير. . . ولكثرة مـا استرقت النـظر إلى ما يمكنني رؤيتـه بـل إلى مـا لم يمكنني رؤيتـه، زاغ بصـري، وضاق صدري وشق علي أن أتحكم في أنفاسي التي

جعلت تتقطع من لحظة إلى لحظة، وكان كل ما يسعني، هو أن أطلق في سكوت زفرات. كانت محرجة في الصمت الذي يرين»[1].

وذات يوم صعدت مدام بازيل إلى مخدعها، فتبعها، وجعل يتأملها من خلال باب الغرفة الموارب. وكانت جالسة على مقربة من النافذة، منهمكة في التطريز. وكانت متخذة زينة خلابة، وكان شعرها المقص برشاقة مزيناً بالأزهار. وجماع القول أن شخصها كله كان يشع فتنة أخرجت روسو عن وعيه: وإذا به دون أن يعي ما يصنع يجثو على ركبتيه على مدخل المخدع، ويمد ذراعيه نحوها في انفعال شديد. وتدير رأسها نحوه، ودون أن تكلمه، تدعوه بإشارة من يدها ليقبع عند قدميها. ووثب روسو من فوره، وجثا على ركبتيه في الموضع الذي عينته. ولم تواته الجرأة على أن ينبس بكلمة، أو أن يرفع إليها نظرة، أو أن ينال منها لمسة:

«كان كل شيء فيّ ينبئ عن اضطرابي، وغبطتي، وامتناني، ورغباتي المضطرمة التي أجهل مرماها، والتي يكبتها خوفي من أن أكدرها. . . .»

مشهد أخرس، لكنه عذب! وتقطعه خادم، فينهض

(١) الاعتراف، الكتاب الثاني ص ٣٧.

روسو على عجل ويمسك بيد الإيطالية الشابة، ويطبع عليها قبلتين حارتين، ويشعر في ثانيتهما بتلك اليد الفاتنة تضغط برفق على شفتيه الملتهبتين. وكذلك انتهى عشقه لمدام بازيل. فقد عجل الزوج بعودته على أثر أخطار تلقاه من العامل الآخر الغيران، وطرد روسو. وكان من نصيب مدام بازيل علقة ساخنة، لعلها كانت تستحقها. على أن الشيء المحقق هو أن روسو قد احتفظ بذكرى خالدة لهذه الدقائق القليلة العذبة التي أمضاها بقربها:

«لم أعرف عمري لحظة في مثل هذه العذوبة. لقد تذوقت بقربها لذات تجل عن الوصف. لا شيء مما شعرت به في امتلاك النساء يداني الدقيقتين اللتين أنفقتهما على قدميها دون أن أجرؤ على لمس ثوبها».

حكاية الشريط الأحمر :

لم يجد روسو وسيلة يكسب بها قوته، فتقدم إلى دار الكونتسة فيرسليز ليشتغل خادماً وكانت هذه السيدة نبيلة تعامله كسكرتير لا كخادم، إلا أن روسو الذي يعرف أهليته، شعر بذلة في هذا الموقف، ولم يخف شعوره إلى الكونتسة الطيبة، فدأبت على معاملته بلطف وعطف. بيد أنها كانت تعاني علة قاسية ولم يمهلها الموت.

إن إحدى الذكريات الأليمة في شباب روسو ترجع إلى تلك الحقبة التي طالت ثلاثة أشهر. ففي غمار الارتباك الذي أعقب وفاة الكونتسة العجوز سرق شريطاً حريرياً صغيراً أحمر. وقد شاء بعض المفترين على روسو ـ بعد مرور قرن ـ أن يجعلوا من هذا الشريط الصغير «طقماً فضياً»، والبعض الآخر «ماسة»! تشهير معيب يحاول البعض عبثاً أن يلطخوا به ذكرى رجل عظيم، لكن مؤرخي روسو تصدوا له بالتفنيد[1]. على أن المسألة لا تستحق أن تقف عندها لسببين:

١ ـ إن هذه الفعلة تفسرها شدة حساسية روسو وفرط خجله. ذلك أنه لما سئل عن اختفاء الشريط أمام الحضور كلهم، طار صوابه، واتهم في ارتباكه الخادم ماريون، التي كان يريد أن يهديها الشريط.

٢ ـ إن هذه السرقة لم يعرف أمرها إلا باعتراف روسو. فإنه لم يفض بجريمته لأي شخص. وما كانت لتعرف إلا عن طريق «اعترافاته» وهذا الاعتراف وحده يشفع له ويخفف من ذنبه.

---

(١) ارجع إلى موسية باتيه: ترجمة روسو ومؤلفاته، طبعة دويون، باريس ١٨٢٧، وعلى الأخص البيان الذي في آخر الكتاب.

وهاك على كل حال تفسير روسو، الذي يبدو لنا أنه الحقيقة:

«أبداً ما كان الخبث بعيداً عني مثلما كان في تلك اللحظة القاسية، وأنه لغريب ولكنه صحيح أني عندما اتهمت هذه الفتاة التعسة كانت صداقتي لها هي السبب. كانت حاضرة في ذهني: فتملصت من التهمة بإلقائها على أول من خطر ببالي، واتهمتها بأنها فعلت ما كنت أريد أن أفعله، وأنها أعطتني الشريط، ذلك أن نيتي كانت أن أهديها إياه . . . »[1] .

في ذلك الوقت تعرف روسو أثناء إقامته بتورين بالأب جيم، مربي أبناء الكونت دي ميلاريد. وكان لهذا الأب أثر طيب على روسو، إذا حسبنا حساب الفساد الأخلاقي الذي كان غارقاً في حماته عندئذ، والذي وصفه فيما بعد في مقدمة «إقرار إيمان الخوري السافوي». وقد قدم الراهب لروسو في بعض دروس قصيرة كانت بالأحرى فضفضة قلبية، لوحة صحيحة للإنسانية، تغاير ما قام في ذهنه عنها من أفكار باطلة، وتوقفت على حقيقة الناس والمجتمع، وتزوده ببعض النصائح القيمة[2]

(١) الاعترافات، الكتاب الثاني، ص ٤٣.
(٢) الاعترافات، الكتاب الثالث ص ٤٥.

روسو لدى الكونت دي جوفون :

تولى الكونت دي لاروك، وريث مدام فارسليز، تقديم روسو إلى دار الكونت دي جوفون، عميد آل سولار، وهي أسرة عريقة عظيمة الاعتبار. وقد دخلها روسو بوصفه خادماً، إلا أن مركزه كان طيباً، لأن الكونت دي جوفون، وهو شيخ وقور، وابنه الأب دي جوفون، وهو رجل ممتاز، عاملاه برقة ورعاية. واهتم به الأب جوفون على الأخص، ولاحظ جدارته فعلمه اللاتينية والإيطالية، وسعى إلى تحسين مركزه وتوطيد مستقبله لو شاء أن يستجيب لعنايته.

وكان للكونت ابنة في ميعة الصبا، الآنسة دي برى De BReille في مثل سن روسو تقريباً. كانت سمراء، لكن على حد قوله ـ في محياها لمحة من رقة الشقراوات التي لم يستطع قلبه يوماً أن يقاومها. وكانت رشيقة القد، هيفاء القوام، حتى أنه لم يملك أن يمنع نفسه عن التملي في مفاتنها بنظرة جشعة، تنضح ألماً وحسرة. ومع ذلك فقد كان منتهى أمله أن يخدم الآنسة دي برى على المائدة، وكان يترصد أقل فرصة تتاح له ليقف وراءها، مستعداً ـ كما يقول ـ أن يفعل كل شيء حتى تتنازل فتأمره بأي شيء. إلا أن هذه الفتاة المستكبرة كانت تتظاهر بأنها لا تشعر بوجوده.

لكنه ذات مرة أتيحت له الفرصة لكي يظهر ذكاءه: فقد

أقام الكونت ذات يوم مأدبة كبرى، واتفق أن دار الحديث حول شعار آل سولار الذي كان معلقاً على الجدار[1]. وجعل الحاضرون يتخبطون في تفسير معناه، فتقدم روسو وشرحه على نحو صحيح عليم بهت له الجميع وانبرى الحضور يزجون له من الإطراء ما أثلج صدره، على أنك تدرك أن أكثر ما سره هو أنه تلقاه في حضرة الآنسة، التي ارتسمت على وجهها علامات الرضاء:

«كانت هذه اللحظة قصيرة لكن عذبة من كل وجه. وكانت احدى تلك اللحظات النادرة التي تعيد الأمور إلى نصابها، وتنتقم للفصل المهان من إذلال المال[2].

وعلى سبيل المكافأة طلبت إليه الآنسة دي برى، في لهجة تفيض رقة، أن يناولها قدح ماء، وبادر إلى تبلية طلبها ولم يدعها تنتظر:

«بيد أني إذ دنوت منها تملكتني رعدة حتى أني وقد

(١) هذا الشعار هو
وكانت المناقشة تدور حول كلمة
فأوضح روسو أنها كلمة قديمة من فعل
بمعنى يضرب.
(٢) الاعترافات، الكتاب الثالث ص ٤٨.

ملأت القدح سكبت بعض الماء على الطبق بل على ثوبها أيضاً. وسألني أخوها بحماقة عما دهاني. ولم ينفع هذا السؤال في تهدئة روعي، وتضرجت وجنتا الآنسة دي برى بحمرة الخجل».

وليس شك في أن الأم لاحظت أن في الأمر شيئاً، وحدثت بنتها في هذا الشأن. وعلى الأثر جعل روسو يتلكأ سدى في غرفة مدام دي برى: إذ لم يعد يحظى بأي علامة اهتمام من الآنسة. ولم يكن مناص من أن يتخلى عن الغرفة الصغيرة العزيزة.

«وهنا تنتهي الرواية. وأنك لتلاحظ أني لست سعيداً في خواتيم غرامياتي».

ويرى بعض النقاد أن الجزءين الأولين من قصة روسو الخالدة هلويز الجديدة هما تكملة لهذه الرواية، روايته مع الآنسة دي برى. ويضيفون أن هذه الرواية كانت قصة شبابه كله. فمنذ فراره من جنيف لم يراوده حلم إلا أن يجد قصراً في الريف وأن يكون عشيق «آنسة القصر». وقد تكون الآنسة دي برى حققت شطراً من هذا الحلم، وقد تكون هلويز الجديدة تتمة له[١].

---

(١) جول لوميتر، جان جاك روسو، باريس ١٩٢٥، المحاضرة السادسة.

ولعل هذا التفسير ينطوي على شيء من الصواب. إلا أنه يبدو لنا أصوب من ذلك أن نقول أن الآنسة دي برى كانت إحدى نماذج «جوليا»، وأن روسو قد تذكرها وهو يكتب روايته المشهورة. ونكتفي هنا بهذه الملاحظة ما دمنا سنتناول الموضوع فيما بعد، ولنعد إلى سباقنا.

كنا نقول أن الأب دي جوفون أراد أن يعلم روسو وأن يهتم بمستقبله. علمه الإيطالية، وشيئاً من اللاتينية، كما لقنه كيف يميز الكتب النفسية، وكيف يقرأ بإمعان وتفكير، الأمر الذي استفاد منه الشيء الكثير. وجماع القول أنه كان راضياً عن روسو كل الرضا، وكان يعلن ذلك للكافة، بل أنه حدث الملك عنه. ولو أن روسو أوتي شيئاً من الحكمة لبذل قصارى جهده حتى لا يترك هذا القصر. أفلا يعترف بأنه كان في وسعه في تلك الحقبة من حياته ـ بلا مشروعات روائية ـ أن يحقق أمله في النجاه؟

إلا أن طموحه الجنوني لم يكن يبحث عن الحظ إلا في ثنايا المغامرة. إن طريقة الكونت في النجاح بدت له بطيئة كئيبة، لخلوها من الوجوه الصبيحة، ومن جهة أخرى كان من طبعه أن ينقاد لأذهان متقلبة هوائية غريبة الأطوار. وذلك عين ما حدث: فقد لقي في تورين صديقاً يدعى باكل. وكان باكل هذا شاباً ظريفاً مرحاً، تمكن سلطانه على روسو فكلف به

وتعلق بركابه. وسرعان ما نسي الأب دي جوفون ودراساته.

وكان في نية باكل أن يعود إلى جنيف، فقرر روسو أن يفر معه: كانت هذه الرحلة على الأقدام خلال الجبال والغابات هي السعادة القصوى عنده، والذي يزيد من استمتاعه بها أنه سيرى في ختامها وجه مدام دي فاران البسام وطلعتها الفاتنة. ولما تملكته هذه الفكرة أساء التصرف حتى نجح في دفع آل جوفون إلى طرده.

العودة إلى أنيس :

ها هوذا روسو يرحل برفقة صديقه الغريب ليعود إلى سافوا.

وكان الرفيقان المرحان يحملان معهما خلال الألب نافورة صغيرة تدعى نافورة هيرون(١)، وكانت هدية من الأب دي جوفون إلى روسو. وكانا مفتونين بهذه النافورة، ويظنان أن ليس في الدنيا أعجب من هذه الآلة، وأن عرضهما إياها على

(١) نافورة اخترعها هيرون العالم الرياضي الاسكندري وحسنها نيوفنتجت، وتتكون من حوضين أحدهما فوق الآخر يتصلان بأنبوبة. ويملأ الحوض الأسفل نبيذاً فإذا ما وضع ماء في الحوض الثاني، فإن ضغط الهواء يجعل النبيذ ينبثق صاعداً، حتى يظن الرائي أن الماء يتحول إلى نبيذ.

الفلاحين سيكفل لهما الحصول على الطعام الجيد والمأوى الحسن.

وكانت الرحلة ممتعة، إلا أنها لم تنته على الوجه الذي يرومانه: ذلك أن النافورة السحرية لم تأت بالمعجزات التي كانا يتوقعانها، وقد انكسرت في الطريق على كل حال. وعلى ذلك اضطرا في نهاية رحلتهما أن يسيرا رأساً حتى لا يموتا جوعاً. ولما وصل الصديقان إلى أنيسى افترقا وقال باكل لروسو «هأنتذا في بيتك»، ودار نصف دورة واختفى، ولم يسمع روسو به بعد ذلك أبداً.

في ربيع ١٧٢٩ إذن عاد روسو إلى مدام دي فاران، ولم يكد يراها حتى ارتمى على قدميها، وفي نشوة الفرحة طبع على يدها البضة قبلة مستحرة. واستقبلته بحفاوة ورقة، ولم تعاتبه بما يستحقه، ووافقت على إقامته لديها قائلة: «ما دامت العناية الإلهية قد أرجعته إلي فإني عازمة على ألا أتركه».

وكانت الغرفة التي خصصتها له تطل على الريف. وقد أفتن بها روسو:

«كانت هذه أول مرة منذ «بوسى» تطل فيها نافذتي على الخضرة اليانعة كانت دائماً تحجبني جدران فلم يكن يصافح نظري سوى السقوف أو الشوارع الرمادية. فما

أعمق ما كان لهذه الجدة من أثر رقيق في نفسي . . . »

بيد أن وجود مدام دي فاران هو على الأخص ما جعل الحياة في نظر روسو لذيذة فاتنة. طفق يحلم بها في هيام ونشوة وهو يتأمل الأزهار النضرة.

«كنت أراها في كل بقعة بين الأزهار والخضرة، كانت مفاتنها تختلط بمفاتن الربيع أمام أنظاري».

منذ أول يوم رفعت مدام دي فاران كل كلفة بينها وبينه. إذ كانت تدعوه «يا صغيري» وكان يدعوها «أماه» ونشأت بين الصغير وأمه علاقة رقيقة خلو من الرجس مبرأة من الدنس، وفتن روسو أن يكون له أم في مثل هَذا الشباب والجمال، لا تبخل عليه بالقبلات ولا تضن عليه بأرق الملاطفات كأحن الأمهات. إلا أنه لم يسىء استغلال ذلك، إذ كان سعيداً بالعيش بقربها، مداعباً صورتها خفية في أعماق فؤاده، مختلفاً إلى المائدة معها على إنفراد، مستمتعاً بأحاديثها الطويلة التي ما كانت تنتهي أبداً ما لم تقطع قطعاً. يقول روسو «كنت مستغرقاً في هدوء ساحر، مستمتعاً دون أن أدري سبباً. كنت لانفق حياتي بل الأزل على هذا النحو دون أن يتطرق الضجر إلى نفسي لحظة».

وكان نتيجة طبيعية لكلف مدام دي فاران بالمشاريع

والأعمال أن ينشغل روسو بوضع برامج، ونقل مذكرات، ونسخ تذاكر طبية، وصنع عقاقير. وكان أيضاً يقرأ - إذا وجد فسحة من الوقت - الكتب النفسية التي يجدها في غرفته:

السبكتاتور، بوفندورف، هنريادفوليتر . . .[1].

كانت مدام دي فاران تعلق على روسو آمالاً كباراً وتروم له مستقبلاً زاهراً وكانت قد عاشت في مجتمعات راقية وتتفهم الآداب الرفيعة، فلقنت روسو دروساً في التربية والسلوك، وعلمته القراءة المجدية والكتابة الجيدة. ولم تكن تدري ماذا تقرر في شأنه، فسألت صديقها السيد دوبون أن يمتحنه كي تتعرف مواهبه وتوجهه نحو المسلك الذي يصلح له. ولم تكن النتيجة في صالحه: فقد وجده السيد دوبون قليل الفطنة، تعوزه الفكرة، ورأى أن خير ما يصلح له أن يكون خورياً في إحدى القرى. ويجد روسو هذا الحكم مجحفاً وصارماً، ويأتي لنا في هذا الشأن بتفسيرات لها من الأهمية الكبرى ما يدفعنا إلى سردها. فلنصغ إليه:

«يرجع السر في هذا الحكم إلى طبعي . . . أن نقيضين لا يتفقان يتحدان في شخصي دون أن أدرك كيف يتحدان، طبع حاد وعواطف حية جامحة، وأفكار

(١) الاعترافات، الكتاب الثالث ص ٥٦

بطيئة التولد، مرتبكة، لا تحضرني إلا متأخرة حتى لكان قلبي وذهني ليسا لشخص واحد. فالشعور، وهو عندي أسرع من البرق، يملأ نفسي، لكنه بدلاً من أن ينير سبيلي يحرقني ويبهرني. حتى أني أشعر بكل شيء ولا أرى شيئاً. . . . هذا البطء في التفكير، المقترن بهذه الحيوية في الشعور، لا يعتريني أثناء الحديث فقط، وإنما يلازمني في وحدتي وأثناء عملي. ذلك أن ـ أفكاري تنتظم في رأسي بصعوبة لا تصدق. . . ومن هنا المشقة الكبيرة التي أجدها في الكتابة. وأن مخطوطاتي التي لا تقرأ لكثرة ما فيها من شطب وكشط لتشهد بما كلفتني من مشقة. . ما استطعت يوماً أن أكتب شيئاً والقلم في يدي وقد جلست إلى مكتبي وأوراقي. إنما في نزهاتي وسط الصخور والغابات، إنما في الليل في فراشي، وأثناء سهادي أكتب في دماغي. . . »[١].

في المحادثة كان يتهيب النطق، وإن نطق فإنما ليقول حماقة. وهو الذي يعجب في اعترافاته كيف يجرؤ الناس على التحدث في جماعة، ولا يتصور ضيقاً أفظع من وجوب الكلام على الفور وعلى الدوام. كذلك كان روسو يبدو في نظر الناس

(١) الاعترافات: الكتاب الثالث ص ٥٧.

أحمق، وإن كان بعيداً عن الحماقة.

لقد تقرر إذن أن يرسل روسو إلى إحدى المدارس الدينية في أنيسي. ويا لها من مقام حزين لشاب كان يعيش بقرب امرأة ظريفة خفيفة الظل. لذلك شعر روسو، الذي التحق بالمدرسة في إبريل ١٧٢٩، باشمئزاز وخيبة أمل. بيد أنه لقي فيها أستاذاً ممتازاً هو الأب جاتييه. وشمله الأب بعطفه وحدبه، وبذل كل ما في وسعه لكي يعلمه شيئاً ينفعه. إلا أن روسو لم يصب من النجاح إلا نزراً يسيراً، حتى أنه أعيد إلى مدام دي فاران لعدم أهليته لحياة الرهبنة. وكان الأب جاتييه ذا طلعة مؤثرة ونفس مرهفة، وقد طبع في نفس روسو أثراً عميقاً حتى أنه جعل منه النموذج الثاني للخوري السنافوي[١].

وقد آنست مدام دي فاران من روسو ميلاً كبيراً للموسيقى. والواقع أنه كان مشغوفاً بهذا الفن، فقررت أن تجعل منه موسيقياً. وكانت تقيم حفلاً أسبوعياً يرأسه أستاذ الموسيقى في الكاتدرائية الذي يدعوه روسو «لوميتر» (وكان اسمه في الحق نيكولوز). وكان مؤلفاً موسيقياً بارعاً، ورجلاً لطيف المعشر. وأقام روسو لديه وأنفق عنده الشتاء بطوله أي ستة أشهر. ولسوء الحظ نشب شجار بين الأستاذ والمرتل فقرر أن يغادر المدينة. وسألت مدام دي فاران روسو أن يصحب

(١) الاعترافات: الكتاب الثالث ص ٦٠.

أستاذه، وألا يفارقه طالما هو في حاجة إليه. بيد أن روسو لم ينفذ رسالتها بأمانة. فإن الموسيقي الذي كان شغوفاً بالخير كان كثير التعرض لنوبات الصرع. وقد دهمته نوبة شديدة في ليون فسقط في الشارع. وارتاع روسو وجعل يستنجد بالسابلة لمعاونة الرجل التعس، ثم تخلى عنه في غير مرؤة، في ظرف ما كان أحوجه فيه إلى المعونة. إن الفعلة تثقل على ضميره فيقول في الاعترافات «شكراً لله، لقد انهيت من هذا الاعتراف الثالث الشاق على نفسي[1]. إلا أن هذا الاعتراف لا يقيله من ذنبه.

ولم يكد روسو يجد نفسه حراً حتى فكر في العودة إلى أنيسى، بيد أنه لبالغ دهشته لا يجد مدام دي فاران: كانت قد رحلت إلى باريس برفقة الأسقف في مسألة عاجلة. فقدّر مدى ألمه»...

نزهة الريف المشهورة إلى قصر تون:

إنه يقرر البقاء في أنيسى في انتظار أخبار عن مدام دي فاران. وفي تلك الأثناء يتعرف بفتاة تدعى الآنسة جيرو، وبأترابها وكن جميعاً من العاملات. ويجد متعة في رفقتهن،

---

(١) الاعترافات، الكتاب الثالث، ص ٦٦. أما الاعترافان الأولان فهما حكاية الشريط الأحمر والحادث الذي وقع في دير تورين.

وهن أيضاً يحتفلن به. ولكن روسو لا يرى في ذلك كله إلا صداقة أو مداعبة. وعلى كل حال لم تكن العاملات والوصيفات يجذبنه، فما كان يرضيه إلا «آنسات» أنيقات، من ذوات الزينة الرشيقة، والأيدي الرقيقة والأقدام الدقيقة، والروائح المعطرة. . . وقد تحققت رغبته هذه، وهو يقص علينا استهلال الحكاية في جمال يغرينا بأن نسمع إليه:

«بدا لي الفجر ذات صباح من الجمال بحيث لبست ثيابي على عجل وبادرت بالخروج إلى الخلاء لأتأمل شروق الشمس. وتذوقت هذه المتعة بكل ما فيها من فتنة، كان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس جان. وكانت الأرض قد اتخذت زينتها كاملة واكتست بالعشب والزهر، وكانت البلابل وقد أشرفت على نهاية أغنيتها تبدو وكأنما تحرص على رفع أصواتها، وكانت الطيور جميعاً إذ تشترك في وداع الربيع تحيي مولد يوم جميل من الصيف، يوم من تلك الأيام الحلوة التي لم أعد أراها في شيخوختي الآن[٢].

ويسمع من ورائه خبيب جياد وأصوات فتيات يتضاحكن بمرح. ويناديه باسمه، ويلتفت، ويقترب فيجد فتاتين من

---

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٦٩.

معارفه، الآنسة دي جرافنريد والآنسة جالاي، وكانت في ورطة: تحاولان إكراه جواديهما على عبور أحد الجداول دون جدوى.

كانت الآنسة دي جرافنريد فتاة ظريفة من برن، نزحت عن بلادها من جراء إحدى حماقات شبابها، مثل مدام دي فاران. وكان روسو قد تعرف بها لدى هذه السيدة. وكانت تقيم لدى الآنسة جالاي، وهي فتاة برجوازية من أنيسي، تفوق صاحبتها جمالاً وفتنة. وأخبرتاه أنهما في طريقهما إلى تون، وهو قصر قديم لآل جالاي، وأنهما ستنفقان فيه سحابة اليوم، وطلبتا معونته في - إخضاع الجوادين الشموسين. وفي الحال أمسك روسو بزمام أحدهما وأكرهه على اختراق الجدول وهو يتقدمه غائصاً في الماء إلى ركبتيه، وتبعه الجواد الآخر. واعترافاً بجميله عرضت عليه الفتاتان أن يرافقهما، وقالت له الآنسة دي جرافنريد:

«. . . . لا يجوز أن تفر منا هكذا، فقد ابتللت في سبيلنا، وأن الذمة لتلزمنا بأن تعنى بتجفيف ثيابك: يجب، إذا سمحت، أن تأتي معنا، إننا نعتقلك أسيراً. . .»

وبينما يقف روسو مندهشاً قالت له الآنسة جالاي بدورها:

«أجل، أجل، أسير حرب، أقفز واركب وراءها، نحن وحيدتان وسنعود في المساء، وسوف تعود معنا»

وقفز روسو على جواد الآنسة دي جرافنريد، وقد تضرج وجهه حمرة، وارتجف كيانه غبطة، وأردف نفسه خلفها، وظل يحتضنها طول الرحلة. وكان قلبه يخفق بشدة حتى شعرت به الآنسة. وقالت له في دلال ساحر أن قلبها يخفق هو الآخر. . . لكن خوفاً من السقوط».

وولى النهار كحلم لذيذ، يبعث فيه مرح الفتاتين حياة وحرارة. «كان مرحهما الحي الساحر هو البراءة بعينها». وطلبتا نبيذاً، وإذ لم تجداه قال لهما روسو أنهما لا تحتاجان للنبيذ لتسكراه». وكانت هذه هي المغازلة الوحيدة التي جرؤت على قولها طول النهار، إلا أني أعتقد أن الشيطانتين كانتا تريان تماماً أن مغازلتي هذه كانت حقيقة واقعة». ومع ذلك يبدو أنهم نالوا قسطاً من اللهو في حرية واسعة، وجعلوا يتراشقون من آن لآن بالكرز: لعبة وجد فيها روسو متعة عظيمة، ولم يكن تنقصه البراءة فيها:

«صعدت على الشجرة وجعلت أقذف لهما عناقيد الكرز، فيردان النوى إليّ من خلال الغصون. وذات مرة، وقد بسطت الآنسة جالاي حجرها، وألقت

بـرأسها إلى الـوراء، عرضت جسمهـا كهدف عـرضاً خلاباً، فصوبت نحوها تصويبـاً دقيقاً حتى أني رميت عنقـوداً فوق نهـدها تماماً: ولشد مـا ضحكت! فقلت لنفسي: يا ليت شفتي كرزتين! إذن لرميتهما في نفس الموضع عن طيب خاطر»![1].

إلا أن مسلكه طول اليوم كان محتشماً، احتشاماً طبيعياً لا اضطرارياً، والشيء الوحيد الذي أجازه لنفسه هو أنه قبل يد الآنسة جالاي مرة واحدة، وكان وجيب عاطفة مشبوبة قد بـدأ ينـداح في فؤاده. وكان ذلـك أثناء اختـلائهما لحـظة: «كانت مطرقة بعينها، وبدلاً من أن يجد فمي كلاماً، عنّ له أن يلتصق بيدها التي سحبتها برفق بعد أن قبلتها، وهي تحدجني بنظرة لا تنم عن امتعاض».

حلم عذب، لم يستطع روسو أن ينساه أبداً، وإذ تذكره بعد ثلاثين عاماً رواه في اعترافاته بانفعال ما برح حياً. وهـاك ختام قصته:

«.... إن ذكرى يوم يبلغ هذا الحد من الجمال لتؤثر في نفسي وتفتنني، وتعـاود قلبي أكثـر من أيـة متعـة تذوقتها طول عمري. لم أكن أدري تماماً ماذا أريد من

---

(١) الاعترافات الكتاب الرابع، ص ٧٠.

هاتين الفتاتين الفاتنتين، إلا أنهما كانتا تستأثران باهتمامي إلى حد بعيد. . . كنت أجد سعادتي فيما لو كانت الآنسة دي جرافنريد عشيقتي، بيد أني لو خيرت، لفضلت أن أحبها كموضع سري. ومهما يكن من أمر، خيل إلي ساعة الفراق، أني لن أستطيع أن أعيش دون هذه وتلك. . .».

وفي الأيام التالية، جعل روسو يحوم حول منزل الآنسة جالاي في شارع بربير، يراوده الأمل في أن يحظى برؤيتها، لكنه لم يفلح. وحاول أن يراسل صديقته عن طريق الآنسة جيرو التي قبلت أن تساعده على مضض. وبعد أن غادر روسو أنيسى ظل يراسل الآنسة دي جرافنريد مؤكداً لها صداقته وإخلاصه، وذاكراً أن الآنسة جالاي ما برحت تسكن قلبه. ودخلت الآنسة دي جرافنريد الدير في عام ١٧٣٢ وتوفيت في عام ١٧٤٨. أما الآنسة جالاي فلا يعرف أحد عن مصيرها شيئاً[١].

ولئن كنا أسهبنا بعض الشيء في سرد هذه القصة فلما لها من أهمية كبرى. ذلك أن روسو، وهو يكتب روايته الخالدة «هلويز الجديدة» في غابة مونمورانسي فيما بعد، إنما كان

(١) إميل فاجيه، صديقات روسو، الفصل الثالث «حريم روسو».

يستوحي ذكريات حبه هذه، وكان يرسم سمات جوليا وكلير متخذاً الآنستين جالاي وجرافنريد نموذجين لهما. يقول مورنيه: «أن هلويز الجديدة قد تولدت من ذكريات الحب التي ملأت بأطيافها تلك الربوع الخلوية المنعزلة فقد وجد روسو في الغابة الآنستين جرافنريد وجالاي، وجمع الكرر وغذاء قصر تون...»[1].

رحلة إلى فريبورج :

إلا أنه لم يكن يستطيع المكوث في أنيسى بغير حاميته. ثم أن ميله للرحلات سرعان ما غلبه. ورأت الآنسة ميرسيريه وصيفة مدام دي فاران أن ما لها على وشك النفاد، ولم تكن تعرف متى تعود سيدتها، ففكرت في العودة إلى أهلها في فريبورج، وعرضت على روسو أن يرافقها، فقبل عن طيب خاطر، إذ كان دائماً على استعداد لأن يقوم برحلة على الأقدام، وحبذا لو كانت برفقة فتاة جميلة. والواقع أن الآنسة ميرسيريه هذه، وهي فتاة في الخامسة والعشرين، كانت تروق روسو، وكانت هي تشعر بعطف خفي نحوه، وكانت تداعبه وتقلد صوته وحركاته. وقد وجهت كل عنايتها خلال الرحلة

(١) دانيل مورنيه، هلويز الجديدة، طبعة نقدية في أربعة مجلدات، باريس هاشيت ١٩٢٥، الفصل الثاني (ذكريات روسو).

لحمل روسو على المبيت في غرفتها، متذرعة بدعوى ـ خوفها، لكن واقع الأمر أنها كانت تغريها الرغبة في أن تكون عشيقته. بيد أنها طاش سهمها وخاب أملها وانتهت الرحلة في طهارة تامة. ذلك أن روسو لم يكن يتصور كيف يستطيع شاب وفتاة أن يجتمعا! يقول: «كنت أعتقد أنه يلزم أن تمر قرون لإعداد هذا الترتيب المروع»[1].

هذا الخجل المفرط بالقرب من النساء هو إحدى خصال روسو البارزة. ومعظم ذكريات حبه تتسم بمسحة البراءة الوديعة. وسوف تتاح لنا فرص كثيرة لتحقيق تلك الخصلة.

وعرجا على جنيف: وكانت أول مرة يعود فيها روسو إليها منذ فراره. ولم يزر أحداً، إلا أنه شعر بحنين هز كيانه:

«أبداً ما رأيت أسوار هذه المدينة السعيدة، أبداً ما دخلتها إلا شعرت بانفعال قلبي عنيف مأتاه حنين شديد. إن صورة الحرية النبيلة كانت ترفع روحي؛ وفي الوقت نفسه كانت صور المساواة، والاتحاد، ودعة الأخلاق تؤثر في نفسي حتى تستدر دموعي، وتثير في دخيلتي أسفاً شديداً لفقدي كل هذه النعم».

ولم يكن مناص من العروج على نيون. وهناك لم

---

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٧٤.

يستطع أن يستغني عن رؤية أبيه. وكان اللقاء مؤثراً، غير أن أباه لم يصر على استبقائه.

ولما بلغا فريبورج، إستأذن روسو من رفيقته في السفر، واتجه صوب لوزان حيث أراد أن يستمتع بمشهد البحيرة الجميلة حتى يشبع. ومع ذلك فإنه تعرض في لوزان لأقصى درك من الضيق. فقد وجد نفسه خالي الوفاض، مضطراً إلى العيش، فعنّ له أن يدَّعي أنه باريسي ـ مقتدياً بصديقه القديم فانتور[1] ـ وأن يعلم الموسيقى التي لا يعرفها. فغير اسمه إلى فوسور، وصار يدعى فوسور دي فيلنيف، أستاذ الغناء والمؤلف الموسيقي، إلا أن هذه المهزلة لم يكن لها أثر إلا تجليله بالسخرية.

كل هذه الشدائد لم تصرفه عن مدام دي فاران، بل كان يريد أن يراها بجماع قلبه، ويعلل نفسه بأنه لا بد أن يتلقى منها خبراً ذات يوم. وفي انتظار ذلك أزمع أن يزور البلدة التي كانت تقطنها: فيفي. وكانت على بعد أربع مراحل من لوزان فبلغها وتنزه في ربوعها يومين أو ثلاثة أيام. كانت فيفي في نظره المكان الخلاب «الذي لم يكف قلبه عن الحومان حوله»، فقد طبعت في قلبه ذكريات عميقة: ذكرى مدام دي فاران التي

(١) كان فانتور شاباً باريسياً ذكياً وجريئاً، عرفه روسو في أنيسي. وهو يتحدث في الكتاب الثالث من الاعترافات ص ٦٣ وما بعدها.

ولدت فيها، وذكرى أبيه الذي قطنها، وذكرى الآنسة فولسون التي تلقت بواكير عواطفه، وذكرى رحلات كثيرة قام بها في طفولته. لذلك جعل من فيفي المقر المثالي لأبطال قصته الخالدة:

«اذهب إلى فيفي، وزر البلدة، وتأمل المناظر، وتنزه على البحيرة، واحكم إذا لم تكن الطبيعة قد خلقت هذه البلدة الجميلة لمثل جوليا وكليروسان برو....».

ثم أنفق روسو شتاء ١٧٣٠ ـ ١٧٣١ في نيوشاتل. وهنالك شاهد أهلها من عشائر «الموتانيون» المجتهدين، الذين وصفهم فيما بعد في رسالته المشهورة إلى دالامبير المعروفة باسم «رسالة عن المشاهد» وهناك واصل تدريس الموسيقى، وانتهى إلى تعلمها من كثرة تدريسها! ولكنه يستدين، ويعرف الضنك والضيق. ويكتب إلى أبيه ضارعاً إليه أن يغيثه(١). ويأمره أبوه بالعودة إلى حظيرة الكالفينيه، فيرفض روسو ويبرر مسلكه في رسائل كثيرة.

الأرشندريت :

نحو إبريل ١٧٣١ قابل روسو في إحدى حانات بودرى،

---

(١) مراسلات روسو، طبعة دوفور، الجزء الأول، الرسالة الرابعة.

قرب نيوشاتل شخصاً غريباً، ذا لحية مرسلة ورداء بنفسجي اللون، وقلنسوة مبطنة بالفراء كان هذا الرجل يزعم أنه أرشمندريت من بيت المقدس، وأنه موفد لجمع المال لتجديد قبر المسيح. ولم يكن يتحدث إلا اليونانية فلم يفقه أحد من كلامه شيئاً. وخاطبه روسو بالإيطالية، ففهمه الأسقف المزعوم، وأقبل عليه يعانقه. وعندئذ توطدت الصلة بينهما، أصبح روسو ترجماناً له، ورحلا يجوسان خلال سويسرا.

وعرجا على فريبورج، ثم بيرن، حيث حصلا على تصريح بدخول مجلس الشيوخ: وهناك أرتجل روسو خطبة قصيرة أمام المجلس، وشرح مهمة الأسقف، وأطرى تقوى الأمراء، ولم ينسَ أن يستمطر رحمة السماء على أولئك الذين يشاركون في هذا الصنيع الطيب. ويشاء سوء الحظ أن يعتقل الأرشمندريت في سولور، فقد اكتشف سفير فرنسا، المركيز دي بوناك، أنه نصاب. بيد أنه أخذته الشفقة بروسو، واحتجزه بالسفارة.

وجعل يلح في طلب السفر إلى باريس، فأرسل إليها بتوصية حسنة لدى الكولونيل جودار.

وصل إلى باريس إذن في ١٧٣١، بيد أنه لم يجد الوظيفة المرموقة: فقد اتضح له أن الضابط الذي أطنب له في خصاله، لم يكن في واقع الأمر إلا بخيلاً يأبى أن يعطيه مرتباً.

فقرر العودة إلى أنيسي لا سيما وقد علم أن مدام دي فاران قد عادت إلى سافوا.

وكـانت هـذه رحلتـه الأخيـرة على الأقـدام، آخـر تلك الرحلات التي كـان يقوم بهـا عن طيب خاطـر، دون تعجل، ودون أن يخالجه هم، يستروح الأنسام الـطلقة بلذة، ويـطلق العنان لخياله وفكره، ويهيم في ذكريات قلبه، تحوطـه الصور السـاحرة، وتسكـره المشاعـر العذبـة، كانت تخلب لبـه تلك الحياة المتجولة حيث يكسبه السير صحة وشهية قويـة، حيث يـأكل في أيـة حانـة بأقـل قيمة، وينـام في أية بقعـة، ملتحفاً بالسماء، أو مفترشاً الغبراء، أو مستظلاً بشجرة.

وفي هذه الرحلة عرف فلاحاً أجبرته القوانين الضرائيبية التعسفية على إخفاء خبزه ونبيذه، وعلى التظاهر بالموت جوعاً لتفادي خرابه، ولم يمح من ذاكرته أبداً ما أفضى به الفلاح إليه في هذا الصدد:

«هنا كانت بذرة الحقد المستمر، الذي نما حينئذ في قلبي عـلى العنت الـذي يلقـاه الشعب التعس، وعـلى مضطهديه».

وبعد ذلك عرج على ليون، وأقام فيها أسبـوعاً، عـرف خلاله فتاة تدعى الآنسـة سير، لم يلق إليهـا بالاً أول الأمـر، ولكنه وقع في حبها بعد سنوات، وسنتحدث عنها فيما بعد.

الفصل الثالث

روسو في شامبيري

(١٧٣١ - ١٧٤١)

لثالث مرة حل روسو ضيفاً على مدام دي فـاران، وكان ذلك في شامبيري في ربيع ١٧٣٢ . وقد ألقاها هذه المرة تقيم في بقعة تختلف عن أنيسى ولا تدانيها جمالاً : إذ كانت تقطن بيتاً حزيناً كئيباً، فلا بساتين تحف بـه، ولا جداول ولا منـاظر خلابة. بيد أنه «كـان لديهـا»، وهذا يعـوض كل شيء. كـان وجودها ورقتها حياله ينسيانه كآبة البيت.

وعندما وصل إلى شامبيرى وجد مدام دي فاران تتحدث مـع المفتش العـام كـانت قـد دبـرت لـه عمـلاً في مصلحـة المسـاحة، عمـلاً يسيراً لم يلبث أن تعـود عليـه. وأكب على عمله بهمة، سعيداً أن يكسب قوته بشرف، بعد أربع سنوات أو خمس من التجوال والجنون والعذاب[١].

وكان عمله المكتبي يستغرق كل وقته في أول الأمر، ولا يدع له فرصة ليفكر في شيء آخر، ولكن لما جعل ينقلب إلى

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٩٠.

«روتين» رتيب يورث الضجر بدأ يشكو ويتذمر.

فعاودت ذهنه مشاغله وعاد ينشد المطالعة. وجعل في بادىء الأمر يتعمق الحساب، الذي كانت وظيفته تقتضي معرفته. وأكسبته خرائط المهندسين ذوق الرسم، فطفق يرسم المناظر والزهر. وما هي إلا أن انقلب هذا الذوق إلى شهوة حتى أصبح من اللازم أن تُنتزع أدوات الرسم من يده انتزاعاً، وإلا «أنفق شهوراً بأكملها دون خروج».

«هكذا شأن كل الميول التي أستسلم لها، إنها تشتد، فتصبح شهوة، وسرعان ما لا أرى في الدنيا شيئاً غير التسلية التي انشغل بها...»[1].

غير أن أعظم ميوله، وأبرز استعداداته في هذا العهد كانت نحو الموسيقى. لقد شغفته منذ صغره حباً، ولكنه كان يجد في دراستها عسراً. والذي زاده كلفا بهذا الفن هو أنه كان يستطيع أن يدرسه برفقة مدام دي فاران. ولئن كان يباعد بينهما تباين أذواقهما في شتى الموضوعات فقد كان يقرب بينهما البيان. وفي هذا الوقت كانت أوبرات راموتثير ضجة كبرى، وسرعان ما حصل على كتابه «بحث في الموسيقى»، واستغرق في دنيا النغم، يدرس بشغف ونهم.

---

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٩٢.

جعل ينفق وقته في دراسة الموسيقى في هدوء لم تكن فرنسا تعرفه يومئذ: فقد كانت في حرب مع ألمانيا، وكانت الجنود تمر بشامبيرى[1]. عندئذ تحمس روسو للسياسة.

«كنت أتحمس لنجاح هذه الحرب كأنه يهمني جداً. حتى ذاك الحين كنت لم أفكر في الشئون العامة. ونشأت أطالع الصحف لأول مرة، لكن مع كثير من التحيز لفرنسا حتى أن قلبي كان يختلج فرحاً لأقل نصر، وينفطر حزناً لأقل هزيمة كأنها تنزل على رأسي...».

ونحن نعرف عن لسانه أسباب تحيزه هذا، فهو يقول:

«أن ميلاً متزايداً للأدب كان يحبب إلى نفسي الكتب الفرنسية، ومؤلفي هذه الكتب، وبلد أولئك المؤلفين... أن ذوق أدبهم الرفيع يجذب لهم كل ذي ذوق...»[2].

---

(١) أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا في ١٠ أكتوبر ١٧٣٣. ووقعت في نوفمبر أحداث عسكرية في ميلانيه: ولعل الجنود تدفقت على بيمونت حول نهاية أكتوبر.

(٢) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ٩٤.

ويقول في موضع آخر:

«رأيت هذا الشعب السعيد المتألق من قرب، رأيته هادئاً وسط الحرب، مزاولاً العلوم والفنون. . . إن فرنسا هي الوطن المشترك للجنس البشري، كل الناس أخوان الفرنسيين. . . .»[1].

لقد تغذى بكتب الفرنسيين، وكتبَ وتحدث بلغتهم، فأحس نحوهم عاطفة قوية. أحبهم على الرغم منه وعلى الرغم من سوء معاملتهم له ـ كما يقول. وهو يكتب هذا بعد أن عانى بفعلهم أنذل الاضطهاد. ذلك لأنه مدين لهم بتكوينه الأدبي وبشعوره الديني معاً. وهو يعلم ذلك علم اليقين، أو كان يصبح روسو لو لم ينشأ في باريس؟.

هجر روسو وظيفته إذن وبدأ يعطي دروساً في الموسيقى. والأعور ـ على حد قوله ـ في مملكة العميان ملك: فقد عد أستاذاً بارعاً إذ لم يكن في البلد سوى معلمين سيئين، وسرعان ما كسب عملاء كثيرين. كانت أحسن البيوت تبحث عنه، كان يقابل في كل مكان بالترحيب، وكانت آنسات ظريفات أنيقات ينتظرنه متلهفات. لأول مرة في حياته وجد السعادة في الانقياد

---

(١) اسرى الحرب، في المصنفات الكاملة، الجزء الثالث، ٢١٨ (طبعة فيرن)

لميوله. كان له حريم بالمعنى، قوامه تلميذات بارعات الجمال:

«لئن كان في الدنيا بلدة صغيرة يتذوق فيها المرء عذوبة الحياة في عشرة لطيفة أمينة فهي شامبيرى. . نساؤها جميلات، وهن يستطعن الاستغناء عن جمالهن، إذ يتوافر فيهن ما يوازي الجمال، بل ما يعوضه. وأنه لمن الغريب أني، وقد أتاح لي عملي فرصة رؤية كثير من الفتيات، لا أذكر أني رأيت في شامبيرى واحدة منهم ليست فاتنة».

وهو يصف لنا، بسرور لا يخفى، أجمل تلميذاته: الآنسة ميليريد، وهي نحيلة بعض الشيء، ذات عينين متألقتين، هيفاء القوام، كانت تستقبله في الصباح بقميص النوم، الأمر الذي كان يهز كيان أستاذنا الشاب، لأنه ما كان يخشى شيئاً مثل امرأة جميلة في قميص النوم. والآنسة مانتون، وهي صغيرة الجرم، ظريفة الطبع، مفرطة الحياء، بيضاء البشرة، شقراء الشعر ذات ندبة صغيرة في صدرها تلفت النظر إلى هذا الموضع. ثم الآنسة دي شال وهي ذات جمال شامخ، وشقيقتها مدام دي شاربي أجمل نساء شامبيرى. وكان هناك أيضاً فرنسية صغيرة السن من دير فيزيتا سيون. كانت تظهر في أول الأمر تثاقلاً وكسلاً، لكن لم يكد يمر شهر حتى

أصبحت من الحيوية بحيث جعلت أستاذها يزداد مثابرة. . .[1]. على أن هذه الحياة السعيدة لم تخل من بعض المنغصّات: ذلك أن الأمهات كن حريصات على حضور دروس بناتهن، وكن يظهرن أحياناً مليحات، مثل مدام لار التي كانت تستقبل روسو كل صباح بقبلة حارة على شفتيه، وتغمره بالملاطفات المثيرة حتى ضج منها بالشكوى. . .

كل هذا نورده تبصيراً بالملاحظة الهامة التي يبديها أميل فاجيه وهي:

«ينبغي أن نتذكر أن روسو، المشتعل العاطفة بقدر ما هو خجول الطبع، الدائم الالتصاق بالنساء اللواتي كان يعبدهن جميعاً ـ كان لديه كل الأسباب التي تدعو إلى احتفاظه بالعادة المؤسفة، التي يقول أنه تعلمها في إيطاليا، والتي علقت به طبقاً لاعترافه على الأقل لغاية الثانية والخمسين من عمره. ولست أخشى أن أصر على هذا، لأن ذلك المرض لأمراء له أثر كبير في داء السوداء الذي التهم كهولته وشيخوخته[2].

أدركت مدام دي فاران الخطر الذي يتهدد الفتى الذي كان في كنفها، وقدرت أن الوقت قد حان لمعاملته كرجل،

---

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ٩٨.

(٢) إميل فاجيه، صديقات روسو، ص ١٧.

فعرضت على روسو عرضاً يتسم بـالكرم والبـطولة معـاً: ففي أسلوب أخلاقي، وفي مظهر جاد على غير عادتها معه، أفهمت روسـو أنها تؤثـر أن تضحي وتسلم نفسهـا لـه لكي تنقـذه من مخاطر شبابه، وتحوله عن الفتيات اللاتي يبتسمن له ويداعبنه، والنساء اللاتي يغازلنه ويثرنه. وأعطت روسو ـ الذي كان مرتاعاً لهذا العرض الغريب ـ مهلة ثمانية أيام للتفكير. فلنسمع هـذا الاعتراف الخارق لنظهر على طبع روسو بأكمله:

«إنـك تحسب أن هذه الأيـام الثمانيـة طـالت ثمـانيـة قـرون: بالعكس كنت أتمنى لـو طالت ثمـانية قـرون فعلاً. لست أدري كيف أصف لك الحـالة التي كنت فيهـا، إذ كان يتمكلني رعب شـديـد مقـرون بـالقلق والجزع، أرهب الشيء الذي كنت أرغبـه، حتى أني فعلاً كنت أبحث أحياناً عن وسيلة مقبولة أتفادى بها أن أسعـد. تصور طبعي الفـائـر، ودمي المشتعـل وقلبي المنتشي بالحب، تصور قـوتي وصحتي وسني. وفكر أني في حالتي هذه ـ شديد الظمأ إلى النساء ـ لم أكن قد دنوت من أحـداهن. . وأضف على ذلك أن قلبي كـان ممتلئاً لا يـآثرهـا (مـدام فـاران) وظـرف طبعهـا فحسب وإنمـا بأنـوثتها، ومحيـاها، وشخصهـا، بهـا كلهـا، وجماع القـول بكل الـروابط التي تعزهـا إلى

قلبي . . . كيف، بأي معجزة، وأنا في عنفوان شبابي، لم أتعجل باكورة استمتاعي بالنساء، كيف شعرت، والساعة تدنو، بالألم أكثر مما شعرت بالفرح؟ كيف أمكن أن أشعر بالتقزز والمخاوف تنتهبني، بدلاً من المتع التي كان يجب أن تسكرني»؟ . . . (١)

أما ونحن نعرف طبع روسو، فإن العكس هو الذي كان يدهشنا! أنظر ما يقوله فيما بعد في صدد غرامياته: بالقرب من مدام دي فاران كان شعور من الحزن يكدر متعتي دائماً . . . بدلاً من أن أغبط نفسي على امتلاكها كنت ألوم نفسي على الحط من شأنها. أما بالقرب من مدام دي لارناج فقد كنت على النقيض أفتخر برجولتي وسعادتي، واستسلم لحواسي بغبطة وثقة (٢).

ومعنى هذا أنه كان لا يفلح إلا في مغامرات اللذة الخالصة مع النساء اللاتي لا يشعر نحوهن بأية عاطفة.

وهناك ما يحمل على الظن بأن وجود كلود أنيه خادم مدام دي فاران وعشيقها في الوقت نفسه ـ وهو ما لم يكن روسو يجهله ـ كان له أثر كبير في هذا الاشمئزاز، إذ هو يحد من قدر

---

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس ص ١٠٠.

(٢) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٣٢.

مدام دي فاران في نظر روسو. بيد أنه يحتج على ذلك قائلاً: إنك على خطأ، صحيح أن هذه المقاسمة كانت تورثني عذاباً أليماً، لأني في الواقع كنت أجدها لا تليق بي ولا بها، لكن فيما يخص عواطفي ذاتها نحوها فإن هذه المقاسمة لم تغيرها أبداً». والحق أن طول عشرته لها ومعيشته معها في براءة انتهت إلى جعل مشاعر روسو نحوها عاطفية أكثر منها حسية، أليس يقول «كانت مكانتها عندي مكانة الأخت، بل الأم، بل الصديقة. كان حبي لها أكبر من أن يجعلني أشتهيها»؟.

وأخيراً حل ذلك اليوم الخطير. ووجد روسو نفسه لأول مرة في أحضان امرأة. امرأة يعبدها عبادة. لقد حظي بمتعة عظيمة، لسنا نشك في ذلك إلا أنه لم يكن سعيداً:

«لست أدري أي حزن طاغ كان يفسد فتنة الامتلاك، كنت كأني ارتكب سفاحاً محرماً. حينما كنت أحتضنها بهيام بين ذراعي، أغرقت صدرها مراراً بدموعي أما هي فلم تكن حزينة ولا مرحة، كانت رقيقة ملاطفة هادئة»(١).

وكذلك نشأت بين كلود أنيه وروسو ومدام دي فاران شركة لطيفة لعلها أن تكون منقطعة النظير (على ما فكر روسو)

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ١٠٢.

ـ ساهم فيها الأصدقاء الثلاثة بكل أمنياتهم، وجهودهم، وقلوبهم. وما اعتمل في قلب أحدهما غيرة أو ضيق، إذ كان كلاهما يثق في الآخر. وكثيراً ما كانت مدام دي فاران تفلح في إلانة قلبيهما وجعلهما يتعانقان في عبرات ودموع، قائلة لهما أنهما لازمان معاً لسعادتها في الحياة.

إلا أن هذه الشركة العجيبة انفضت على حين فجأة.

كانت مدام دي فاران مشغولة أبداً بالمشروعات، فعن لها أن تنشىء مشتلاً للنبات في شامبيرى، يشرف عليه مدير موظف: ومن الطبيعي أن يكون هذا المدير كلود أنيه. وذات يوم كان عائداً من نزهة في الجبال فأصيب بداء الجُنّاب القتال Pleuesie وتوفي بعد أيام قلائل. وفشل المشروع.

مطالعات روسو ومنهجه :

كانت الموسيقى قد غدت بدعة في شامبيرى، وكانت تقام حفلات عامة يشترك فيها روسو. وكان من بين الأشخاص الذين يعزف معهم السيد دي كونزييه وهو نبيل من سافوا قليل الاستعداد للموسيقى وكثير الكلف بالمعارف الجميلة. وقد راق ذلك روسو الذي بدأ يشعر ببذرة الأدب والفلسفة تختمر في رأسه.

وما هي إلا أن نسي الصديقان دروس الموسيقا ليتفرغا للمؤلفات الأدبية فطالعا معاً بشغف كبير «الرسائل الفلسفية لفولتير»، «ومراسلاته» مع فردريك ملك بروسيا»[1].

ويقول روسو:

«ما من شيء كتبه فولتير كان يفلت منا، إن المتعة التي وجدتها في هذه المطالعات أثارت في الرغبة في الكتابة برشاقة، والحرص على تقليد جمال أسلوب هذا المؤلف الذي كنت مفتوناً به».

ولننوه تنويهاً عابراً بما ينطوي عليه هذا الاعتراف من صراحة نبيلة، فقد كتب في ١٧٦٧ أي بعد ما لقي روسو على يد فولتير من ضروب العنت والاضطهاد!

وكانت صحته حينذاك معتلة حتى لقد ظن نفسه مشرفاً على الهلاك كان يشكو من شدة خفقان قلبه، وذوي أذنيه،

(١) ظهرت الرسائل الفلسفية لفولتير في سنة ١٧٣٤ طبقاً لبيشو الذي نشر طبعة رائعة من مصنفات فولتير. أما مراسلاته مع فردريك فقد بدأت في اغسطس ١٧٣٦ وانتهت في ١٧٤٠. وإذن فقد استطاع روسو أن يقرأ في الوقت الذي نتحدث عنه أي ١٧٣٥ الرسائل الفلسفية لكن ليس مراسلات فولتير. إنه خطأ في التاريخ، وليس هذا بمستبعد ما دامت الاعترافات كتبت بعد الحوادث التي نذكرها بثلاثين عاماً، ومن الذاكرة.

وسوف نرى أن هذه الآلام ستزداد على أثر حادث بسيط . كان يعوده سالومون، طبيب مدام دي فاران، وكان رجلاً ذكياً، وديكارتياً عظمياً، يجيد الكلام عن نظام الكون. ووجد مريضنا لذة في التحدث إلى رجل على مثل هذا الحظ من العلم. ولكي يتتبع روسو أحاديثه العليمة في يسر، جعل يبحث عن الكتب، ووقع اختياره على الكتب «التي تمزج الدين بالعلم»، وعلى الأخص كتب الأوراتوار واليورروريال[1].

«نشأت أطالعها أو الأحرى التهمها التهاماً. ووقع في يدي كتاب منها للأب لامى عنوانه (أحاديث عن العلم) فقرأته وأعدت قراءته مائة مرة. وقررت أن أتخذه لنفسي نبراساً. وأخيراً انجذبت رويداً رويداً نحو العلم بقوة لا ترد»[2].

لأن يقرأ روسو في هذا العهد الكتب التي تمزج الدين بالعلم لهو شيء طبيعي جداً. فإن دار مدام دي فاران كانت ـ كما قلنا ـ داراً كاثوليكية محضة يقصدها القساوسة والرهبان واليسوعيون ويجدون فيها ترحيباً قلبياً. وكان أولئك الآباء

(١) الأوراتوار جمعية دينية تأسست في روما أولاً ثم انتقلت إلى فرنسا سنة ١٧١١ والبور رويال جامعة دينية عظيمة تخرج فيها كثير من أعلام الأدب ومن أشهر كتبها «المنطق».

(٢) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٢٠ .

الحكماء الاتقياء يعطفون على روسو عطفاً أبوياً، بل كانوا يعاملونه كصديق رغم فارق السن. وكانوا يمدونه بالنصائح الطيبة، ويضعون مكتباتهم تحت تصرفه. وبتأثيرهم قرأ كتب الأب لامى، وكلافيل، وسانت أوبان وغيرهم. وكان يعز أولئك الأساتذة ويجلهم. وهو مدين لهم بما اعتقده من أن أولى المعارف هي تلك التي تتناول واجبات الإنسان نحو الله، وأن العلم باطل طالما هو يبتعد عن هذه المعرفة، وأن واجبنا أن نتحرر من العقل، وألا نستفتي إلا القلب. . . .(١).

وجعل يقرأ الكتب الجادة دون خشية. بدأ ببعض كتب الفلسفة مثل «المنطق» ليبور رويال، «والمقال عن الإدراك الإنساني» للوك» ثم مالبرانش، وليبنتز، وديكارت. . . كانت هذه المطالعات في الحق عسرة الهضم بالقياس إلى صانع قديم. ويا لها من شجاعة أن يتعرض وحده لأولئك المؤلفين! وكيف على الأخص يوفق بين أولئك الفلاسفة المتناقضين؟

كانت هذه أول وأعضل مشكلة اعترضت طريقه:

«سرعان ما أدركت أن أولئك المؤلفين أجمعين كانوا

---

(١) هذه المسألة الهامة، التي لا نستطيع للأسف أن نتوسع فيها، قد تناولها بإسهاب بيير موريس ماسون في كتابه «دين روسو» ارجع إلى المجلد الأول ص ١١٥ وما بعدها من طبعة هاشيت ١٩١٦.

فيما بينهم على تناقض مستديم، فراودني مشروع خيالي هو أن أوفق بينهم، الأمر الذي أضناني وأضاع وقتي. هوشت ذهني ولم أتقدم خطوة». . . .

عندئذ غيّر منهجه، واستبدل به منهجاً أفضل وأقوم، يعزو إليه كل ما أصاب من تقدم: هو أن يطالع كل مؤلف حتى نهاية كتابه، دون أن يخلط أفكار المؤلفين بأفكاره، ولا أن يناقشه. قال في نفسه:

«فلا بدَّ بأن أكون لنفسي مخزن أفكار، صحيحة كانت أو باطلة، لكن واضحة ريثما يتزود رأسي منها بما يكفي لأستطيع أن أوازن بينها وأختار إني أعرف أن لهذا المنهج عيوبه، إلا أني نجحت في تعليمي بفضله »[1] .

وقد قام بهذه الدراسات المتنوعة في الخامسة والعشرين من عمره. وهو يعد جميع الشعراء، والمؤلفين الذين طالعهم في قصيدة ألفها في ذاك العهد أسماها «روضة الشارميت»[2] .

ولكي يريح ذهنه من الفلسفة استغرق في الهندسة، ثم الجغرافية ثم التاريخ، ثم اللغة اللاتينية التي وجد في تعلمها

---

(١) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٢٣ .

(٢) روضة الشارميت، المصنفات، المجلد الثالث ص ٣٥٧ .

مشقـة. واستسلم للدراسة بشهـوة لم يعرفهـا من قبـل وبهمـة مشتعلة، وكـان يحبس نفسه في الغـرفة سـاعات متصلة حتى ساءت صحته. ثم وقعت حادثة أثناء تجربـة فيزيقيـة ضاعفت العلة: ظـل أعمى أكثر من ستـة أسابيـع ووقع صـريع مـرض خطير[1]. وأنقذت مدام دي فاران حياتـه بفضل مـا بذلت من عناية وما تكلفت من عناء. وفرض عليه الطبيب أن يتناول اللبن كحميـة «رجيم»، ولم يكن مناص من أن يـذهب إلى الـريف لتنفيذ العلاج.

وهو، على كل حـال، لم يكن يستلطف بيت شامبيـرى الحزين الكئيب، وكان يلح على مدام دى فاران أن تتركه وأن تعتـزل في الـريف. حتى قبلت أخيـراً ـ مـع احتفـاظهـا ببيت شامبيرى ـ أن تبحث عن مسكن يكون على بعد من المدينة بما يتيح لها العيش في هدوء، وعلى قرب منها في الوقت نفسه بما يمكنها من التردد عليها كلما لزم الأمر. وبعد قليل من البحث وقع اختيارها على الشارميت: بقعة خلوية، قرب شامبيرى.

وانتقلت إليها في نهاية صيف ١٧٣٦.

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ١١٣.

الشارميت :

يقول روسو أنه أنفق أسعد أيامه في هذا الكوخ الصغير الظريف، المشرف على واد صغير، والذي تحيط به الكروم والجداول الجارية، وتحف به الغابات المترامية والمروج النضيرة: مقام السعادة والبراءة، الذي كان قوامه متع الحياة الخلوية:

«هنا تبدأ سعادتي القصيرة الأجل، هنا تأتي اللحظات الهادئة، وإن مسرعة، التي أتاحت لي الحق في أن أقول أني عشت. أيتها اللحظات النفيسة المفتقدة! آه! أعيدي بربك مجراك الحبيب سيري في ذكرياتي، إن أمكن، أبطأ مما سرت في الواقع في تلاحقك السريع...»[1].

إن السعادة لتشع من كلماته وهو يسرد بعد طول السنين روائع ذكرياته:

«كنت أستيقظ مع الشمس، وكنت سعيداً، كنت أتنزه، وكنت سعيداً، كنت أتجول في الغابات، وفي

---

(١) الاعترافات، الكتاب السادس ص ١١٧ لاحظ التعابير الرومانتيكية التي سيتناولها في القرن التاسع عشر الكتاب والشعراء وعلى الأخص لامارتين.

سفـوح التلال، وأجـوس خـلال الـوادي كنت أقـرأ، وأشتغـل في البستان، وأقـطف الثمـار، وأعـاون في الأشغـال المنزليـة، وكانت السعـادة تتأثـرني في كـل مكان. . .

ومـع ذلـك لم ينعم بغبـطة الحب التي تـذكـرهـا الاعترافات، فإن منافساً احتل مكانه كما سيأتي.

بيد أنه استمتع بالريف وبالانشراح الذي تضيئه المناظر الريفية «وهي وحدها التي لا تملها العين ولا القلب». وكان يلذ له على الأخص أن يقوم برحلات طـويلة سيراً على الأقـدام، رحلات تنشط ذهنه وقـدميه، وتحـرر روحه، وتشحـذ فكره، وترفعه نحو الله، رحلات انفرادية، خـلال الغابـات والجبال، قوت من إيمانه وجعلت الدعاء على لسانه:

«كنت أستيقظ كل صباح قبل بزوغ الشمس، واخترق روضة قريبة لأصعد إلى الطريق جميلة فوق الكـرمة، تتبـع المنحـدر حتى شـامبيـرى. هنـاك كنت أتنـزه، وأصلي لله صلاة لم تكن مجرد همهمة شفاة بـاطلة، وإنما هي سمو قلبي خالص نحو خـالق هذه الـطبيعة الرائعة التي يصافح جمالها نظري. . .»[1]

(١) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٢٢.

إلا أنها كانت سعادة قصيرة لم تدم سوى صيفين. وكان يعود ومدام دي فاران لإنفاق الشتاء في شامبيرى، حيث يكب على الدراسة الجادة. ومع ذلك فإن الشارميت لم تكن عش غرام فحسب، وإنما كانت أيضاً صومعة دراسة: فقد كان روسو يعود بعد الإفطار إلى كتبه حيث يمكث إلى الظهر، وكانت كتبه ترافقه في كل مكان، حتى أنه كان ينساها أحياناً تحت شجرة... [(١)].

وفي ربيع ١٧٣٧ بلغ سن الرشد، فرحل إلى جنيف ليطالب بنصيبه في تركة أمه. وحالما تسلم المال الذي آل إليه عاد إلى شامبيرى وسلمه إلى مدام دي فاران. إلا أنها أنفقته عليه جميعه، فقد كان في أشد المرض، وكان يظن نفسه مشرفاً على الموت حتى أنه حرر وصيته.. [(٢)]. كان قد درس الطب فاعتقد أنه مصاب بسرطان في القلب. وكانت مدام دي فاران قد سمعت عن طبيب في مونيلييه شفي مريضاً بهذا المرض، فحملت روسو على استشارته.

---

(١) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٢٥، بخصوص دراساته ومطالعاته في الشارميت ارجع إلى كتاب بيير موريس ماسون سالف الذكر، المجلد الأول ص ٨٣ وما بعدها.

(٢) بخصوص هذه الوصية ارجع إلى موسيه باتيه في كتابه سالف الذكر ص ٢١.

الرحلة إلى مونبليـيه
ومدام دي لارناج :

سـافر في سبتمبـر ١٧٣٧ . وتعرف أثنـاء السفـر بسيـدة ظريفة من الطبقة الراقية، أشعرت روسو بالمتعة التي تستـطيع امرأة أن تهيئها لرجل».

كـانت تدعى مـدام دي لارناج، وكـانت في الخـامسـة والثلاثين (أي أكبر من روسـو بعشرة سنـوات)، وكان يـرافقها أحد أصدقائها وهو نبيل عجوز. ومع أن حالة المـرض ليست ميزة تقرب من النساء ـ حسب قول روسو ـ فقد أبدت اهتمامها به ونشأت تلقي شباكها حوله محاولة أن تجذبه.

كانت تسأل عن أخباره، وتدعوه في الصباح إلى غرفتها لتناول إفطاره. . . وسرعان ما توطـدت بينهما الألفـة ولم يكن مناص من أن يخبرها من هو ومن أين يـأتي. وهنا بـدأ خجل روسو وخياله يلعبان دورهما: فقد اضطرب، وخشي أن يكشف عن شخصيته الحقيقية، وأخيراً عن له أن يتخذ شخصية شاب إنجليزي من الأشراف وسمى نفسه وادنج. . كل هذا دون أن يعرف حرفاً عن الإنجليزيـة وتخيل حـرج موقفـه عندمـا طفق النبيل العجوز يحدثه عن انجلترا. . . إلا أنه لحسن الحظ لم يكن لتفكيـره هذا عـواقب سيئة فقـد تخلص بلبـاقـة من هـذا

المأزق الذي زج بنفسه فيه دون روّية.

وذات يوم رافق السيدة إلى القداس. وهناك تراءى له أن يتخذ هيئة من الجد جعلت مدام دي لارناج تظن أنه رجل ورع متدين. ويعتقد روسو أن ذلك قد ضره وأن السيدة كونت عنه أسوأ فكرة. والحق أن ذلك كان من صالحه فقد دفعها إلى مضاعفة اهتمامها به ومحاولات اجتذابه. بل أنها بالغت في ذلك حتى قام في روعه أنها تسخر منه، وكلما زادت من دلالها، وأغدقت عليه من حنانها رسخت الفكرة في رأسه. وهنا جعل يقطب وجهه ويبدو أبله. حتى رأت مدام دي لارناج أنه لن يؤخذ إلا عنوة، وتصرفت معه على هذا الأساس. وسنحت الفرصة أثناء نزهة حول المدينة. ظن روسو أنه في عذاب مبين. ولم يكن يدري كيف يتصرف فزادت جهامته:

«ولحسن الحظ كانت مدام دي لارناج أكثر مني إنسانية، فقد قطعت السكون على حين فجأة، إذ طوقت بساعدها عنقي، وفي الحال حدثت شفتاها شفتي بوضوح لم يدع مجالاً لأي شك. لم يكن ممكناً أن تقع الأزمة في وقت أنسب. فتشجعت وأصبحت ظريفاً. وكان الوقت قد حان لأكون ظريفاً. لقد زودتني بهذه الثقة التي أعوزتني دائماً فحالت دون أن أبدو على حقيقتي. وعندها بدوت على حقيقتي. أبدأ ما

تحدثت عيناي، وحواسي، وقلبي، وفمي أفضل مما تحدثت، أبداً ما كفرت على وجه أكمل عن أخطائي، وإذا كان هذا الغزو الصغير قد جشم مدام دي لارناج بعض الكلفة، فقد كان هناك محل لأن أعتقد أنها لم يخالجها ندم»(١).

فترة عذبة طالت نحو خمسة أيام تمتع خلالها روسو بأعذب الملذات، وتذوقها ـ كما يقول. «خالصة، حية، دون أية شائبة من الألم، وكانت الأولى والوحيدة التي استمتع بها»، ويضيف: «أستطيع أن أقول أني مدين لمدام دي لارناج بأني لن أموت دون أن أكون عرفت اللذة»(٢).

وهنا يقابل روسو عشقه لهذه السيدة بعشقه لمدام دي فاران ولمدام دوديتو، غرامه الأكبر. مع مدام دوديتو عرف الحب الحقيقي، الحب الذي يدير رأس ذلك الذي يتملكه حتى لا يعرف أن يستمتع به. مع مدام دي فاران كانت متعته ـ كما قلنا ـ يكدرها شعور من الحزن حتى أنه بدل أن يفرح بسعادة امتلاكها كان يلوم نفسه على الحط من قدرها. أما مع مدام دي لارناج فكان الأمر مختلفاً: لم يكن يحبها حبه لمدام دي فاران، لكنه لهذا السبب عينه ـ حسب قوله ـ كان يمتلكها

(١) الاعترافات، الكتاب السادس ص ١٣١.

(٢) الاعترافات، الكتاب السادس ص ١٣١.

على نحـو أكمل، «مـائة مـرة» كان يجـانبها فخـوراً برجـولتـه مستسلماً لحواسه بكل قوته، كان الحب الحسي بالمعنى.

والمرجح أن مدام دي لارناج لم تر في البداية إلا ضرباً من التسلية، بيد أنها شعرت نحوه في النهايـة ببعض الحب. ذلك أنها لم تفارق روسو إلا بعد أن حصلت منه على وعد بأن يعود لرؤيتها في سانت انديول لدى أسرتها. ويرى أميل فاجيه أن هذه الجرأة تنبيء عن شيء لا يبتعد عن الحب.

وأقام روسو في مونبلييه زهاء شهرين. لقد عجل بالعودة إلى شامبيرى لما رأى الأطباء يضحكون عليه ويبتـزون مالـه. وقرر ألا يعرج في عودته على مدام دي لارناج حسب وعـده. ذلك أن ذكرى مدام دي فاران كانت تعذبه وتشغل باله. أفيجوز أن يقابل طيبتها وكرمها حياله بمثل هذه النذالة؟.. وكلفه قراره بعض التنهدات إلا أنه شعر برضا الضمير.

«هـذا أول التزام كنت مـديناً بـه للدراسـة: هي التي علمتني التفكير والمقارنة...»[1].

كان راضياً عن نفسه، مرتاحاً إلى شهادة ضميره، وإلى التضحية التي بذلها في سبيل محبـوبته، فـراوده الأمل في أن يجد جزاء وفائه لدى مدام ـ دي فاران. ويتعجل: ويصل مبهور

(١) الاعترافات، الكتاب السادس ص ١٣٥.

الأنفاس، شديد الانفعال، وإذا به يجد شاباً يشغل مكانه وينعم بالوصال. . .

انقلبت أفكاره ومشاعره رأساً على عقب. كانت الصدمة التي مني بها مروعة، وهو يصفها لنا بتعابير مؤلمة :

«أي انقلاب كامل سريع اعترى كياني كله! في لحظة واحدة رأيت كل السعادة التي منيت بها نفسي في المستقبل تتبخر إلى الأبد، وزالت جميع الأفكار المعذبة التي كنت أرعاها بكل حنان، وجدت نفسي وحيداً لأول مرة. كانت لحظة شنيعة مروعة، وكانت اللحظات التي تلتها مظلمة. كنت لا أزال شاباً، إلا أن ذلك الشعور الرقيق من الغبطة والأمل الذي يذكي الشباب فارقني إلى الأبد. منذئذ مات الكائن الحساس. إذ لم أعد أرى أمامي إلا البقايا الحزينة لحياة بلا طعم»[1].

كان ذلك المنافس الذي شغل مكانه يدعى وينزنريد، وهو شاب متعطل من فو VAUD، انخرط في خدمة مدام دي فاران كملاحظ لعمالها وكان ضخم الجثة، أشقر اللون، متين التكوين. ويراه روسو مغروراً، أبله وقحاً، ذلك أنه كان يتباهى

---

(١) الاعترافات، الكتاب السادس ص ١٣٦ .

بقوله أنه لا يتذكر إلا نصف المركيزات اللاتي يزعم أنه امتلكهن. إلا أنه كان نشطاً، غيوراً ودقيقاً في عمله. وكثير الضجيج على الأخص، فكان يرى ويسمع في كل مكان، عند المحراث، في الحظيرة، وفي الحقل. فأي بون شاسع بين هذا الشاب القوي النشط، وروسو المريض الخجول المهمل. لذلك قدرته مدام دي فاران كل التقدير، ولكي تستبقيه استعملت كل الوسائل، ولم تنس الوسيلة التي كانت تعتمد عليها...

رفض روسو هذه المرة أي مقاسمة. عبثاً قالت له مدام دي فاران. أن نفس الصداقة الحميمة سوف تسود بينهما، وأن كل حقوقه ستبقى محفوظه على ما هي عليه. لكنه أبى أن يسمع كلمة في هذا الشأن.

«كلا، يا أماه، إن حبي لك لأكبر من أن أرضى بالحط من شأنك، إن امتلاكك لأعز عندي من أن يقاسمني فيه أحد، سوف تكونين دائماً محل عبادتي، فكوني جديرة بها، أن أحترمك لهو أمر ألزم لي من أن أمتلكك...».

أقوال حمقاء لا تغتفرها النساء، فالقدرة على الاستمتاع بهن وعدم استعمال هذه القدرة هي في عرفهن جرم لا يغتفر.

وكـانت النتيجة أن عـاطفة مـدام دي فاران نحـو روسو فتـرت وبردت.

منذئذ شعر بأنه أصبح منعزلاً في تلك الدار التي كان منذ قليل روحها. ولكي يوفر على نفسه هذه الجراح المتصلة حبس نفسه مع كتبه. وجعل من آن لآن يلتجىء إلى الغابة ليبكي في أحضانها وينفس عن صـدره، ويخفي دموعـه عن هذه المـرأة القاسية التي أبقى على حبها.

وأخيراً طفح الكيل وأصبحت هذه الحيـاة فوق طـاقته. فأزمع أن يهجر الدار.

وفي إبريل ١٧٤٠ حزم أمره وذهب إلى ليون ليكون مربياً لأولاد السيد مابلي [١].

روسو مربي لدى المسيو دي مابلي، ١٧٤٠ :

هذه المحاولة البيد اجوجية لم تفلح :

فـالطفـلان اللذان تعهدهمـا مؤلف أميل مستقبـلاً كـان أحدهما شيطاناً عـاصياً مـريداً، والثـاني أبله وأشد من البغـل

(١) كـان السيد مـابلي حاكم ليـون، وأخاً الأب دي مـابلي الذي خلف مؤلفات في التاريخ (١٧٠٩ ـ ١٧٨٥) والأب دي كونديـاك الفيلسوف المعروف زعيم المدرسة المسماة بالحسية (١٧١٥ ـ ١٧٨٠).

عناداً. ويعترف روسو على كل حال بأنه كان يعوزه الصبر، وبأن المناهج التي استعملها كانت غير صالحة:

«طالما كانت الأمور تسير سيراً حسناً كنت ملكاً، وعندما كانت الأمور تسوء كنت إبليساً... لعلي كنت أنجح مع شيء من الصبر وضبط النفس.. لم أكن استعمل مهماً إلا ثلاث أدوات، هي دائماً غير مجدية مع الأطفال وكثيراً ما تضرهم: العاطفة الاستدلال، والغضب»[1].

وجماع القول، أن روسو بعد محاولة طالت سنة، قرر التخلي عن مهنة لا يصلح لها، وأن يضع حداً لموقف حرج. ومن جهة أخرى كانت هناك بعض حماقات تضاف إلى هذا الفشل: فقد حاول أن يروق مدام دي مابلي، كما أنه أخفى نبيذاً ليشربه خفية... وكان المسيو دي مابلي رجلاً ظريفاً يخفي تحت مظهر جاف طيبة قلب نادرة، ولولا ذلك ما استغنى عن روسو بهذه البساطة.

(١) الاعترافات، الكتاب السادس، ص ١٣٩.

العودة إلى الشارميت :

وعاد إلى الشارميت.

عاد يبحث عن ماض ولى، وهيهات أن يعود. وإن هي إلا أن يمكث نصف ساعة بجانب مدام دي فاران حتى يدرك» أن سعادته القديمة قد ماتت إلى الأبد». وكان وجود الأشياء التي كانت شاهدة على سعادته الغابرة تزيد من قسوة حظوته الزائلة.

استعان بالقراءة والدراسة، وأصبح مكتبه تسليته الوحيدة. وأخيراً أدرك أنه لا مناص من أن يخلق لنفسه حياة مستقلة. وفي هذه اللحظة كان يستشف إفلاس مدام دي فاران التي كانت تسمع نصائح قوم من النصابين فتبعثر أموالها بلا تبصر، في مشروعات تفشل الواحد تلو الآخر. وكان ذلك يحز في قلب روسو الذي لم يفلح في حملها على الاصغاء إليه، والذي كان يفكر في وسيلة تمكنه من معونتها. بيد أنه كان يحس أنه لم يؤت من العلم ما يكفي ليتألق في ميدان الأدب وليغتني عن هذا السبيل.

ونحن نعرف أنه كان يحب الموسيقى حباً جماً. وكان قد درسها دراسة خاصة. فظن أنه قد يصل عن هذه الطريق. وخيل إليه أنه قد يتوصل إلى شيء من التحسين في طريقة

كتابتها. عندئذ فكر أن يستبدل بالعلامات الموسيقية التي يراها معيبة أرقاماً بسيطة، بحذف الأسطر وما بينها من مسافات ومنذئذ اعتقد أن في جعبته اختراعاً سيحدث ثورة، وقرر أن يقدم مشروعه إلى مجمع العلوم في باريس.

وعلى ذلك اتخذ سمته إلى باريس ومعه نظريته الموسيقية مثلما رحل من قبل من تورين حاملاً نافورته الهيرونية: وكان ذلك في خريف ١٧٤١. وكان في التاسعة والعشرين من عمره.

وكان أمامه تسع سنوات يبقاها خامل الذكر مغموراً.

إن سفره إلى باريس في عام ١٧٤١ حادث له من الخطورة في حياته ما يجعلنا نقف عنده لحظة. فإنه يقسم حياته إلى مرحلتين متميزتين تماماً.

لغاية ذلك الحين عاش روسو أياماً هادئة سعيدة، كان الحظ يبدو فيها محبّذاً لطباعه وميوله: حياة جوال، حالم، حياة عطلة، وهدوء يتخللها من آن لآن هو خفيف خلو من العواصف والأنواء.

أما مع باريس فتبتدىء حقبة جديدة (٤٠ عاماً)، سوف نرسم له فيها لوحة تختلف كل الاختلاف: حياة الرجل الأديب، بما تتضمنه من شهرة جارفة وآلام عنيفة...

من كان على التحقيق ذلك الشاب ذو الثلاثين ربيعاً، الذي يأتي من الحقول والغابات ليضع قدمه في أكثر مجتمعات باريس تألقاً ووميضاً؟والذي يلمع فجأة كالشهاب في سماء الأدب، فيقلب كل أفكار عصره رأساً على عقب؟.

كان رجلاً ذا حساسية خارقة وخيال قوي فذ. وأصف إلى هذه الحساسية زهواً خارقاً أيضاً، مأتاه وعيه برقته الطبيعية، وطيبة قلبه، وتفوقه الذهني إنه «الرجل المرهف الحس» الذي سيجعل الإحساس أساس الأخلاق، والذي سيكتب في هذه المرحلة الأولى معظم هلويز الجديدة وإميل.

ونتيجة لحساسيته وزهوه تجد في روسو حباً عميقاً للعزلة، وللتأمل والاستقلال، ولحياة التجوال، ثم للطبيعة، إنه ميله الغلاب.

تلك هي أظهر صفات روسو كما نعرفه في الثلاثين من عمره. أضف إلى ذلك عدم شعور بالواقع: «أبداً ما رأى شيئاً على ما هو عليه. لقد رأى كل شيء أجمل من حقيقته لغاية الأربعين، وأسوأ من حقيقته ابتداء من طور الكهولة». . حتى ذلك العهد لم يكن قد عرف الدنيا: «كانت الدنيا قد مرت أمام أنظاره، وأعجبته إلى أقصى حد لكنه لم يعرفها قط . من احتكاك روسو الذي نعرفه بالمجتمع، ومن الرض المروع

الذي أعقبه، ولد روسو ذو ـ الأربعين عاماً، روسو الذي فكر وكتب»[1].

زد على ذلك أيضاً «شعوراً دينياً» خالصاً وعميقاً، كان أساس خلقه.

وقد ورث هذا الشعور أولاً عن أسرته، وهو يقول: «ولدت في أسرة تسود فيها الأخلاق والتقوى»[2]. ثم نما هذا الشعور بفضل البيئة التي عاشرها في شامبيرى: الآباء الذين كانوا يترددون على دار مدام دي فاران، والذين اتخذوه صديقاً. ولنلاحظ أن إقامته في شامبيرى طالت زهاء عشر سنين، وكانت فيما بين العشرين والثلاثين، وبالتالي في مرحلة حاسمة لتكوين الذهن والخلق. وقد تأثر روسو كل التأثر بهذه الصداقات الاكليركية. وإذا كان في المرحلة الثانية من حياته، وبالرغم من كل الحملات الفلسفية، قد احتفظ بإيمانه قوياً، فذلك لأن أساتذته في شامبيرى قد طبعوا الإيمان في روحه بحروف لا تمحى[3].

---

(١) إميل فاجيه، القرن الثامن عشر.

(٢) أحلام جوال منفرد، النزهة الثالثة، مصنفات طبعة فيرن، الجزء الأول ص ٤٠٩.

(٣) إرجع إلى بيرموريس ماسون في كتابه «دين روسو» الفصل الثالث السنوات الكاثوليكية.

من هـذه الخطوط نجمـع صفـات روسـو في مـرحلتـه الثـانية: الـرجل المفكـر، المجرب، الثـائـر على الأوضـاع، العميق الإيمان...

الفصل الرابع

باريس

(١٧٤١ - ١٧٤٩)

عرج روسو على ليون حيث توقف بعض الوقت ليزور معارفه، ويحصل منهم على بعض التوصيات لباريس. وهنا لك عرف الأب دي مابلي، شقيق حاكم ليون الذي سبق التحدث عنه. وكان قد عرف فيها في العام السابق كوندياك. وزوده ـ الأب دي مابلي ببعض التوصيات لباريس، ومن بينها رسالة إلى فونتنل الذي كان يكنّ دائماً لروسو صداقة ورعاية.

وفي ليون رأي لثاني مرة فتاة محببة يقول أنها خلفت في قلبه ذكريات عذبة: الآنسة سير[1] التي كان قد عرفها قبل ذلك بعشر سنوات في المدينة نفسها. ولقد رآها كثيراً وأحبها حباً عنيفاً. بل هو يعتقد أنها كانت تبادله العاطفة. بيد أنها كانت غير ذات مال، وكان هو مثلها، ولذا لم يستطع أن يفكر في الزواج منها. وطلب تاجر شاب يدها فابتعد عنها مرغماً حتى لا

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع ص ٨٨ عام ١٧٣٢، والكتاب السابع ص ١٤٤ عام (١٧٤١).

يكدر مستقبلهما. وقد خلفت هذه التضحية في نفسها ذكرى عذبة. وتوفيت الآنسة سير بعد سنتين أو ثلاث سنوات من زواجها وما من شك في أن الرسالة التي دبجها عام ١٧٤١ كانت موجهة إليها ـ تلك الرسالة التي تعبر عن عشق مضطرم، والتي نجدها في مراسلاته تحت عنوان: إلى الآنسة.....[١]

وأخيراً يصل إلى باريس في خريف عام ١٧٤١.

وكان يحمل معه ١٥ جنيهاً، وكوميدياً «نارسيس» التي ألفها ومشروعه الموسيقي الجديد. وبادر لمقابلة الأشخاص الذين أُوصُوا به، والذين أَوْصُوا به بدورهم.

مشروع الموسيقى:

تقدم بمنهجه الجديد إلى مجمع العلوم. وفي ٢٢ أغسطس ١٧٤٢ حظي بشرف قراءة المذكرة التي أعدها لهذا الغرض أمام المجمع. وقوبل بالتهنئة ثم عين ثلاثة ممتحنين لتقدير قيمة اختراعه. والحق أن الثلاثة جميعاً كانوا ذوي أهلية وجدارة، لكن لا أحد منهم حسب قول روسو ـ يعرف الموسيقى بما يكفي لتقدير قيمة مشروعه.

وكان يرد في خجل على اعتراضاتهم، ولم يتوصل إلى

---

(١) مراسلات روسو، الجزء الأول، الرسالة رقم ١٢.

إقناعهم. وأخذه العجب للسهولة التي كانوا يفتدون بها حججه، بفضل بعض جمل منمقة منغمة، دون أن يفهموها. وجماع القول إنهم «كشفوا، أين لست أدري، أن راهباً يدعى الأب سوهيني كان قد تصور فيما مضى تسجيل السلم الموسيقي بالأرقام. وكان هذا كافياً للزعم بأن منهجي ليس بجديد»[١].

وبناء على تقرير الممتحنين منح المجمع المؤلف شهادة مليئة بالتهانيء مفهومها أنه يقدر أن النظرية ليست جديدة ولا مفيدة.

بيد أن روسو لم يسلّم بحكم المجمع وحبس نفسه في غرفته واشتغل شهرين أو ثلاثة بغيرة وحرارة. وأخيراً احتج على حكم المجمع في «بحث في الموسيقى الحديثة»، عام ١٧٤٣ وهو تأليفه الأول[٢]. ولكي يقيم الدليل على متانة مشروعه علم فتاة أمريكية الموسيقى بالمجان. وفي مدى ثلاثة أشهر أصبحت، بطريقة روسو، قادرة على قراءة الموسيقى أياً كانت. وكان نجاحاً فاصلاً إلا أنه ظل مجهولاً. وهنا يقول روسو «هاك كيف تحطمت مني نافورة هيرون مرة أخرى: لكني كنت هذه المرة

(١) الاعترافات، الكتاب السابع ص ١٤٦.
(٢) المصنفات، المجلد الثالث ص ٤٥٣.

في الثلاثين من عمري»[1].

إلا أنه لم ييأس وإنما استسلم للكسل وترك نفسه للعناية الإلهية التي ساقت له أباً يسوعياً صالحاً: الأب كاستيل.

قال له الأب كاستيل ذات يوم «إني لمستاء أن أراك تهلك كذلك دون أي عمل، ما دام الموسيقيون، ما دام العلماء ليسوا على توافق معك، فلتغير الوتر ولتجرب النساء. لعلك أن تصيب نجاحاً أفضل من هذه الناحية». هكذا نصحه ذلك اليسوعي. إن روسو لمدين له بمعرفته مدام دي بوزنفال، مدام دوبان، مسيو دي فرانكبي، وعن طريق هذا الأخير، بمعرفته مدام داينايِ ومدام دوديتو.

في السفارة الفرنسية بالبندقية:
مسألة المسيو دي مونتيجو:

كانت أول نتيجة لهذه التوصيات أن أوفد روسو إلى البندقية، سكرتيراً للسفير الفرنسي المسيو دي مونتيجو.

وأنفق في تلك المدينة ثمانية عشر شهراً. وهي حقبة من حياته خليقة بالإعجاب. وقد تميز بمتانة خلق، وحسن سلوك، وموهبة للدبلوماسية مما أكسبه تقدير الجميع. كان رجلاً آخر،

(١) الاعترافات الكتاب السابع ص ١٤٧.

يختلف عن الرجل الذي عرفناه حتى ذاك العهد.

«تركت وحدي، بلا صديق، ولا نصيحة، ولا خبرة، غريباً في بلد أجنبي، أخدم بلداً أجنبياً، وسط طائفة من النصابين الذين كانوا يحرضونني على محاكاتهم، لمصلحتهم، لاستبعاد الفضيحة الناشئة عن وجود قدوة حسنة بينهم، لكني لم أفعل شيئاً من ذلك، بل خدمت فرنسا مخلصاً مع أني لم أكن مديناً لها بشيء، وخدمت السفير كما هو واجب، في كل أمر كان في وسعي. كنت أشغل مركزاً رفيعاً، وليس هناك ما يؤخذ علي، فاستحققت ونلت تقدير الجمهورية، وتقدير جميع السفراء الذين كنا على صلة بهم، وعطف جميع الفرنسيين المقيمين في البندقية..»[1].

ويقول روسو أن السفير كان رجلاً غليظاً، بخيلاً، جاهلاً، وبه لوثة من الجنون[2]. وقد أثارت القطيعة بينهما

---

(١) الاعترافات، الكتاب السابع، ص ١٥٥.

(٢) إن حماقة السفير المسيو دي مونتيجو أمر محقق. ارجع في هذا الصدد إلى:

إميل فاجيه، روسو المفكر، ص ٥

شوكيه، جان جاك روسو، ص ٢٧

موسيه باتيه، حياة جان جاك روسو ص ٥٧

ضجة كبرى. ولما زاد ظلم السفير وسوء معاملته عن الحد طلب روسو إعفاءه من الخدمة. وفي أول الأمر أصم رئيسه أذنيه، ثم انفجر في غضب شديد. وبعد سيل من الشتائم أتهم روسو بأنه باع الشفرة، وهدده باستدعاء رجاله لالقائه من النافذة. فخرج روسو من الباب محتفظاً بكرامته، ولجأ إلى قنصل فرنسا الذي كانت تربطه به صلات ودية، واستبقاه للعشاء. واحتفى به جميع الفرنسيين ذوي المكانة المقيمين بالبندقية.

وأسرع روسو فور ما وصل إلى باريس إلى الانتقام من رئيسه الذي لم يشأ حتى أن يسوي حسابه، وتركه يرحل دون نقود. هرع إلى وزارة الخارجية ورغم الوثائق التي يحملها، والتي تثبت سوء نية المسيو منتيجو وعدم أمانته، لم يجد إنصافاً.

إننا لا نسهب في مثل هذه الحوادث عبثاً. فإن الحقد الذي شعر به من جراء عدم إنصافه هذا هو البذرة التي أنبتت مشاعر العصيان الذي سوف ينفجر فيما بعد في «مقال عن عدم المساواة»، وفي «العقد الاجتماعي» لقد شهد الجميع بأنه كان تعساً ومظلوماً، وبأن السفير كان رجلاً قاسياً ومجنوناً يقول: «لكنه كان السفير، ولم أكن إلا سكرتيراً». ويقول أيضاً:

«إن عدالة شكواي وضياعها عبثاً قد ترك في نفسي بذرة من الحنق ضد أنظمتنا المدنية السخيفة، حيث يضحي دائماً بالخير العام الصحيح والعدالة الحقة في سبيل نظام ظاهري لست أدريه، نظام مدمر في الواقع لكل نظام، ولا أثر له إلا أن يضيف مصادقة السلطة العامة على اضطهاد الضعيف، وعلى استبدال القوي[1].

ولقد زعم البعض أن روسو لم يكن إلا «خادماً» للكونت دي مونتيجو، وليس سكرتيراً للسفارة، وتكلف فولتير، الذي اشتهر بخصومته لروسو، عناءً كبيراً ليثبت هذه الفرية. فحصل على جميع الرسائل المتبادلة بين السفير والسكرتير، المحفوظة في أضابير وزارة الخارجية، إلا أنه طاش سهمه لأنه مهما كانت عبقريته، كان يكافح ضد الحقيقة. وقد رد روسو صراحة على هذه المناورات الخبيثة:

«إذا كان السيد دي فولتير قد قال أني لم أكن سكرتيراً لسفير فرنسا في البندقية، بل كنت خادمه، فإن السيد دي فولتير قد كذب في ذلك بوقاحة. إذا لم أكن في سنتي ١٧٤٣، ١٧٤٤ السكرتير الأول لسفارة فرنسا،

(١) الاعترافات الكتاب السابع ص ١٦٨.

إذا كنت لم أقم بأعمال سكرتير السفارة، إذا كنت لم أحظ بالتشريف في برلمان البندقية، فإني أكون الكاذب في ذلك»[1].

زوليـيتا ، غانية البندقية المشهورة :

في مدينة الحب واللذة هذه، مدينة كازانوفا، لم تتعد حياة روسو الغرامية مغامرات بسيطة. وكانت إحدى مغامراته الهامة مع فتاة تدعى لابادوانا، غير أن أشهرها كانت مع زولييتا. وهي فتاة سمراء لا تتعدى العشرين ربيعاً. يقول روسو في شأنها:

«لا تحاول أن تتخيل مفاتن هذه الفتاة الساحرة، فإنك لن تقرب من الحقيقة....»

ويقول أيضاً «إذا أردت أن تعرف رجلاً، فاقرأ الصفحتين التاليتين: تعرف جان جاك روسو تماماً. ولقد قرأناهما، ونحن نحيل القاريء على نص القصة، ومع ذلك ينبغي على الأقل أن نورد استهلالها:

«دخلت خدر عاهرة كأني أدخل معبد الحب والجمال.. لم أكد أعرف، بعد المداعبات الأولى،

(١) موسيه باتيه، جان جاك روسو ص ٥٩ وما بعدها.

ثمن مفاتنها وملاطفاتها، حتى خشيت أن تضيع مني ثمرتها، فأردت أن أعجل باقتطافها. وعلى حين غرة، بدلاً من اللهيب الذي كان يلتهمني، أشعر ببرود قتال يسري في عروقي، وإذ كدت أفقد شعوري، جلست وبكيت مثل طفل....»[1].

إن جول لومتير لا يستطيع أن يكتم إعجابه بهذه الفقرة فيقول:

«لعل هذه هي المرة الأولى التي تكتب فيها تعبيرات بمثل هذا الشعور، بمثل هذه اللهجة، بمثل هذا الأسلوب الحي. كان لا بد لروسو لكي يصل إلى هذا الأسلوب، من حياة بتمامها من الخجل الأليم في شؤون الحب، ومن الحساسية، ومن الرغبة غير المشبعة، فضلاً عن العبقرية»[2].

«من ذا الذي يستطيع أن يدرك سبب دموعي، وما كان يدور برأسي في تلك اللحظة؟ قلت في نفسي: إن هذا الشيء الذي تحت تصرفي، لهو تحفة رائعة من تحف الطبيعة والحب، إن الروح والجسد، إن كل ما

(١) الاعترافات، الكتاب السابع ص ١٦٥.
(٢) جول لوميتر، جان كاك روسو، باريس، كالمان طبعة ١٩٢٥ المحاضرة الثانية ص ٤٣.

فيها كامل. إنها طيبة وكريمة بقدر ما هي ظريفة وجميلة. الكبراء والأمراء كان يجب أن يكونوا عبيداً لها، والعروش كان يجب أن تكون تحت قدميها. ومع ذلك فها هي ذي عاهرة تعسة، في قبضة العامة، إن قبطان سفينة تجارية يتصرف فيها كيفما يشاء....».

إن هذا الحنان على العاهرة، هذا الاحترام للمرأة الساقطة، هو الموضوع الأثير الذي سوف يمجده أعلام الرمانتيكية.

ترى ماذا تظن زوليتا الجميلة قد فعلت أمام هذا الحنان الفياض أمام هذه العاطفة الجياشة، أمام هذه الدموع التي سعت من أجلها؟

لقد نهضت متثاقلة، وذرعت الغرفة متبخترة، متروحة في كبر وأناقة ثم قالت في لهجة باردة ساخرة:

Zanetto, Laxia le donne, estudia la matematica(1).

---

(١) الاعترافات، الكتاب السابع ص ١٥٠.

روسو ومدام دوبان :
صالونات باريس :

قبـل سفر روسـو إلى البندقيـة كان قـد قـدم إلى بعض سيدات المجتمع الـراقي، ومن هن مدام دوبـان. وكانت من أجمل فاتنات باريس.

كان زوجها، الملتزم العام، قد تزوجها وله ابن شاب من زوجته الأولى يدعى مسيو دي فرانكيـي أول عشاق مدام داينـاي التي سوف نتحدث عنها طويلاً فيما بعد .

وكانت مدام دوبان مثل كـل سيدات المجتمـع في ذاك العهد تستقبل في قصرها مشاهير الرجال وعلى الأخص أعلام الأدب. وكان قصرها لا يقل تألقاً عن أي قصر في باريس:

«كانت تحب أن ترى كل الناس الـذين يشعون ضيـاءً وبريقاً، الكبراء، والأدباء، وجميلات النساء. ما كنت ترى لديها إلا أدواقاً وسفراء. . . . . . »[1].

وكا من الطبيعي أن يؤخذ روسو بجمال مدام دوبان، فإنه ما كان يستطيع أن يرى سيدة راقية، ومن باب أولى أجمل امرأة في بـاريس دون أن يقع في حبهـا. إلا أنه كـان معذوراً هـذه المرة:

---

(١) أي صاحبي، مالك والهوى، الأوفق أن تتعلم الرياضة!.

«استقبلتني في مخدعها. وكانت ذراعاها عاريتين، وشعرها مرسلاً ومبذلها متهدلاً. فذهلت لهذه المقابلة الجديدة علي، ولم يستطع رأسي المسكين أن يتحمل تأثيرها، فاضطرب عقلي، وزاغ بصري، وإذا بي أسير لمدام دوبان».

لقد أبدت اهتمامها بالموسيقي الشاب (كان روسو قد قدم لها بهذه الصفة)، وحدثته عن مشروعه، واحتجزته للعشاء، وأجلسته بجانبها على المائدة، وخصته بعنايتها. وكان حسبه هذا ليجن بها: وقد جن بها فعلاً.

وكانت قد سمحت له أن يحضر للعشاء عندها من آن لآن، فبالغ روسو في استغلال سماحها إذ جعل يتردد عليها كل يوم تقريباً. كان يتحرق لأن يبوح لها بهيامه لكنه بطبيعة الحال لم يكن يجرؤ على ذلك. وأخيراً لما لم تواته الجرأة على الحديث، ولم تواته القدرة على السكوت، قرر أن يكتب لها. واحتفظت برسالته يومين أو ثلاثة أيام، ثم ردتها إليه مصحوبة بكلمتين باردتين. وفوق ذلك رجته عن طريق مسيو دي فرانكي أن يقلل من زياراته. بيد أنها في الوقت نفسه، بنزوة غير متوقعة، كلفته برعاية ابنها الصغير شنونسو!

وهنا نصل إلى أهم حدث في حياة روسو: مقابلته لفتاة:

تيريز لوفاسير :

بعد هذه الأحـداث، عاد روسـو إلى الإقامـة في فندقـه الحقير في شارع كورد وليبه، بالقرب من السـوربون. وهنـاك تعرف بتيريز لوفاسير ١٧٤٤ وكان لهذه الصلة أسـوأ الأثر على مستقبله.

كانت هذه الفتاة التي تشتغل خادماً بالفندق تختلف مع صاحبته ونزلائه إلى مائدة واحدة. وكانت حسـاسة، بسيـطة، ذات مظهر متواضع ونـظرة حية رقيقـة جذبت اهتمـام روسو. وكـان النـزلاء الـذين ينشـدون فـرصـة التسليـة يمـازحـونهـا ويتملقونها. فتصدى روسو للدفاع عنها، وأصبح بطلاً في عين الفتاة التي أحبها وارتبط بها. وجماع القول أنه اتخذها خليلة، معلناً لها بصراحة أنه لن يتزوج منها ولن يتخلى عنها.

كـانت تيريـز فتاة ريفيـة غبية جـاهلة جهلاً مـطبقـاً، لا تستطيع أن تقـرأ حرفـاً، ولا أن تعرفـ رقمـاً. وضاعت جهـود روسو في تعليمها عبثاً. كانت لا تليق به مطلقاً. ولم ينل روسو في صلاته معها السعادة التي كان يرجوها، ولا تبـادل الشعور الذي كان يتوقعه منها، أولاً بصفته محسناً إليها ثم بصفته زوجاً لها (لأنه تزوجها فعلاً فيما بعد). لقد حقق تعاسته يوم اتخذها عشيقة له. يقول اميل فاجيه: «لقد تكفل برفيقة غبية، ظالمة،

خائنة، لا نقول في شأنها سوى كلمة واحدة، لكن بكل يقين، ذلك أن كل أخطاء روسو الخطيرة إنما يجب أن تعزى إليها»[1].

لقد فرضت عليه أسرتها. أصبح روسو فريسة لعصابة من الجوعى ومصاصي الدماء، للأب لوفاسير الذي أدخله روسو آخر الأمر أحد الملاجىء، للأم لوفاسير المرأة الماكرة، الجشعة، النهمة، التي كان زوجها يسميها مرتاعاً «الضابط المجْرم»، ولطائفة لوفاسير! عاشت هذه العصبة بغير حياء عالة على روسو. كانت الأم والبنت تدسان، وتنهبان، وتبتزان من أصدقائه، من ورائه، الهدايا والنقود. وكان روسو يحتمل هذا كله، بل فعل أكثر من ذلك: فقد كان يمدحها للناس كافة. وقد خصص فقرات كثيرة من اعترافاته للثناء على تيريز، والاطناب في رقتها ومزاياها.

فهو يقول عندما يذكر بعد اتحاد دام ٢٤ عاماً لقاءه الأول بها:

- «هنا لقيت السلوة الوحيدة الحقيقية التي إذ اقتينها السماء في شقائي، والتي جعلتني وحدها أتحمله»[2].

(١) إميل فاجيه، القرن الثامن عشر، ص ٣٤٢.
(٢) الاعترافات، الكتاب السابع، ص ١٧٠.

ويقول بعد ذلك بقليل:

«كان قلب تيريز قلب ملك»[1].

ويمكننا أن نورد فقرات كثيرة من هذا الضرب.

ومع ذلك فمن المحقق أنه لم يكن يحبها حباً. يقول:

«ترى ما قول القاريء، إذا ذكرت له أني منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها إلى اليوم (١٧٦٩) لم أشعر حيالها قط بأية شرارة من الحب، وأن احتياجات الحس التي أشبعتها معها، لم تكن عندي إلا مجرد احتياجات جنسية»[2].

وهناك أيضاً هذه الفقرة الغامضة:

«ستعرفون فيما بعد قوة عطفي، عندما أكشف عن الجراح والالآم التي مزقت بها قلبي في غمرة تعاستي، دون أن أنطق - حتى اللحظة التي أكتب فيها

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٨٣
واقرأ على الأخص رسالته المؤرخة ١٢ يوليو ١٧٦١ إلى مدام ماريشال دي لوكسبمبورج، مراسلات روسو المجلد السادس، الرسالة ١٠٨٣.

(٢) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢١٦.

هذا ـ كلمة شكوى منها لأي شخص. . . »[1]

وأنه ليحق للقارىء أن يسائل عن السبب الخفي الذي حدا بروسو إلى البقاء تحت سيطرة هذه المرأة، وإلى الثناء عليها.

هنالك أولاً مرض روسو، الذي لا يلاقي اهتماماً كافياً، ولكنه كثيراً ما يفسر أغرب مواقفه وتصرفاته. منذ ما بلغ الثلاثين من عمره اشتدت علته. وكان في حاجة ماسة إلى ممرضة. إلى امرأة تقل عنه مكانة، من الناحية الاجتماعية ومن كل وجه، إلى فتاة من العامة، فقيرة، تدين له بعرفان الجميل، لا تدعي الرقة والنعومة، ولا يشعر أمامها بالخجل من ألمه الجسدي، ومن ضعفه الجنسي، وترعاه بعنايتها الصادقة، لهذا السبب اختار تيريز، ـ ولهذا السبب احتمل كل ما أنزلته به من هموم.

على أن هناك سبباً آخر، لا يقل وضوحاً، يذكره اميل فاجيه: لماذا كان روسو خاضعاً لتيريز؟

«لحاجته إلى امرأة، هذه المرأة بالذات. ولماذا هذه المرأة بالذات؟ من جراء خجله الشديد أمام الأخريات.. إنه مريض بالخجل أمام النساء، إنه يشتهيهن جميعاً بيد أنه يخشى أن يجرب حظه مع

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢١٦

إحداهن. لهذه الظروف تلزمه امـرأة بلهاء يعتـرف هو نفسه أنها مدارية، كاذبة، دساسة، سارقة لكن وديعة، غرة، جامدة، ولن تسخر منه أبداً. هنا كل السـر في سيطرة الآنسة لـوفاسيـر على روسو. أضف. لتفسيـر مدحه إياها أمام الكافة، أنه لا يريد أن يعترف ـ بدافع من كبره ـ أنه قد أخطأ في اختياره، تفهم ماهية موقف روسو في داره. . . »(١)

صلاته الأولى بفولتير :

بدأ روسو يعاشر تيريز، ويتحمل المتاعب والهموم.

ومع ذلك فإن خيبات الأمل وتصاريف القدر لم تثنه عن محاولة شق طريقه وتثبيت أقدامه، سواء في ميدان الموسيقى، أو الأدب، أو على الأخص المسرح. كان هذا ما يدور بخلده في ١٧٤٥.

قلنا أنه لـدى وصولـه إلى باريس كـان في جعبته ملهـاة نثرية: نارسيس. منذئذ كان قد كتب ملهاة أخـرى هي أسرى الحرب، وأوبرا هي الحوريات الأنيقـات. مثلت هذه الأوبـرا لـدى المسيو دي لابـوبلنيـر، لكن بغيـر نجـاح. وكـان رامـو

(١) إميل فاجيه، روسو المفكر، الفصل الأول، حياته وطباعه.

الموسيقار الشهير متحيزاً ضد روسو، لأنه نشأ وحده، فزعم أن خير مقطوعات هذا التأليف مسروقة، بل أضمر له الكراهية. في حين أن الدوق دي ريشليو، وقد أعجب بمزايا الموسيقي الشاب، شمله بكثير من العطف والرعاية.

في مستهل تلك السنة (١٧٤٥) نشأت بين فولتير وروسو صلات بدأت هادئة وسوف تنتهي عاصفة. وكان ذلك بمناسبة الحفلات المقامة في ذكرى معركة فونتنوا، واتجهت النية إلى تمثيل «حفلات رامير» عن دراما قديمة لفولتير (أمير نافار)، كانت تحتاج إلى بعض التعديل، وكان رامو قد وضع موسيقاها. وكان الأمر يقتضي إجراء كثير من التحويرات سواء في الأشعار أو في الموسيقى بيد أن رامو وفولتير كانا مشغولين بتأليف أوبرا جديدة (معبد المجد) فأراد الدوق دي ريشليو أن يقوم روسو بهذه المهمة المزدوجة، التي لم يستطع المؤلفان أن يتكفلا بها.

ولم يشأ روسو أن يمس أشعار فولتير إلا بعد إذنه. فكتب إليه بكل احترام في هذا الشأن ورد عليه فولتير بكل ظرف وهاك بداية رده:

«إنك تجمع، يا سيدي، بين موهبتين كانتا منفصلتين دائماً حتى الآن. ها هنا سببان قويان يجعلاني أقدرك وأحرص

على أن أحبك. وأني لآسف أن تستعمل هاتين الموهبتين في تأليف لا يليق بهما»[١].

ولا يجوز أن نغلط فيما تنم عنه هذه الرسالة من أدب عظيم. فما كان ينتظر من فولتير الذي تعرف مداهنته ومرونته إلا أن يكون لطيفاً في منتهى اللطف مع رجل يعرف أنه ذا حظوة من الدوق دي ريشليو.

لقد حصل روسو على إذن فولتير وأكب على العمل. وعلى كل حال فقد أجرى في الشعر قليلاً من التبديل، إلا أنه أجرى في الموسيقى كثيراً من التغيير. وإن كان قد احترم الكورس والسيمفونيات الأصلية، فقد ربطهما بأغنيات من تأليفه، ثم أضاف الافتتاحية وبعض مقطوعات تجميلية. وكان عملاً شاقاً.

> «إن فكرة الرجلين العظيمين اللذين تفضل الدوق فاشركني معهما شحذت عبقريتي، وأستطيع أن أقول، أني في هذا العمل الجامد الذي لم يزودني بأية شهرة، والذي لم يكن الجمهور يدري به، بقيت دائماً في مستوى نموذجي»[٢].

---

(١) رسالة من فولتير إلى روسو، ١٥ ديسمبر ١٧٤٥.

(٢) الاعترافات، الكتاب السابع، ص ١٧٤.

وأجريت التجارب على مسرح الأوبرا الكبير.

وخلال التجارب أقر ريشليو كل ما كان من تأليف روسو، في حين أنتقدته مدام دي لابوبلنيير: مدفوعة بصداقتها لـرامو بصفتها تلميذته من جهة، وبكراهيتها لروسو بصفته جينيفياً من جهة أخرى. وجماع القول أن روسو وجد أمامه عقبة شديدة، وقيل له أن عمله يحتاج إلى تغييرات كثيرة يجب أنْ يستشير في شأنها رامو. فحزن لهذه النتيجة فقد كان يتوقع مديحاً، وعـاد إلى بيته كظيماً ووقع مريضاً.

بيد أن رامو لم يكن لديه وقت يسمح بإجراء التعديلات التي أشارت إليها مدام دي لابوبلنبير. فمثلت المسرحيـة دون تغيير، وعلم روسو أن الهواة أعجبوا بتأليفه، وأن الجمهور لم يميزه من تأليف رامو.

أبناء روسو [1] :

في نهاية خـريف ١٧٤٦ ولد أول طفـل لروسـو وتيريـز لوفاسير.

---

(١) ارجع في هذا الصدد إلى :
لويس ديكرد، جان كاك روسو، من جزيرة سان بيير إلى إيرمينونفيل. الفصل الخامس، أولاد روسو ١٤٢ وما بعدها.

ولقد أنجب منها خمسة أطفال، الثلاثة الأول فيما بين ١٧٤٦ و ١٧٥٠، والاثنان الآخران فيما بين ١٧٥٠، ١٧٥٥. ولم يجد غضاضة في التخلص منهم بوضعهم في ملجأ اللقطاء، أولهم بعلامة تميزه، والآخرين دون أي تدبير. وقد أمرت مدام دو لوكسمبورج في ١٧٦١ بالبحث عنهم، غير أنه لم يؤد إلى نتيجة.

هذا هو الواقع الذي كان يجب أخذه قضية مسلمة، ما دمنا نستمده من روسو نفسه، بيد أن البعض أثاروا الشكوك حوله.

فقد دار بخلد البعض، بغية محو هذا الخطأ الجسيم الذي يلوث ذكرى الرجل العظيم، أن يزعموا أنه ليس صحيحاً أنه رزق بأولاد. فهو عندما زعم أن له خمسة أولاد، وأنه وضعهم في ملجأ اللقطاء، إنما أراد أن يثبت للملأ أنه لم يكن عاجزاً عن إنجاب الأولاد. هكذا يزعمون أن روسو، لكي يحمل الناس على الاعتقاد بأنه أب، قبل أن يظهر كأب عديم الرحمة متحجر الفؤاد!

إن أنصار هذا الرأي الغريب يستدلون على هذا النحو:

= جول لوميقر، جان جاك روسو، محاضرات، روسو في باريس.
موسيه باتيه، تاريخ جان جاك روسو، من ص ٣٥٦ ـ ٣٦٤

من الذي قال أن لروسو أولاداً؟ إنه روسو نفسه، وروسو وحده. إن أولئك الذين تحدثوا عن هذا الأمر لا يعرفونه إلا عن طريقه. فما من دليل إلا اعترافاته. كل السيدات الراقيات والدوقات اللاتي كن يزرنه في داره ويسرفن في ملاطفة تيريز لم يلاحظن يوماً أنها حامل.

وعلى ذلك يبنون هذا الغرض:

كان روسو يشكو من المرض الذي نعرفه، ولذا كان خجولاً أمام النساء يعبدهن جميعاً ولا يصل معهن إلى نتيجة، ولا علاقة له إلا مع تيريز، ويخشى أن زهده قد يدفع أصدقاءه الخبثاء إلى سوء الظن به. وخاصة في مجتمع اشتهر بالتدهور الخلقي. . أفلا يمكن أن يكون أحد مخاوفه المروعة أن يشك في عجزه؟ من هنا هذا الرد: اسطورة الخمسة أطفال.

هذا الرأي غير معقول وواه، بل إنه باطل.

ينبغي أن نثق بكلام روسو.

فالمرء لا يخدع أصدقاءه، ولا يخدع الجمهور بتظاهره بالبكاء على غلطته، ولا يلطخ ذكراه على الأخص بمثل هذه الجريمة الكبيرة من أجل هذا السبب التافه. ونحن نعرف كيف أستغل خصومه هذه الزلة فصوروها أشنع التصوير وأقبحه. نحن نعرف المنشور الفظيع الذي نشره فولتير الخبيث

ضده[1]. هل كان روسو يبقى ساكتاً مكتوف اليدين لو أن هذه الجريمة المعزوة إليه لا أساس لها ولا أصل؟.

الحق أن روسو لم يكذب.

لقد خلف رسالة موجهة إلى مدام دي لـوكسمبورج في ١٢ يونيو ١٧٦١، في لحظة كان يعتقد فيها بقرب موتـه. وهو يودع فيها صديقته، ويوصيها بامرأته ويعترف لها بخطئه:

«تمخضت هـذه الصلة عن خمسـة أطفــال، وضعـوا جميعاً في ملجأ اللقطاء... منذ سنوات عدة والنـدم على هذا الإهمال يكدر راحتي، وإني أموت دون أن أستـطيع إصـلاح هـذا الإهمـال لشـدة أسفي وأسف أمهم..»[2]

هذه الرسالة صادقة بغير شك، لأن المرء لا يتمادى في كذبه، وهـو يشعر بـدنو أجله وهي فـوق ذلك تعبـر عن الندم بشكل لا يدع مجالاً لأي ريب.

إذن فالواقعة محققة، ويبقى علينا أن نفسرها:

---

(١) شعـور المـواطنين، المنشـور المنسـوب إلى فـولتيـر، ارجـع إلى مراسلات روسو المجلد السابع، ص ٣٦٦.

(٢) رسالة من روسو إلى مدام دي لوكسمبورج مؤرخة ١٢ يونيو ١٧٦١، المراسلات المجلد السادس رقم ١٠٨٣.

إن روسو يبدي في اعترافاته، وفي تأملاته (النزهة التاسعة)، وفي رسائله؛ أسباباً عدة لتبرير تخليه عن أولاده: استحالة تغذيتهم نظراً لفقره وآلامه، اضطراره للعمل فإن هموم أولاده تعوقه عن أدائه(١)، وأخيراً اعتقاده أنهم سوف يجدون في ملجأ اللقطاء تربية أفضل منها بين أسرة خليلته من الوضعاء. يقول:

«إني أدرك أن لومي على وضعي أولادي في ملجأ اللقطاء قد تحول بلف بسيط إلى لومي على أني أب عديم الرحمة أكره الاولاد: بيد أنه من المحقق أن خشيتي من مصير أسوأ لهم ألف مرة، من المحال تفاديه بطريقة أخرى، هي التي أرغمتني على هذا التصرف. لو كنت أقل اهتماماً بمستقبلهم ـ وحالتي لا تسمح لي بتنشئتهم بنفسي ـ لكنت، في موقفي، تركتهم ينشأون على يد أمهم التي كانت تفسدهم، وعلى يد أسرتها التي كانت تجعل منهم وحوشاً»(٢).

وهو يقول في موضع آخر أنه بتسليم أولاده للتربية العامة، نظراً لعجزه عن تربيتهم بنفسه، إنما أراد أن يجعل

---

(١) رسالة من روسو إلى مدام دي فرانكيي، مؤرخة ٢٠ إبريل ١٧٥١ المراسلات المجلد الأول رقم ١١٣.

(٢) أحلام جوال منفرد، النزهة التاسعة، المجلد الأول ص ٤٤٨.

منهم عمالاً أو فلاحين بدلاً من مغامرين وفاسدين، وأنه بتصرفه على هذا النحو إنما ظن أنه يعمل عمل المواطن الصالح والأب البار، وعد نفسه كعضو في جمهورية أفلاطون(١).

وفي معرض الرد على الاعتراض الذي قد يوجه إليه وهو «لا يصح للمرء إنجاب أطفال متى كان عاجزاً عن توفير الغذاء لهم» يقول في رسالته إلى مدام دي فرانكيي:

«عفواً يا سيدتي. إن الطبيعة تقتضي ذلك ما دامت الأرض تنتج ما يكفي لتغذية كل الناس: لكنها طبقة الأغنياء، طبقتك أنت، هي التي تسلب طبقتي خبز أولادي...»(٢).

مع ذلك ينبغي أن نعترف بأن أسبابه هذه سفسطة يحاول بها تبرير فعلته. والواقع أنه شعر تماماً بثقل غلطته. وهو كثيراً ما يعبر عن ندمه في مؤلفاته بألفاظ تقطر أسى حتى لا تدع مجالاً للشك في صدقها. وبعد فعلته بعشرين عاماً يكتب لزوجته:

«لقد ارتكبنا أخطاء علينا أن نبكيها وأن نكفر عنها»(٣).

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٨٩.
(٢) الرسالة سالفة الذكر إلى مدام دي فرانكيي.
(٣) رسالته إلى تيريز، ١٢ اغسطس ١٧٦٩، المراسلات، المجلد ١٩ رقم ٣٨٣٥.

ويقول بعد ذلك بحوالي عام، في رسالته الرائعة المسهبة إلى السيد دي سان جرمان في ٢٦ فبراير ١٧٧٠، التي تعد اعترافاً عاماً:

«إن القدوة، والضرورة، وشرف تلك التي كانت عزيزة علي، جعلتني أعهد بأولادي إلى المؤسسة المنشأة لهذا الغرض، ومنعتني من أن أؤدي بنفسي أولى واجبات الطبيعة وأقدسها. وفي ذلك لست أتلمس عذراً بل أتهم نفسي، وحينما يقول لي عقلي أني فعلت في موقفي ما كان يتعين علي أن أفعله، فإني لا أصدق عقلي قدر ما أصدق قلبي، الذي يتوجع ويكذبه»(١).

وأخيراً، لكي نوفي الموضوع حقه، تتبقى تلك الفقرة المشهورة من اميل، الكتاب الثاني، التي يعرفها الجميع. هنا لم يستطع روسو أن يكتم صيحة ضميره، بل نادى علناً بواجبات الأب، وتحدث ببلاغة عن الندم الذي يلازم الأب الذي يهملها:

«ما من فقر، ولا عمل، ولا احترام إنساني يعفى الأب من تغذية أبنائه، ومن تربيتهم بنفسه. إني أحذر كل

(١) المراسلات، المجلد ١٩ رقم ٣٨٨٤.

امرىء له أحشاء أن يهمل واجبات في مثل هذه القداسة، إنه سوف يذرف دموعاً مرة على خطئه ولن يجد عنه سلوة».

كان هذا بمثابة اعتراف عام بخطئه يجب ـ حسب اعتقاده ـ «أن يعفيه من لوم فضلاء الناس».

روسو يتصل بالمجتمع:
أول لقاء له بمدام دابناي:

لقد رأينا أنه لم يجن ثمرة ـ لا مجداً ولا مالاً ـ من عمله الأخير: حفلات رامير. منذئذ كان يعيش في ضنك شديد وموقف عسير، لا سيما وأنه أخذ على عاتقه ذلك الحمل الثقيل: أسرة لوفاسير. كان الوقت يمضي، والمال يمضي معه.

وفي ١٧٤٧ توفي أبوه. وورث بعض المال فأرسل شطراً منه إلى مدام دي فاران التي ما كان لينساها، وأصبح الباقي نهباً لأسرته الجديدة: وكانوا سبعة أو ثمانية. فحالما عرفت الأم لوفاسير أن لديه نزراً من المال، بادرت إلى استدعاء أسرتها كلها: من شقيقات وأبناء وبنات وأحفاد. يقول «كل ما كنت أفعله لتيريز كانت أمها تحوله لصالح هؤلاء الجوعى»[1]،

(١) الاعترافات، الكتاب السابع ص ١٣٥.

قلباً ملؤه الفتوة والعاطفة . وكان إذا أعجبه موضوع الحديث تتغير سيماؤه ، وتكتسي وجنتاه حرارة ونضرة ، فتتألق عيناه ، وتزكو حميته، ويعلو صوته ، ويجد التعابير القوية ، المتينة ، المليئة بالانفعال الذي يذكيه .

وفي ١٧٤٨ قدمه المسيو فرانكي إلى مدام دايناي .

وكانت هذه السيدة، قد اشتهرت بالدور الذي لعبته في حياة روسو ، في ريعان الشباب . كانت في الأصل تدعى الآنسة دي سكلافيل ، وقد تزوجت منذ عهد قريب من المسيو دايناي، ابن عمها الذي كان ملتزماً عاماً . ولم يمضِ على زواجها سنوات قلائل حتى اتخذت من فر كي عشيقاً . وكانت سمراءْ ، نحيلة القوام ، خفيفة الظل والحركة ، تدعي الأدب والفلسفة وإجادة الكتابة. وقد خلّفت لنا « مذكرات » تتضمن كثيراً من المعلومات عن حياة روسو وصلاته بها وبزمرة الأنسيكلوبيديين . إلاّ أننا نعرف أنها ألّفت « المذكرات » مع ديدرو وجريم ، إبّان قطيعة روسو معهما ، لتستخدم في الرد على « الاعترافات » التي كان روسو مشغولاً بإعدادها ، ولذا فإنها « لا تخرج في كثير من الأحيان من نسيج من الأكاذيب الضخمة [١] .

وصحب مدام دايناي في قصرها في الشيفريت بالقرب

(١) إميل فاجيه ، صديقات روسو ، ص ٦٤ .

من سان دمينيس . وكانت الحياة هناك رغدة رخية مسلية ، بيد أنه كان مجتمعاً فاسداً يتفشى فيه الانحلال والإباحية . وفي هذه الفترة توطدت أواصر المعرفة بينه وبين ديدرو . وهذا يوصلنا إلى عام ١٧٤٩ ، الذي تبدأ الأحداث عنده في اتخاذ لون جديد ، أقل مرحاً لكن أكثر خطورة !

قام ببعض المحاولات لتمثيل مسرحيته «الحوريات الأنيقات» في باريس تلك الأوبرا التي كانت موضع اهتمام ريشيلو. إلا أن ريشليو كان قد نسيه فيما يبدو. وإذ خاب أمله بما لقي من صعاب نبذها من فكره. وفي السنة نفسها قدم ملهاته «نارسيس» على مسرح «الإيطاليين» دون أن يجني ثمرة.

حينئذ فكر في أن يقترب من مدام دوبان وابن زوجها فرانكيي ، اللذين كان قد انصرف عنهما بعض الشيء بتردده على دار المسيو دي لابوبلينيير.

كان المسيو دي فرانكي يشتغل إذ ذاك بدراسة التاريخ الطبيعي والكيمياء. كان يتطلع إلى مجمع العلوم، ولذا كان يروم أن يؤلف كتاباً، فقدر أن ينفعه روسو في هذا العمل. وكانت مدام دوبان تفكر أيضاً في تأليف كتاب وتبني روسو نفس الأمل. فعرضا على روسو أن يكون سكرتيراً لهما لقاء أجر قدره ٩٠٠ فرنك سنوياً، فقبل.

منـذئـذ ارتبط بهمـا روسـو وتخلى عن كـل مشـروع يستهـدف التقدم والمجـد. وفي خريف ١٧٤٧ صحب مـدام دوبان في رحلتها إلى شنونسو. وفي ذلك القصر الف قـطعتيه «التعهد الجريء»، و«وادي سلفيـا» وهما ملهـاتان صغيـرتان ألفهما على عجل، لتسلية الجماعة. والحق أن التسلية كانت متوافرة في هذا المجتمع الأنيق:

«كنا نلهو كثيراً في تلك البقعة الجميلة. كان الطعـام فـاخـراً: حتى أصبحت سميناً كـالـراهب. وكـانت المـوسيقا متـوافرة. . . وكـانت تمثل الملهـاة فـألفت واحدة من ثلاثة فصول في مـدى خمسة عشـر يومـاً، عنوانها «التعهد الجريء»[1].

وكـان يروق في عين عـالم الأغنياء هـذا. لقد شعـرت السيدات، بعد أن ـ فحصته بإمعـان، أنه يخفي تحت مـظهره المتواضع، وسلوكه المتكلف، وكلامه الأخرق قلباً ملؤه الفتوة والعاطفة. وكان إذا أعجبه مـوضوع الحـديث تتغير سيمـاؤه، وتكتسي وجنتاه حرارة ونضرة فتتألق عيناه وتزكو حميته، ويعلو صوته، ويجد التعابير القوية، المتينة، المليئة بالانفعـال الذي يذكيه.

وفي ١٧٤٨ قدمه المسيو دي فرانكيي إلى مدام دانياي.

(١) الاعترافات، الكتاب السابع ص ١٧٧.

وكانت هذه السيدة، وقد اشتهرت بالدور الذي لعبته في حياة روسو، في ريعان الشباب. كانت في الأصل تدعى الآنسة دي سكلافيل، وقد تزوجت منذ عهد قريب من المسيو داايناي، ابن عمها الذي كان ملتزماً عاماً. ولم يمض على زواجها سنوات قلائل حتى اتخذت من فرانكيي عشيقاً. وكانت سمراء، نحيلة القوام، خفيفة الظل والحركة، تدعى الأدب والفلسفة وإجادة الكتابة. وقد خلفت لنا «مذكرات» تتضمن كثيراً من المعلومات عن حياة روسو وصلاته بها وبزمرة الانسكلوبيديين. إلا أننا نعرف أنها ألفت «المذكرات» بالاشتراك مع ديدرو، وجريم - إبان قطيعة روسو معها - لتستخدم في الرد على الاعترافات التي كان روسو مشغولاً بإعدادها، ولذا فإنها «لا تخرج في كثير من الأحيان عن نسيج من الأكاذيب الضخمة»[1]

وصحب مدام داايناي في قصرها في الشفريت بالقرب من سان دينيس. وكانت الحياة هنالك رغدة رخية مسلية، بيد أنه كان مجتمعاً فاسداً يتفشى فيه الاغلال والإباحية . .

وفي هذه الفترة توطدت أواصر المعرفة بينه وبين ديدرو. وهذا يوصلنا إلى عام ١٧٤٩، الذي تبدأ الأحداث عنده في اتخاذ لون جديد، أقل مرحاً لكن أكثر خطورة.

---

(١) إميل فاجيه، صديقات روسو ص ٦٤.



القسم الثاني

مؤلفات روسو الأولى



الفصل الأول

المقال عن العلوم والفنون
(١٧٤٩)

كان عطف قوي يقرب ما بين روسو وديدرو. كان كلاهما من الشعب، وكان كلاهما متبرماً ومحتاجاً، وكان كلاهما محبوا بحساسية فائقة وخيال واسع كما كان كلاهما يؤمن بمبدأ واحد: حب الطبيعة والاعتقاد بتأثيرها الحسن. أضف إلى ذلك أن ديدرو كان له «نانيت» مثلما كان لروسو «تيريز» تفهم الصداقة الخالصة التي ربطت ما بين الرجلين. إلا أن ديدرو وقد كان في مثل عمر روسو تقريباً، كان يقيم من قبله في باريس، وكان أكثر منه اختلاطاً بالمجتمع، وأجرأ منه على الأخص، ولذلك سوف يكون له على صاحبه تأثير كبير.

كانا يحبان أن يجتمعا مرة في الأسبوع مع الأب كوندياك الذي كان روسو يعرفه، وكان الثلاثة يتناولون الغداء في مطعم «القصر الملكي» وكان ينضم إلى زمرة شباب الكتاب هذه شاب رابع: دالامبير، الذي تعرف به روسو بمناسبة صحيفة أرادوا أن ينشروها.

إلا أنهم صرفوا النظر عن إصدار الصحيفة لانشغال ديدرو ودالامبير بأمر أهم: إذ كانا قد شرعا في تأليف الانسيكلوبيديا. وأراد ديدرو أن يشرك فيها صديقه روسو، وعرض عليه قسم الموسيقى. فقبل روسو، وأنجز عمله في ثلاثة أشهر وبذلك كان الوحيد بين الكتاب الذي قدم مخطوطة في الوقت المعين.

أزمة فانسين:

وفي يوليو ١٩٤٩ اعتقل ديدرو وزج به في سجن فانسين، بحجة الرسالة التي نشرها عن العميان قبل اعتقاله ببضعة أشهر، ولكن السبب الحقيقي كان ـ مصادرة مواد الانسكلوبيديا في داره. ولم يمض طويل وقت حتى لانت معاملة ديدرو فنقل من البرج إلى القصر، وصرح له بالتنزه في الحديقة، وتلقى الزيارات من أصدقائه. وظل في السجن حتى ٣ نوفمبر. وهرع روسو إلى رؤية صديقه ومعانقته: «ولم يستطع أن يتحدث إليه إلا بدموعه وتنهداته»، «وكان يختنق حناناً وسعادة». أتراه كان يتنبأ عندئذ بأن ديدرو هذا الذي سكب على صدره دموع الصداقة الخالصة، سوف يخونه يوماً ويشتط في خصومته؟

كان روسو يشفق على صديقه، ويقدر مبلغ ألمه في

سجنه، فأخذ على عاتقه، رغم كثرة مشاغله، أن يزوره كل يومين على الأقل وأن يمضي معه فترة العصر. وكان يقطع المسافة على قدميه.

وفي أثناء إحدى رحلاته هذه، في يوم اشتد قيظه، كان يتصفح مجلة «مركير دي فرانس» فوقع نظره على موضوع المسابقة التي يعرضها مجمع ديجون للسنة الثالثة (١٧٥٠) «هل ساعدت نهضة العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أم على تهذيبها؟» فكان لهذه الكلمات أثر عميق في نفسه، يصفه لنا بعد ذلك بأثني عشر عاماً في رسالة إلى ماليزيرب:

«لو كان ثمة شيء أشبه بالإلهام المفاجيء، فهو الانفعال الذي شب في نفسي على أثر هذه المطالعة. على حين غرة شعرت بسيل من الأنوار يبهر ذهني، بحشود من الأفكار الحية تحضرني بقوة، وفي الوقت نفسه بغموض أوقعني في ارتباك يجل عن الوصف؟ شعرت برأسي تعتريه غشية أشبه بالسكر. شعرت بخفقان عنيف يجتاحني، ويخلع صدري، لم أستطع أن أتنفس أثناء سيري، فارتميت تحت إحدى أشجار الطريق حيث أنفقت نصف ساعة في اضطراب بلغ من شدته أني عندما نهضت، رأيت صدريتي مبتلة

بدموعي دون أن أحس أني ذرفتها»[1].

منذ هذه اللحظة ولدت الفقرة المشهورة من المقال، التي يتحدث فيها بلسان فابريسيوس.

وقد تناول روسو هذه القصة فيما بعد، وأكملها في اعترافاته، الكتاب الثامن، حيث يروي لنا كيف استقبله ديدرو، وماذا قال له عقب هذا الحادث:

«عند وصولي إلى فانيسين كنت في اضطراب أشبه بالإغماء. فأدرك ديدرو الأمر، فأظهرته على السبب، وقرأت له فقرة فابريسيوس التي كتبتها بقلم رصاص تحت شجرة بلوط. فشجعني على إطلاق أفكاري وعلى الاشتراك في المسابقة. ففعلت، ومنذ هذه اللحظة ضعت. كل بقية حياتي وتعاستي كان نتيجة محتومة للحظة الضلال هذه»[2].

زعم مارمونتل في مذكراته أن ديدرو هو الذي نصح صديقه أن يقف ضد العلوم والفنون. لو صح هذا الزعم المريب ـ وهو مريب حقاً ما دام مارمونتل يقول أنه عرف الواقع

---

(١) رسالة إلى مسيو دي ماليزيرب، ١٢ يناير ١٧٦٢. المراسلات، المجلد الأول، ص ٣٩٤.

(٢) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٨٩.

من ديدرو الذي خاصم روسو فيما بعد ـ لانتزع من روسو أبوته للفكرة الأصلية، لا فكرة مقاله فحسب، بل نظريته وحياته بأكملها. ولم يكتف مارمونتل بزعمه أنه استمد هذا الواقع من خصم روسو فحسب، بل بلغه إلى خصم آخر. فولتير. وأنك لتدرك مدى ما يكتنف هذا الزعم من لبس. أما ديدرو، مصدر هذه الحكاية، فيكتفي بقول ما يلي:

«عندما ظهر برنامج مجمع ديجون، جاء يستشيرني في الموقف الذي يتخذه، فقلت له أن الموقف الذي تتخذه هو الموقف الذي لن يتخذه أحد. فأجابني، إنك لعلى صواب»[1].

حقيقة الأمر أن روسو ذهب يستشير ديدرو، وهو الذي يقول ذلك، لكنه كان قد اتخذ قراره من قبل. قراره الذي سوف تتوقف عليه بقية مؤلفاته، بل حياته: وما كان هو في حاجة لأن يلقنه أحد نظرية تتفق ومشعره، وحالته الذهنية، نظرية كانت أساساً للوحدة في حياته الفكرية والأدبية. وحتى لو فرضنا العكس لاحتفظ روسو مع ذلك بأبوة فكرته:

«فإن فكرة تلقيناها من أحد آخر، إذا تحمسنا لها، إذا تملكتنا حتى أصبحت الفكرة الثابتة في حياتنا، لهي فكرتنا

(١) ديدرو، في «مقال عن حكم كلود ونيرون.

بقدر ما يمكن أن تكون فكرة من الأفكار كذلك».

هذا ما يقوله اميل فاجيه، وما يقره عليه الجميع.

تحليل المقال:

إن المقال عن العلوم والفنون هو باعتراف المؤلف نفسه أضعف المؤلفات التي دبجها قلمه. وهو في الواقع مزاج من الحقائق ومن المفارقات التي لو أخذت، على علاتها لما استساغها العقل. لذلك فإنه كثيراً ما خفف من شدته كما سنوضح فيما بعد. على أننا نسهب في تحليله وتفسيره نظراً لأهميته: فهو الذي بدأ مجد روسو، وحدد روح مؤلفاته الأخرى.

يتضمن المقال قسمين:

في القسم الأول يؤكد روسو أن العلوم والفنون تفسد النفوس والأخلاق ويستشهد بالتجربة والتاريخ.

وفي القسم الثاني يحاول أن يفسر، بالاستدلال، الأثر السيء للعلوم والفنون.

القسم الأول:

يصف لنا روسو أولاً مجتمع القرن الثامن عشر، في إطار

ينم عن نفوره من الأخلاق التي رآها في باريس، سواء في دنيا الفلاسفة أو في مجتمع مدام ديناي:

«قبل أن يكيف الفن سلوكنا ويعلم عواطفنا التحدث بلهجة مصطنعة كانت أخلاقنا ريفية غليظة، لكن طبيعية... أما اليوم ـ وقد جعلت الأبحاث البارعة والذوق الرفيع من كسب الإعجاب مبادىء فتسود أخلاقنا وحدة وضيعة خادعة، فكأنما صبت كل الأذهان في قالب واحد دائماً الأدب يقتضي، دائماً اللياقة تأمر، دائماً نتبع عادات. لم يعد أحد يجرؤ على الظهور على حقيقته.... إذن نحن لا نعرف أبداً من الذي نعاشره.. يا لسلسة الرذائل التي تقترن بعدم الوثوق هذا... لم تبق صداقة خالصة، لم يبق تقدير حقيقي، لم تبق ثقة متينة. إن الشكوك، والريب، والمخاوف، ـ والبرود، والتحفظ والحقد، والخيانة، سوف تختفي دائماً تحت قناع الأدب هذا الموحد، الزائف، تحت هذا التحضر الممتدح الذي ندين به لأنوار عصرنا....»[١].

---

(١) استكمل روسو هذه اللوحة في الفقرة المشهورة من الرسالة عن المشاهد، التي تخص سلطان المرأة في المجتمع الباريسي.

إن الانحلال لأمر واقع، وما تقدمت العلوم والفنون يوماً صوب الكمال إلا أفسدت نفوسنا، وأن الشرور التي سببتها العلوم لقديمة قدم الدنيا.

ألق نظرة على مصر:

«هذه المدرسة الأولى للكون، هذا الإقليم الخصب المستظل بسماء صافية، هذه الأرض المشهورة التي رحل منها سيزوستريس فيما مضى ليغزو المعمورة. إنها تصبح أم الفلسفة والفنون الجميلة، وبعد ذلك بقليل، غزو قمبيز، ثم غزو الإغريق، ثم الرومان، ثم العرب وأخيراً الأتراك.

ألق نظرة على اليونان:

«التي كانت عامرة بالأبطال الذين انتصروا مرتين على آسيا، الأولى أمام طرواده، والثانية في عقر ديارهم. لم تكن الآداب الناشئة قد أنزلت الفساد بعد في قلوب سكانها، إلا أن تقدم الفنون وانحلال الأخلاق، والنير المقدوني تلاحقت، ولم تر اليونان، العليمة دائماً الشهوانية دائماً، والمستبعدة دائماً، لم تر في ثوراتها إلا تغييراً لسادتها..».

روما، القسطنطينية، الصين، كل الشعوب تعرض نفس

المشهد: قوية ومنتصرة قبل ازدهار العلوم، فاسدة ومستعدة للهزيمة فور ما تفسدها الآداب.

وعلى النقيض، ألق نظرة على الشعوب التي نجت من عدوى هذه المعارف الباطلة، والتي بنت سعادتها بفضائلها، وكانت قدوة للشعوب الأخرى مثل الفرس والرومان الأوائل...

وهنا يقول على لسان فابريسيوس:

«أي فابريسيوس! ترى ماذا كانت نفسك الجليلة تقول، لو شاء الحظ السيء أن يعيدك إلى الحياة، فرأيت الوجه الفاخر لروما هذه التي أنقذتها بذراعك، والتي مجدها اسمك المحترم أكثر من فتوحاتها؟ إذن لقلت: رباه! أين راحت أسقف القصب هذه، والعشش الريفية التي كان المتواضع والفضيلة يسكنانها فيما مضى؟ أي عظمة مشئومة قد خلفت البساطة الرومانية؟ ما هذه اللغة الغريبة؟ ما هذه الأخلاق المخنثة»؟

وهكذا دائماً في كل عصر كان الترف، والإنحلال، والعبودية عقاباً على الجهود الطموحة التي بذلناها للخروج من غمار الجهل السعيد التي أحلتنا فيها الحكمة الأزلية.

«أيها الناس، اعلموا إذن أن الطبيعة أرادت أن تحميكم من العلم، مثل أم تنتزع سلاحاً خطراً من يد ابنها...».

لكن، لشدّ ما يجرح هذا التفكير الإنسانية! كيف؟ أتكون الفضيلة وليدة الجهالة؟ أهناك تنافر بين المعرفة والفضيلة؟ لتذليل هذه المتناقضات الظاهرية ما علينا إلا أن نفحص العلوم والفنون في ذاتها.

القسم الثاني

لقد استشهد في القسم الأول بالتجربة والتاريخ ليثبت أن العلوم والفنون كان لها أثر مشؤوم، وهو هنا يريد أن يثبت أنه أثر محتوم، لأننا إذا اعتبرنا العلوم والفنون في ذاتها فهي باطلة خطرة.

فالعلوم والفنون مأتاها رذائلنا:

«إنه تقليد قديم انتقل من مصر إلى اليونان أن إلهاً عدواً لراحة البشر كان مخترع العلوم[1]. ترى أي

(١) من اليسير أن ندرك استعارة اسطورة بروموبتيوس، وليس يبدو أن الإغريق الذين غلّلوه على جبل القوقاز، لم يكن لديهم عنه فكرة تفضل فكرة المصريين عن إلههم توتوس (بيان روسو). ارجع إلى أفلاطون، ترجمة كوزان، فيدون تاريخ الإله توس، الفصل السادس ١٢١.

فكرة كانت لدى المصريين عنها، وقد ولدت لديهم؟ ذلك أنهم رأوا من قرب المصادر التي نشأت منها العلوم... فالفلك تولد من الخرافة، والبلاغة من الطموح من الحقد، من النفاق، من الكذب، والهندسة من البخل، والفيزيقا من حب الاستطلاع الباطل، كلها وحتى علم الأخلاق من الزهد البشري...»[1].

والعلوم والفنون تؤدي إلى ضياع الوقت لعدم نفعها:

«إنه شر مستطير في السياسة كما في الأخلاق ألا نفعل ما يفيد، وكل مواطن لا يفيد يمكن أن يعد كرجل مؤذ. أجيبوني إذن يا مشاهير الفلاسفة، يا من عرفنا بفضلكم لأي أسباب تتجاذب الاجرام في الفضاء... وكيف يرى المرء كل شيء في الله، وكيف تتصل الروح والجسد دون اتصال... وأي كواكب يمكن أن تكون مأهولة... أجيبوني يا من تلقينا عنكم كل هذه المعارف السامية: لو أنكم لم تعلمونا شيئاً من هذه الأمور، أكان عددنا يقل؟ أكنا نصبح أسوأ إدارة، وأقل خطورة، أقل ازدهاراً أو أكثر فساداً»؟

(١) يرمي روسو هنا إلى ترك أثر عن طريق المغالاة في الإغراب. وسوف نرى أنه استخفف من غلوائه في رده على الملك ستانيسلاس.

ويا ليت الفلاسفة التزموا السكوت، إلا أن لهم تبشيراً مشؤوماً:

«.. إنهم يدورون في كل مكان مقوضين أسس الإيمان وملغين الفضيلة إنهم يبتسمون باحتقار لتلك الكلمات القديمة مثل الوطن والدين، ويكرسون مواهبهم وفلسفتهم ليدمروا وليحطوا من شأن كل ما هو مقدس بين البشر».

والعلوم والفنون تخلق الترف الذي يقوض الدول:

«... قلما يسير الترف وحده دون العلوم والفنون، ومحال أن يسيرا هما دونه. أعرف أن فلسفتنا، الخصبة دائماً في مثلها الغريبة، تزعم على خلاف التجربة على مر القرون، أن الترف يخلق ازدهار الدول: لكن بعد أن نسيت قوانين الزهد والتقشف هل تجرؤ على إنكار لزوم الأخلاق الحسنة لبقاء الدول؟ وعلى تعارض الترف مع الأخلاق الحسنة كل التعارض؟... ما مصير الفضيلة إذا لم يكن مناص من الإثراء بأي ثمن؟ إن السياسيين القدماء لم يكفوا عن التحدث عن حسن الأخلاق والفضيلة في حين لا يتحدث سياسيونا إلا عن المال والتجارة... إن

مملكة سيرس قد غزاها ثلاثون ألف رجل يقودهم أمير أفقر من أقل أمراء الفرس... وأن الامبراطورية الرومانية، بعد أن التهمت كل ثروات الكون، أصبحت بدورها فريسة لقوم لا يعرفون حتى ما هي الثروة.... والعلوم والفنون تؤدي أيضاً إلى فساد الذوق نتيجة للرغبة في نيل الإعجاب والتصفيق: من المحال أن أذهاناً قد تدهورت بكثير من المشاغل التافهة تسمو إلى أي فعل عظيم... كل فنان ينشد التصفيق. فمدح معاصريه هو أثمن جزاء يطمع فيه. فماذا عساه أن يفعل للوصول إليه، إذا كان قد ولد لسوء حظه في شعب وفي عصر سار فيه العلماء على البدع فأتاحوا للشباب التافه أن يسيطر على الذوق؟.. إنه سوف ينزل بعبقريته إلى مستوى عصره، وسوف يؤثر أن يكتب مؤلفات عادية يعجب بها الناس إبّان حياته، عن أن يؤلف روائع لا يعجب بها الناس إلا بعد وفاته».

حينما تتوافر أسباب الراحة في الحياة، وتكتمل الفنون، ويتسع الترف، تتضاءل الشجاعة الحقة، وتتبخر الفضائل. إن تحصيل العلوم، الذي يضر بالمزايا الحربية يضر أياً بل أكثر بالمزايا الخلقية. هنا يبدي روسو تأملات صائبة عن التربية

السخيفة والخطرة التي يتلقاها الأطفال في المدارس، حيث نعلمهم الشعر والمجادلة واستعمال الحجج المموهة الباطلة، ولا نعني بتعريفهم الشهامة، والزهد، والشجاعة، والإنسانية، والعدالة. تربية سخيفة ودراسة مشئومة تؤدي إلى تفاوت الأقدار الناشىء من التفرقة بين المواهب دون اعتبار للفضائل.

«. . . هاك أوضح أثر لجميع دراساتنا وأخطر نتائجها. فنحن لا نسأل ما إذا كان في الرجل فضائل وإنما ما إذا كان فيه مواهب، ولا نسأل ماذا كان الكتاب مفيداً وإنما ماذا كان أسلوبه حسناً. إن المكافآت تنهال على الدعي المتحذلق في حين تبقى الفضيلة بلا تكريم. فثمة ألف جائزة للخطب الجميلة، وما من جائزة واحدة للافعال الجميلة. . .».

ثم حملة عنيفة على الفلاسفة:

«سأسأل سؤالاً واحداً: ما هي الفلسفة؟ ماذا تتضمن كتب أشهر الفلاسفة؟ ما هي دروس أصدقاء الحكمة أولئك؟. . . إن بعضهم يزعم أنه ليس هناك أجسام[1]، وبعضهم يزعم أنه ما من جوهر إلا

(١) إن بعض فلاسفة، وقد زايدو على مثلية ديكارت، قد نادوا بهذه النظرية وأشهرهم بيركلي.

المادة[1]، وما من إله سوى الدنيا. هذا يزعم أنه ليس هناك فضائل ولا رذائل، وأن الخير والشر أوهام[2]... ها هم أولاء - الرجال العجاب الذين غمرهم تقدير معاصريهم أثناء حياتهم واحتفظ لهم بالخلود بعد مماتهم. ها هي ذي المبادىء الحكيمة التي تلقيناها منهم».

وينتهي روسو إلى استنباط أن العلم يجب أن يقصر على نخبة محدودة وينبغي أن يقتصر الشعب على تنفيذ واجباته على نحو حسن، وما به من حاجة إلى معرفة أكثر من ذلك. ويختتم مقاله بما يأتي:

«أيه أيتها الفضيلة، أيها العلم السامي للنفوس البسيطة، أيلزم كل هذا العناء، وكل هذا الجهاز لمعرفتك؟ أليست مبادئك منقوشة في كل القلوب؟ أ ة يكفي المرء لكي يعرف قوانينك أن ينطوي على نفسه ويصغي لصوت ضميره وقد صمتت شهواته؟ ها هي ذي - الفلسفة الصحيحة، فلنعرف كيف نقنع بها..».

(١) إشارة إلى أنصار المادية وعلى الأخص هلفسيوس ودولباك، ومن قبلهما غاسندي خصم ديكارت..
(٢) إشارة إلى نظرية سبينوزا.

تفسير :

قلنا أن المقال هو مزاج من الحقائق والمبالغات والغرائب.

على إننا لكي نحسن تقديره ـ كما يقول شوكيه ـ ينبغي أن نميز بين أمرين :

الكلام المفخم، والمنطق، وروسو يفضل أن يضرب بقوة على أن يحكم الضرب فهو يواجه أفكار عصره بشدة وعنف. ويرمي إلى أن يذهل الجمهور بغرابة آرائه ويعتمد لكي يفتن معاصريه على بريق غرائبه. فهو إذن يدفع بكل شيء إلى أقصى حد، ويعلن بأعلى صوته أن العلوم مضرة، وأن الآداب والفنون ـ التي هي أساس الحضارة ـ قد أفسدت الناس. . . الخ.

بيد أن روسو لا يغفل المنطق وسلامة الإدراك. فهو في رسائله، وفي ردوده (على بورد، وعلى الملك ستانسيلاس)، وفي محاوراته، وفي مقدمة «نرسيس» وهي بمثابة تفسير لمقاله، يخفف ويصحح ما في نظريته من آراء مغالي فيها وغير مقبولة.

إنه لا يريد ـ كما يزعم خصومه ـ أن نعود مع الدببة إلى أحضان الغاب لكي نعيد الجنس البشري إلى حيوانيته الأولى

ـ فهـو يقـول في رده المشهـور على الملك ستـانيسـلا ملك بولونيا، الذي يفوق مقاله:

«حذار أن نستخلص من ذلك أنه ينبغي اليوم أن نحرق المكتبات وأن ندمر الجامعات والمجامع. فلو قد فعلنا لأغرقنا أوروبا ثانيـة في البربـرية ولمـا جنت الأخلاق شيئاً»[1].

ويقول في مقدمة نرسيس:

«إن عين الأسباب التي أفسدت الشعـوب تنفع أحيـاناً في درء فسـاد أوخم: كذلـك شأن من أعتلت صحتـه بالغلواء في استعمال العقاقير فيضطر إلى الالتجاء إلى الأطباء ليحتفظ بحياتـه. وكذلـك فإن العلوم والفنـون بعـد أن أشاعت الـرذائل، لازمـة لتمنع تحـولهـا إلى جرائم. . .»[2].

ينبغي إذن أن نـدع العلوم والفنـون تلطف من وحشيـة الناس الذين أفسدتهم. يقول: «أن معـارف الخبيث لخير من غباوته البهيمية».

فهو إذن لا يهاجم الحضارة في ذاتها، وإنما يهاجم روح

(١) رد على ملك بولونيا، المصنفات، المجلد الأول، ص ٤٨٣.

(٢) نرسيس، المصنفات المجلد الثالث ص ١٩٢.

عصره، يهاجم التصنع، والأباطيل، والبدع، وأكاذيه وأخلاق المجتمع، وإحلال جميل الأقوال محل جليل والرذائل التي لم تعد تثير خجلنا لأننا أطلقنا عل محتشماً، وعلى الأخص سيطرة النساء المشؤومة الحياء موضع سخرية، وأخيراً الكفر والمادية.

أما ما يدافع بحرارة ويرد اعتباره فهي الطبيعة التي يحط معاصروه من شأنها بالباطل، والقلب الذي والشعور الذي يتجاهلونه والبساطة التي يعدونها والصراحة التي يصفونها بالبهيمية، وواجبات الأسرة بالله. يقول: «لست أستنكر العلم وإنما أدافع عن الف

لكن كيف يتأتى أن يكون العلم مضراً؟

إن روسو يجيب: العلم خير في ذاته، هذا بدي أن نطرح العقل السليم لنزعم العكس.

إلا أنه إن كان خيراً فهو خطر أيضاً: إذ يخلق المروق، والإلحاد والضلال والنظريات السخيفة، والكتب البذيئة، كما يخلق في أولئك الذين يحصلو والمكر، والغيرة، والكذب، والتشهير، والملق الذليل

«يستتبع ذلك أن العلم، وإن كان جميلاً ور يخلق لإنسان، فإن ذهنه محدود لدرجة لا

معها أن يصل فيه إلى تقدم بعيد، وقلبه فيه من الشهوة ما يجعله يسيء استعماله حتماً، والإنسان يكفيه أن يدرس واجباته تماماً، وكل امرىء قد تلقى كل ما يحتاجه من أنوار لهذه الدراسة. . . »[1].

أثر المقال:

لم يفز المقال بجائزة مجمع ديجون فحسب، بل كان له رنة عظيمة، وقد بلغ من قوة أثره أن كتب جاراً في مذكراته يقول:

. . . إنه لفي هذه اللحظة أن ارتفع صوت لم يكن فتياً، وإن كان مجهولاً تماماً، ارتفع لا من أحضان البيد والغاب، وإنما من وسط هذه المجتمعات، والمجامع، وهذه الفلسفة، حيث كانت كل هذه الأنوار تبعث هذا الرجاء وتغذيه. . وإنها لتهمة تلك التي يوجهها باسم الحقيقة، أمام الجنس البشري، ضد الآداب والفنون والعلوم والمجتمع نفسه. . . وليست الفضيحة ـ كما قيل ـ هي التي كانت شاملة،

(١) رد على الملك ستانيسيلاس، المصنفات، المجلد الأول ٤٨٣.

وإنمـا الذي كـان شامـلاً هـو الإعجـاب وضـرب من الفزع . . . »[1].

وقـد توج المقـال في ١٣ أغسطس ١٧٥٠ واستـطارت شهرته في الحال.

وانتقـده عدد كبيـر من ذوي المكانـة والاعتبار: الملك ستانيسلاس، والأستاذ جوتييه، وبورد عضو مجمع ليون، ولوكا عضو مجمع روان، وفورمى عضو مجمع برلين، دون احتساب فولتير ودالامبيـر وفردريـك الثاني الـذين أبدوا رأيهم فيـه كلما واتتهم فرصة. ورد روسو على ستانيسلاس وجوتيه وبورد على التوالي.

وبطبيعة الحال كانت ردود روسو في هذه المجاولة أقوى من ردود مهاجميه لأنـه يفوقهم مـوهبة. ومـع ذلك لا يـلاحظ روسـو أنه مـدين بفوزه عليهم لهـذه الآداب التي يريـد إثبات ضررها!

(١) جارا، مذكـرات تاريخيـة عن القرن الشـامن عشر، بـاريس، ١٨٢٠ والمجلد الأول ص ١٦٠ ـ ١٦٦ .

الفصل الثاني

بين المقالين

باريس (١٧٥٠ ـ ١٧٥٤)

خرج روسو من الخمول إلى الشهرة.

وأعجب الأدباء بأسلوب هذا الطارىء الجديد. كلهم، حتى أكثرهم مراعاة للياقة والتهذيب، صفقوا لأقواله الغريبة البراقة ضد المدنية. وعدوه من بين الفلاسفة. أصبح كاتون جديداً، ينهض ضد رذائل عصره، معلناً صوت الفضيلة القديمة.

عندئذ قرر أن يكون في سيرته وأفعاله الرجل الذي يليق بمقاله.

ولقد بسط لنا روسو هذا الإنقلاب في الكتاب الثامن من اعترافاته، وفي النزهة الثالثة من أحلامه:

«كان كل شيء يدفعني إلى قطع كل ما يربطني من عواطف بهذه الدنيا تركت العالم ومتاعه واعتملت في جوانحي ثورة كبرى، وانكشفت لأنظاري دنيا أخلاقية أخرى..».

هاك إذن روسو يريد أن يعيش حياة التقشف والزهد التي مجدها مقاله. يتعين أولاً أن يوفق بين مسلكه ومشاعره وبين مبادئه، وإن يقاطع ما تواضع عليه المجتمع من إصطلاحات وعادات ونفاق، وأن يضائل من احتياجاته، وأن يخلص نفسه من كل صلة توقعه تحت امرة الأغنياء والأقوياء، وأن يظهر لسانه لا من الكذب فحسب بل من كل تحفظ أو تدبير تمليه اللياقة والأدب.

وساعده طبعه على ذلك:

«إن خجلي الأحمق المتجهم الذي لم أستطع قهره كان مصدره خشيتي أن تنقصني آداب اللياقة، فقررت لكي أتشجع أن أركلها بالقدم فأصبحت وقحاً متهجماً بدافع الخجل، تظاهرت باحتقار الأدب الذي لم أكن أستطيع مباشرته. والحق أن هذه الحدة المتمشية مع مبادئي الجديدة سمت في نفسي واتخذت شهامة الفضيلة...»[1]

هذا الإنصلاح في أخلاقه سرعان ما أكمله بإصلاح في ثيابه. فتخلى عن اللبس الموشى بالذهب، والجوارب البيض، ووضع جمّة بسيطة، وخلع سيفه وباع ساعته قائلاً في غبطة لا

---

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٩٢.

تصدق: «شكراً لله، لن أحتاج لمعرفة الوقت»(١).

واطرح وظيفته الممتازة كأمين خزانة فرانكيي الملتزم العام لأن المبادىء التي أعتنقها حديثاً لم تعد تتمشى مع مثل هذه الحالة: أفلم يقرر أنه لن يكون تحت أمرة الأغنياء؟ أفلم يبشرنا بالفقر والنزاهة؟

وكان مريضاً جداً يشكو من علة في الكلى. وقرر الأطباء أنه لن يعيش أكثر من ستة أشهر، فشجعه هذا على تنفيذ قراره حتى ينفق بقية أيامه في استقلال وراحة.

لكن كان لا بد له من أن يكسب قوته: ففكر في وسيلة بسيطة هي أن ينقل الموسيقى مقابل مبلغ معين عن الصفحة.

ما من إنصلاح أخلاقي لقي هذا النجاح الاجتماعي. روسو همجي؟ روسو غير مؤدب؟ روسو بلا سيف ولا ساعة؟ روسو ناقل موسيقى؟ أقام ذلك كل باريس عصره الأنيقة وأقعدها وانهالت طلبات غانيات باريس على الموسيقى المنقولة بيده:

«لم تعد غرفتي تخلو من أناس يتعللون بمختلف المعاذير ليستولوا على وقتي. أرادوا أن يعرفوا هذا الرجل الغريب الذي لا يسعى وراء أحد، ولا يهتم بشيء إلا بأن يعيش حراً وسعيداً على هواه. ولجأت

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٨٩.

النساء إلى ألف حيلة لدعوتي إلى الغذاء. . . عندئذ أدركت أنه ليس من اليسر دائماً ـ كما نظن ـ أن يكون المرء فقيراً ومستقلاً. . لم يكن ينقص إلا أن أعرض نفسي مثل (القرقوز) لكل شخص لقاء مبلغ معين. »[1].

لقد أدرك أنه التزم دوراً لا يستطيع أن يؤديه، ولكي يتخلص من المأزق الحرج تغالى في عزوفه عن المجتمع، وركل كل لياقة بالقدم. ولكنه صادف في طريقه عوائق كثيرة، أولها نير الصداقة: لم يستطع أصدقاؤه ديدرو، وجريم وجماعة البارون دولباك، أن يفهموا مسلكه، ولم يروا فيه إلا نزوة عابرة: فتحرشوا به، وسخروا منه، حتى عيل صبره، فانفجر سخطه:

«. . . لقد غاروا إذ رأوني أسير وحدي في طريق جديدة. وتظاهروا بأنهم مهتمون بأن يجعلوني سعيداً، ولم يكونوا مهتمين في واقع الأمر إلا بأن يجعلوني أضحوكة، وبدأوا بالعمل على الحط من شأني، لكي يفلحوا فيما بعد في التشهير بي والتشنيع عليّ. . . »[2].

---

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ١٩١.

(٢) الاعترافات، الكتاب الثامن ص ١٨٩.

جـريــم :

كان ملشيورجريم شاباً ألمانياً في الخامسة والعشرين من عمره. وسوف نردد اسمه كثيراً لصداقته لروسو في هذا العهد. وكان يتميز بروح عملي عظيم وإرادة في النجاح لا تلين. لم ينفق بضعة أشهر في باريس حتى أصبح باريسياً أكثر من الباريسيين. وكان يكره الريف، ويحب حياة البلاط والصالون، حيث سيوفق إلى نجاح ملحوظ. واتخذ منه روسو صديقاً حميماً وقدمه لأصدقائه ومنهم ديدرو وجوفكور. واصطحبه عند مدام داينـاي وعند البارون دولياك. وأصبح جميع أصدقاء روسو أصدقاء لجريم، لكن العكس لم يحدث. وهذا يبدو غريباً، وينبىء عن عدم الصراحة في خلق هذا الرجل.

لم يدخر جريم جهداً في سبيل الظهور. ذات يوم تظاهر بأنه وقع في حب ممثلة شابة، ويحبس نفسه في غرفته، ويقع فجأة صريع مريض غريب: لم يعد ينام، أو يأكل، أو يشرب. ويستمر هذا بضعة أيام. وذات صباح ينهض ويرتدي ثيابه، ويعود إلى حياته العادية. وتنجح هذه المهزلة التي مثلها ببراعة وتثير ضجة كبيرة. وإذا بجريم يصبح بدعة اليوم. ولا يلبث أن يعد مثلاً أعلى للوفاء والحب والصداقة. وتدفع هذه الشهرة المجتمع الراقي إلى السعي وراءه والاحتفاء به. وفي عام

١٧٥٤ تهجر مدام ديناي عشيقها فرانكيي وتصبح عشيقة لجريم الوفي. ويفلح جريم في ضربته: فهو يستطيع الآن أن يترك روسو، ن يفسد علاقته بصديقه ديدرو وبمدام ديناي...»[١].

البارون دولباك:

لقي روسو أحسن استقبال لدى رجال الأدب. ورأى فيه الانسكلوبيديون على الأخص جندياً جديداً ينضم إلى الحزب. وكانوا يجتمعون لدى البارون دولباك. وكان ألمانياً ذا ثروة ضخمة يستعملها في نبل، في استقبال رجال الأدب وذوي الفضل، وكان بعلمه ومعارفه يتمتع بمكانة طيبة بينهم[٢].

وكان البارون على صلة بديدرو من قديم، فكلفه بتعريفه بروسو ودعوته إلى قصره. ولما رأى روسو ثراء البارون الهائل بهت وقال له: «إنك أغنى مما ينبغي» بيد أن ذلك لم يثبط همة البارون بل أصر وانتهى إلى إغواء روسو بحسن حديثه وملاطفته، ويستسلم روسو وينضم إلى زمرة الفلاسفة.

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن ص ١٩٢ والكتاب التاسع ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٢) عن اجتماعات قصر دولباك، ارجع إلى بييرموريس ماسون دين روسو»، المجلد الأول ص ١٤٠.

ويصغي إلى الحديث الذي يدور بينهم ضد الدين، لكنه يشعر بشيء من الضيق. ويحلو لاصدقائه أن يعاكسوه. ولندع مارمونتل يروي لنا هذه المجتمعات:

«هنالك عرفت ديدرو، وهلفسيوس، وجريم، وجان جاك روسو، قبل أن يتوحش.. وكان جريم يقيم لنا مأدبة كل أسبوع، وفي مآدب الشباب هذه كانت تسود حرية سافرة، لكنها كانت طعاماً لا يتذوقه روسو إلا بتحفظ وزهد.. لم يكن بعد قد اتخذ لوناً خاصاً، كما فعل منذئذ... أما أن زهد لم يكن قد تولد، وأما أنه كان يتوارى خلف أدب خجول. غير أن شيئاً من الحذر كان يظهر وراء هذا التحفظ المتهيب.. ولم يضائل هذا من حفاوة أصدقائه به: وكنا نعرف عزته القلقة، الحساسة، المرهفة فكنا نجامله ونعامله بالعناية والرقة التي نعامل بهما امرأة جميلة..»[1].

كل أولئك الأصدقاء الذين يذكر مارمونتل أنهم كانوا يجاملون روسو، لم يتوانوا عقب اشتهاره أن يناصبوه العداء، ولكي يموهوا هذا التحول الفجائي سوف يتهمون روسو، وحذره، ونوبات طبعه الغضوب.

---

(١) مذكرات مارمونتل، باريس ١٨٩١ المجلد الأول ص ٢٥٣.

عراف القرية :

مع أن مقال روسو لقي نجاحاً عظيماً ورواجاً فذاً، إلا أنه لم يقبض منه شيئاً فإن ناشره رفض ـ كالعادة ـ أن يدفع له قرشاً. ومن جهة أخرى فإن نقله للموسيقى لم يكسبه إلا دخلاً تافهاً. ولسوء الحظ أنه كان مريضاً، وعلى عاتقه أعباء ثقيلة، وكان أقارب تيريز يسلبون ماله. وكان ينفق وقته في المجادلة، ويرد بعنف على الاعتراضات التي أثارها مقاله. بيد أن هذه الردود المزهوة التي ترضى اعتداده وكبرياءه لم توفر له غذاءه.

وفي عام ١٧٥٢ قصد روسو إلى باسى لينفق بضعة أيام في الريف لدى صديق ومواطن: موسار. وهنالك ألف على عجل أوبرا صغيرة أنجزها في ستة أسابيع، عراف القرية.

وتكفل أحد أصدقائه ـ ديكلو[١] ـ بعرض هذه الأوبرا دون تعيين اسم المؤلف. ولقيت في الحال نجاحاً رائعاً، وطلب تمثيلها في البلاط، الذي كان إذ ـ ذاك في فونتنبلو.

وفي أكتوبر من السنة نفسها مثلت «عراف القرية» أمام الملك بنجاح عظيم وكان روسو يشهد التمثيل: محتفظاً بلحيته، متقشفاً في ثيابه، جالساً وسط حلقة من السيدات الراقيات في مقصورة مواجهة الملك. وكانت مدام دي

(١) ديكلو: مؤرخ الملك، وصاحب «تأملات في الأخلاق».

بـومبادور، والأسـرة المالكـة، وعـظمـاء الأشـراف والنبيـلات ينـظرون إليه كمخلوق غـريب. غير أنـه لـم يكن يفكر إلا في نجاح مسرحيته:

«كنت أسمع من حولي همس النساء اللاتي يلحن لي جميلات كالملائكة يقلن لبعضهن في صوت خفيض: هذا فاتن، هذا خلاب، ما من نغمة إلا تلمس شفاف القلب...».

وراقت «عراف القرية» الملك، وأهم من ذلك أنها راقت عشيقـة الملك، وبـالتـالي كـل البـلاط. وتحمس الجميـع للمؤلف، وطلبوا رؤيته، وأرادوا تقديمه للملك: وأبلغه الدوق دومـون أن يحضر في الحـادية عشـرة من الصباح التـالي إلى القصر، إذ قرر الملك له معاشاً وأراد أن يبلغه النبأ بلسانه. إلا أنه يختبيء ويعرب، مطرحاً هذا الشرف.

كانت عوامل كثيرة تمنعه من المثول أمام لويس الخامس عشر: أولها خجله فقد كان يخشى أن يظهر في مظهر سخيف أو أن تبدر منه هفوة. وثانيها أن هذه كانت فرصة مواتية ليثبت للملأ ببرهان قاطع حبه للاستقلال وإيمانه بالتعفف والنزاهـة، وثالثها:

«الحاجة للخروج بكثرة، التي آلمتني في المساء أثناء

عـرض المسرحيـة، والتي قد تؤلمني في الغـد أثنـاء وجودي بالبهـو أو في جناح الملك، في انتـظار مرور جـلالته. كـان هـذا المـرض السبب الـرئيسي الـذي يبعدني عن المجتمعات. . .»[1].

لقـد أنبه الجميـع على تصرفـه في هذا الـظرف، وكان ديدور أشد من انتقده. .

غير أن هذا لم يحل دون أن تفيء عليه «عراف القرية» إيراداً طيباً. فقد تلقى مائة جنيه ذهباً من الملك، وخمسين من مدام دي بومبـادور[2]، وخمسين من دار الاوبرا، وخمسمـائة فرنك من الناشر، والجملة ٤٥٠٠ فـرنك. ويتـأمل روسـو في اعترافاته ويذكر في حزن أن هذه القطعة الرعائية البسيطة التي لم تكلفه إلا عمل نحو ستة أسابيع قـد أكسبته مـالاً أكثر ممـا أكسبـه «اميل» مؤلفـه الكبير، الـذي اقتضى عشرين عـاماً من التفكير، وثلاثة أعوام من الجهد المضني.

(١) الاعتـرافات، الكتـاب الثـامن ص ١٩٨. وهـذا المـرض هـو كثـرة التبول.

(٢) كانت منحة مقابل عرض في «البلقي» حيث أدت هي بذاتها دوراً في الأوبرا.

روسو يعود إلى دين أبيه :

رحلة جنيف :

في صيف عام ١٧٥٤ رحل روسو إلى جنيف. وقوبل بحفاوة بالغة من مواطنيه، ولكي يستعيد صفته كمواطن قرر أن يعود إلى دين أبيه، بعد أن اعتنق الدين الكاثوليكي ستة وعشرين عاماً. بيد أنه لم يكن يهتم إلا بما هو جوهري في الدين، وكان يهمل صوره المتباينة وهو يبدي لنا أسبابه:

«ظننت أن الإنجيل واحد لكل المسيحيين، وأن جوهر العقيدة لا يختلف إلا فيما يتدخل الناس فيه فيشرحونه دون أن يفهموه، وعلى ذلك فإنه في كل بلد للسلطان وحده الحق في تعيين شعائر الدين وهذه العقيدة المستغلقة، وبالتالي يجب على المواطن أن يقبل هذه العقيدة، وأن يتبع شعائر الدين التي يفرضها القانون. إن معاشرتي للانسكلوبيدين لم تزعزع إيماني بل قوته بنفوري الطبيعي من النقاش ومن المذاهب. ودراستي للإنسان والكون أوضحت لي في كل شيء العلل الغائية والعقل الذي يهيمن عليها. ومطالعة الكتاب المقدس، وعلى الأخص الإنجيل، الذي عنيت بمطالعته منذ سنين عديدة، دفعتني إلى ازدراء التفسيرات ـ الوضيعة والسخيفة التي ينسبها إلى

المسيح أقل الناس أهلية لفهمه[1]. وجماع القول أن الفلسفة، وقد قربتني إلى جوهر الدين أبعدتني عن كتلة الصيغ التافهة هذه التي هوشه بها الناس. وإذ قدرت أنه ليس لرجل عاقل طريقتان ليكون مسيحياً، قدرت أيضاً أن كل ما هو شكل ونظام هو في كل بلد من اختصاص القانون. هذا المبدأ المعقول، الاجتماعي، السلمي، والذي عرضني لاقسى الاضطهادات يستتبع أني لو أردت أن أكون مواطناً فيجب أن أكون بروتستنتياً، وأن اعتنق الدين القائم في بلادي . . . »[2].

ارتضت السلطات أن تغضى من أجله عن كثير من الرسميات المضايقة، واكتفيت بتعيين لجنة من خمسة أعضاء أو ستة لتلقي إقرار إيمانه. ولسوء الحظ أرادوا أن يلقي خطبة قصيرة، فاستبد به الرعب، واكب على إعدادها ليل نهار لمدة ثلاثة أسابيع. وعندما حلت ساعة المحاضرة لم يستطع أن يلفظ كلمة واحدة، واقتصر على الإجابة كطالب أحمق بنعم أو لا. وفي أول أغسطس ١٧٥٤ قبل في زمرة المؤمنين، وسجل في قائمة المواطنين.

---

(١) يقصد فولتير وزملائه ديمارسيه ودولباك وبولانجيه . . .

(٢) الاعترافات، الكتاب الثامن ص ٢٠٤.

وأقام في جنيف أربعة أشهر ثم غادرها في أكتوبر ١٧٥٤ إلى باريس وفي نيته أن يعود للاستقرار في جنيف في الربيع التالي.

موضوع لمقال جديد :

إلا أن مجمع ديجون كان يترصده.

فعرض هذا السؤال الجديد: ما هو مصدر عدم المساواة بين الناس؟ وهل يقره القانون الطبيعي؟(١).

كان من الجلي أن مجمع ديجون، وقد أفتخر ببطله وما أثار من ضجة! قد وضع هذا السؤال خصيصاً له. وكان روسو قد تكلم في مقاله الأول عن «عدم المساواة المشؤومة هذه «التي أدخلت بين الناس.

تأمل روسو في مقاله ملياً في غابة سان جرمان، بالقرب من باريس، باحثاً في أحضان الغابة عن صورة الأزمان البدائية التي يريد وصفها:

«وجدت فيها صورة الأزمان البدائية التي رويت قصتها

(١) ظهر سؤال المجمع هذا في مجلة ميركير عدد نوفمبر ١٧٥٣، أي قبل رحلة روسو إلى جنيف وكان قد أوشك على الانتهاء من مقاله تقريباً قبل هذه الرحلة.

فخـوراً: قضيت على أكـاذيب النـاس التـافهـة، ولـم أخشى أن أكشف عن طبيعتهم مجردة وأن أتبع مسرى الزمن ومجرى الأمور التي شوهتها، وقابلت بين إنسان الإنسان وإنسان الـطبيعة كيمـا أبين المصدر الحقيقي لبؤسه في كماله المزعوم. . . .».

كان روسو يرثى لمصير أترابه الذين أغوتهم المعتقدات الباطلة فاتبعوا سبيل الضلال والبؤس ثم يصيح:

«أيها الحمقى الذين لا تكفون هن الشكوى من الطبيعة، اعلموا أن كل مصائبكم مردها إليكم».

هذه المرة لم يتوج المجمع مقال روسو: فقد بهت لجرأة النظرية التي يتنـاولها في المقـال، ولصراحـة التعبير الـذي لا يراعي أباطيل الزمن ولا عظماء العصر.

ولم يلق روسو إلى ذلك بالاً. فما كان ينشد شهرة زائلة. وما كان مقاله يعني بالقياس إليه مناقشة أدبية باطلة، وإنما تأليفاً فلسفياً حقاً ذا هدف سياسي واسع. وقد صدره بإهداء مشهور إلى جمهورية جنيف، امتدح فيه نظام الحكومـة راجياً النبـلاء والأشراف أن يقدروا العمـال ورجال الشعب حق قـدرهم وأن يعرفوا جميلهم، فإنهم جميعاً سواسية بالتعليم وبالمثل بحقوق الطبيعة والولادة.

الفصل الثالث

المقال في عدم المساواة

كان هذا سؤال المجمع :

ما هو مصدر عدم المساواة بين الناس؟ وهل يقره القانون الطبيعي؟

وكان هذا جواب روسو:

١ ـ مصدر عدم المساواة هو المِلْكية، التي أوجدتها واستبقتها الحياة الاجتماعية.

٢ ـ عدم المساواة يستنكره القانون الطبيعي، لأن الناس في حالة الطبيعة سواسية، منفردون، وطيبون: إن المجتمع هو الذي أفسدهم.

وهو يقسم المقال إلى قسمين: يصور في أولهما الإنسان الطبيعي، بالحالة التي كان عليها قبل مختلف التطورات التي ولدها المجتمع. ويروي في ثانيهما قصة تقدم الإنسانية المزعوم، الذي هو في رأيه تدهور مشؤوم، خلق حالة المدنية

الحالية، حالة التفاوت والعبودية، التي تتعارض رأساً مع الحالة الطبيعية.

القسم الأول :

كتب روسو في مقاله الأول عام ١٧٥٠ يقول «يروق للمرء أن يتذكر صورة بساطة الأزمان الأولى، إنها شاطىء جميل تزينه يد الطبيعة وحدها، ونحن لا نكف عن التطلع إليه، ونشعر نادمين بأننا نأى عنه».

وهو هنا يعود فيتناول هذه الفكرة ويشرحها بإسهاب.

فالإنسان بدأ بحالة الهمجية، وكان قوي البدن، لا يعرف الكلل، مزوداً بحواس دقيقة. وكان أفضل الحيوان تكويناً، وواثقاً من التغلب على الوحش بمهارته وقوته، فكان في غنى عن كل هذه المخترعات العقيمة التي نعتقد اليوم أنها لازمة. وسرعان ما أكسبته الحياة البسيطة الخشنة مناعة وقته شر الأمراض التي مأتاها ترفنا ورذائلنا:

«نحن نجلب على أنفسنا من الأدواء أكثر مما يستطيع الطب أن يزودنا به من دواء. فالتفاوت الفاحش في طريقه العيش، فرط البطالة لدى البعض، وفرط العمل لدى البعض الآخر، وسهولة استثارة وإشباع

شهوتنا وبهيميتنا، وأطعمة الأغنياء الدسمة المنمقة التي تغذيهم بالعصارات المثيرة فتوثلهم بعسر الهضم، وسوء تغذية الفقراء الذين كثيراً ما لا يجدون الغذاء، والسهر، والإفراط من كل نوع، والتعب وكلال الذهن، والأحزان والآلام التي لا تحصى والتي نحسها في كل الطبقات، والتي تنهش النفوس على الدوام: ها هي ذي الضمانات المشؤومة على أن معظم شرورنا هي من صنعنا، وعلى أننا نتفاداها كلها تقريباً لو احتفظنا بطريقة الحياة البسيطة، الموحدة، المنفردة التي فرضتها علينا الطبيعة».

يسائل روسو كيف يتأتى للإنسان أن يتقدم إلى هذا الحد؟

ويجيب: بالكلام. لكن كيف اخترع الإنسان الكلام؟ بعد فحص طويل لما يكتنف مصدر اللغة من مشاكل، يعلن أنه ارتاع لهذه المسائل، واقتنع باستحالة تولد اللغات ونشأتها بوسائل بشرية محضة. وهنا يأتي روسو بتأملات يجمع النقاد على أنها رائعة.

ويستطرد روسو: لم يكن الإنسان يعرف غير الغريزة، فلم يخالجه رغبة سوى احتياجاته العضوية، ولم يتصور في

الكون خيراً إلا الغذاء، والأنثى والراحة، ولم يتصور فيه شراً إلا الألم والجوع. وكان سعيداً:

«. . وإني لأرجو أن يشرحوا لي أي ضرب من التعاسة يمكن أن يصيب مخلوقاً حراً قلبه في سلام وبدنه في سلام. إني أسائل أيهما أكثر عرضة لأن تكون قاسية على من يتمتعون بها ـ الحياة المدنية أم الطبيعية؟ فما نرى من حولنا إلا أناساً يشكون من الوجود. . إني أسائل ما إذا كان أحد قد سمع عن همجي يعيش في حرية يكون قد فكر مرة في الشكوى من حياته أو في الانتحار. فلنحكم إذن، متناسين الزهو، في أي صف توجد التعاسة الحقيقية. . .»

لم يكن بين الناس في الحالة البدائية أي نوع من الصلات الأخلاقية أو الواجبات المشتركة، ولذا فلم يكن ممكناً أن يكونوا أخياراً أو أشراراً، ولم يكن عندهم فضيلة ولا رذيلة. ويرى روسو أننا قبلما نقدر هذه الحالة ينبغي أن نستبعد معتقداتنا الباطلة، وأن نفحص بميزان العدالة ما إذا كانت فضائل المتحضرين أكثر من رذائلهم، وما إذا كان في فضائلهم من الفائدة أكثر مما في رذائلهم من الشؤم والضرر، وما إذا كان في تقدم معارفهم ما يعوض الشرور التي يصيبون بها بعضهم بعضاً كلما تعلموا الخير الذي يجب أن يفعلوه. . .

طيبة الإنسان المفطورة :

ينتقد روسو نظرية هويز الذي يزعم أن الإنسان مفطور على الخبث، فيؤيد العكس، ويؤكد أنه مفطور على الطيبة. يقول: إن كون الإنسان خالي الذهن عن الطيبة لا يستفاد منه إنه مفطور على الخبث، فقد كانت عنده فضيلة طبيعية هي الشفقة. وهذه الفضيلة طبيعية وشاملة حتى أنها تسبق استعماله للتفكير، وحتى أن الحيوان نفسه يبدي منها إمارات محسوسة. فبصرف النظر عن حنان الأمهات حيال الصغار، نلاحظ كل يوم نفور الخيل من أن تدهم جسماً حياً.. ويختتم قائلاً إن هذا هو الشعور الطبيعي الخالص، السابق على كل تفكير: وإنه لمن هذه المزية وحدها تصدر كل الفضائل الاجتماعية...

ويضيف روسو :

«الشفقة، في حالة الطبيعة، هي التي تقوم مقام القانون، والأخلاق، والفضيلة مع هذه الميزة: وهي أنه ما من أحد يحاول أن يخالف صوتها الرقيق. هي التي تمنع كل همجي قوي من أن يسلب طفلاً ضعيفاً أو شيخاً عاجزاً القوت الذي كسبه بمشقة....».

وفكرة طيبة الإنسان المفطورة هذه هي أساس نظرية

روسو كلها، التي يمكن أن تلخص فيما يلي: «أن الطبيعة خلقت الإنسان طيباً وسعيداً، وأن المجتمع يفسده ويشقيه». وكل تأليف روسو إن هو إلا شرح لهذا المبدأ العظيم كما يؤكد هو بذاته في «محاوراته» وسوف ترى فيما بعد أن هذا المبدأ ـ وإن بدا غير معقول ـ يتفق ورأي الكثيرين من كبار المفكرين في عصره.

ثم ينتقل روسو إلى الاختلال الذي تسببه الشهوات وأقواها «العشق ويقدم لنا صفحات رائعة حقاً يبين فيها أن البدائيين لم يخلق العشق بينهم غيرة ولا عذاباً، ولا ضغينة ولا عراكاً، وإن كل ما تسببه هذه الشهوات من اختلال وإجرام إنما خلقها المجتمع والمدنية وقوانينهما التي انقلبت بها الأوضاع:

«من اليسير أن نرى أن الناحية المعنوية في الحب هي شعور مختلف يتولد من الحياة الاجتماعية، تذيعه وتمجده النساء بكثير من المهارة والعناية لتوطيد سلطانهن، ولتمكين سيادة الجنس الذي يجب أن يطيع...»

وهو يهتم النساء بأنهن، بكل وسائلهن للسيطرة على الرجل، قد قلبن نظام الحياة العادية رأساً على عقب، وخالفن كل القوانين الطبيعية. حتى أصبحنا، نحن الرجال، نطيع

النســاء كـالعبيــد الأذلال، في حين أن واجبنا حمــايتهن لا خدمتهن.

وقد تناول هذه الفكرة فيما بعد في رسالته المشهورة إلى دالامبير، حيث يقول:

«كل امرأة في باريس تجمع حولها حريماً من الـرجال الذين يفوقونها أنوثة، والذين يعرفون كيف يبدون نحو الجمال كل إمارات العبادة إلا عبادة القلب التي هو بها خليق..».

تلك هي اللوحة الساخرة التي يرسمها عن أرقى مجتمع في المعمـورة لنقدر على ضـوئها حقيقـة الحضارة. وبعـدهـا يستطرد موضحـاً أن التفاوت بين النـاس أقل بكثيـر في حالـة الـطبيعة وليس لـه من الحقيقـة والآثـار مـا قـد يـزعمـه بعض الكتـاب. وفي القسم الثاني من المقـال يشـرح مصـدر عـدم المساواة ومسراه .

القسم الثاني :

يبدأ القسم الثاني بهـذه الفقرة المشهـورة العميقة الأثـر التي شغلت الخواطر:

«إن أول من سور قطعة أرض ثم قال «هذه لي» ووجد

قـوماً سـذجاً يصـدقـونـه كـان هـو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. كم من جرائم وحروب، وميتات، كم من فـظائع وتعـاسـات كـانت تـوفـر على الجنس البشري لو أن أحداً انتزع الأوتاد أو ردم الخنادق وصاح في أترابه: حذار أن تصغوا إلى هذا النصاب، لتضيعن لـو نسيتم أن الثمار ملك للجميـع وأن الأرض ليست ملكاً لأحد. . !».

ويستطرد معترفـاً بأن نشـأة الملكية تفتـرض سلسلة من تقدمات سـابقة تـولدت ببطء وعلى التـوالي، متنقلة من عصر إلى عصـر: صناعـة الأسلحة البـدائيـة والمـلابس الفـرائيـة، واختراع النار. . . كل تقدم منها تعقبه تعاسته: فالناس بعد ما اخترعوا من أدوات تهيأ لهم فراغ كبيـر استعملوه في الحصول على مختلف وسائل الراحة مما لم يعرفه أباؤهم:

«كان ذلك أول نير فرضـوه على أنفسهم دون أن يدور بخلدهم، وأول مصدر للشرور التي أعدوها لأعقابهم، لأن وسائل الراحة هـذه أصبحت احتياجـات حقيقية، فـاضحى الحرمـان منهـا أقسى من عـذوبـة حيـازتهـا أضحى الإنسـان تعساً لفقـدها دون أن يكـون سعيـداً لامتلاكها. . .»

وبعد ذلك بدا الناس يتقاربون، ونشـأوا يجتمعون أمـام

الكهوف، وأصبح الغناء والرقص مشغوليتهم المفضلة. إلا أن ذلك لم يكن تقدماً للأخلاق:

«أصبح أبرع الناس في الغناء أو الرقص أو أجملهم، أو أقواهم، وأمهرهم، أو أبلغهم، أكبرهم اعتباراً ومكانة، وكانت هذه أول خطوة نحو التفاوت ونحو الرذيلة في الوقت نفسه: فمن هذه التفضيلات الأولى نشأ الزهو والاحتقار من جهة، والخجل والحسد من جهة أخرى: ومن الاختمار الذي سببته هذه العجائن الجديدة تولدت مركبات كانت شؤماً على السعادة والبراءة».

وأخيراً يصل روسو إلى مرحلة التقدم البشري التي كان يود لو وقفت عندها الإنسانية: المرحلة التي تسبق نشأة الملكية الفردية. كان الإنسان قد خرج من غفلته البدائية، ولم يحقق بعد تقدمات جد مشؤومة. كان هذا العهد شباب ـ الدنيا بحق. لا بد أنه كان أسعد أوقاتها وزهرة عمرها:

«كلما فكرنا في ذلك وجدنا أن تلك الحالة كانت أقل الحالات تعرضاً للانقلاب، وأنسبها للإنسان، وما كان ليخرج منها إلا بصدفة مشؤومة . .».

تلك الحالة التي يعنيها روسو هي الحالة الاجتماعية

الأولى، العصر الذهبي للإنسانية، العهد الـذي كان يجب أن تستقر فيه لو أدركت مصالحها الحقيقية. هي إذن ليست حـالة الهمجية: ففيها تظهر الحقوق، والواجبات والأخلاق، بمعنى أنه ينبغي ألا يسلب أحد صيد غيره، وألا يعتدي على رفيقه في القبيلة أو يضره... إنها «حالة الطبيعة» التي يقصـدها روسـو كلما تحدث عن الهمج:

«هنـاك الحالـة الأولى: الإنسان حيـوان ذكي، يعيش بريئاً في الحالة العائلية. وهناك الحالة الثانية: الرجل يتطور من حيوان إلى همجي، اعني يعيش في قبـائل معيشة أخلاقية، وهذه الحالة الثـانية التي هي الحـالة الاجتماعية الأولى، أفضل حالة وجدت. إنهـا بمثابـة بلوغ أو شباب الإنسانيـة. وكما أن في حيـاة الإنسان عمراً يتمنى له أن يمكث فيـه أبداً، كـذلك في حيـاة الإنسـانيـة عمـر كـان يـرجى لهـا أن تمكث فيـه أبداً...»[1].

(١) إميل فاجيه، روسو المفكر، ص ٤٩.

بداية الزراعة والتعدين :
ظهور الملكية :

طالما اكتفى الناس ب الريفية، وعاشوا على محصول الصيد والقنص وطالما اقتصروا على الاشتغال بالأعمال التي يستطيع ألأ يؤديها فرد واحد، ولا تحتاج إلى اشتراك عدة أفراد، عاشوا أحراراً وسعداء :

«لكن منذ اللحظة التي احتاج فيها الرجل إلى معونة آخر، منذ ما رأى الناس أنه من المفيد لشخص واحد أن يحصل على مؤونة شخصين اختفت المساواة، وأدخلت الملكية، وأصبح العمل ضرورياً، واستحالت الغابات الواسعة إلى حقول باسمة لا بد من ريها بعرق الناس، وسرعان ما رؤيت العبودية والتعاسة تنبت فيها وتتكاثر مع المحاصيل.

إن التعدين والزراعة هما الفنان اللذان نشآ من اختراعهما هذا الانقلاب الكبير . . . ».

هكذا يرى روسو أن الزراعة، ذلك الفن الذي تغنى به الشعراء كأساس الحياة الإنسانية، هي أداة انحلال البشر. وهو يضيف إليها التعدين، ملاحظاً كفيلسوف، أنه ليس الذهب والفضة بل «الحديد والقمح» هما اللذان مدنا الناس وضيعا الجنس البشري.

الاختلال الناشيء من الملكية :

من فلاحة الأرض نشأ تقسيمها، وبالتالي نشأت الملكية ، مصدر كل الشر . فالملكية تولد عدم المساواة : ذلك أنه حتى لو فرضنا أن الأرض كانت مقسمة بالتساوي فإن الناس إذ يتكاثرون سرعان ما يوجد منهم من لا يجد أرضاً ، فيضطرون لكي يكسبوا قوتهم إلى العمل لدى من يملكون أرضاً ، فتختفي المساواة .

والملكية تولد المزاحمة والمنافسة. وبالتالي الأغنياء والفقراء. ويصبح القتال مروعاً ، وتختفي الأخلاق : « فإن الغنى الفاحش يفسد الإنسان ، والبؤس يفسده أيضاً . . لأن تعود الناس النظر إلى فريق منهم على أنه نوع أحط يخلق فيهم الزهو والقحة ، والخبث والقسوة ، وكذلك فإن رؤية فريق من الناس يستأثرون بكل الأملاك ، دون أن يدرك المرء السبب في ذلك حينما هو في غمرة البؤس ، تثير في نفسه الحسد ، والحقد ، والخبث ، والقسوة ، إن التفاوت يفسد الكبار والصغار على السواء ، مثلما يفسد حتماً كل ما يخالف الطبيعة » [1] .

لم يكد الأغنياء يتذوقون متعة السيادة والسيطرة حتى أصبحوا ولاهم لهم إلا استعباد جيرانهم: «مثل تلك الذئاب

(١) إميل فاجيه : روسو المفكر ص ٥١ .

الجائعة التي تذوق مرة لحم البشر، فتعرض عن أي غذاء آخر، ولا تريد بعد ألا التهام أناس. وكذلك فإن أعظم الناس أو أفقرهم جعلوا من قوتهم أو من حاجتهم ضرباً من الحق في مال الغير، مشابهاً فيما يرون لحق الملكية، فانقطعت المساواة، وأعقبها اختلال مروع، وهكذا فإن اغتصاب الغني وانتهاب الفقير، وشهوات الجميع الجامحة، خنقت الشفقة الطبيعية وكتمت صوت العدالة الذي كان لا يزال ضعيفاً، فجعلت الناس أولى بخل، وطمع، وخبث، ونشب بين حق الأقوى وحق الحائز الأول خلاف دائم لا ينتهي إلا بالعراك والقتل. لقد فتح المجتمع الناشىء مجالاً لأفظع حالة حرب: إن الجنس البشري، وقد تدهور وأيس، ولم يستطع أن يتراجع القهقرى، ولا أن يتنازل عن كسبه المؤسف، وأصبح لا يعمل إلا على خجله إذ يسيء استعمال المقدرات التي تشرفه، قد أشرف بصنع يده على شفا خرابه».

مصدر المجتمع والقوانين :

وعلاجاً للشقاقات والحروب التي يثيرها التفاوت المطرد تفتقت مخيلة الغَنِيّ عن «أمكر مشروع خطر على الذهن البشري»؛ ذلك أن يستغل لمصلحته قوات مهاجميه، وأن يجعل من خصومه مدافعيه. فبحجة حماية الضعاف من العنت والظلم، عرض على جيرانه السذج إقامة حكومة تضمن له

ملكية أمواله تزودها بقوة القانون.

«ذلك كان مصدر المجتمع والقوانين، والتي ولدت قيوداً جديدة للضعيف وقوات جديدة للغني، وقضت على الحرية الطبيعية قضاء مبرماً وثبتت قانون الملكية والتفاوت إلى الأبد، وجعلت من الاغتصاب الحاذق حقاً لا ينقض، وأرغمت الجنس البشري بأسره على العمل والعبودية، والشقاء، لمصلحة بعض الطموحين...».

إن مثل هذه الفقرة لقنبلة شديدة الانفجار ضد الأنظمة الاجتماعية وبقية المقال لا تقل عن ذلك شدة.

إقامة الحكم المطلق:

ويتحدث روسو عن أشكال الحكومة، منكراً القول بأن الشعوب قد ألقت بنفسها بين يدي سيد مطلق بلا قيد ولا رجعة، قائلاً: لامراء في أن الشعوب قد اختارت لها رؤساء للذود عن حريتها لا لاستعبادها، ومفنداً ما يزعمه البعض في سفسطة من أن الناس يحدوهم ميل طبيعي إلى العبودية.

«مثلما يزبئر الجواد البري بسيبه، ويضرب الأرض بحافره، ويجمع بشدة لمجرد دنو الشكيمة منه، في

حين يحتمل الجواد المروض السوط والمهماز صابراً، كذلك فإن الرجل الهمجي لا يطأطئ رأسه للنير الذي يحمله الرجل المتمدن صاغراً، وبفضل الحرية العاصفة على العبودية الساكنة. . .»

هكذا شأن الرجل الهمجي الذي ما زال يتمتع بحريته، وفي سبيلها يضحي براحته، ومتعته، بل بحياته ذاتها. في حين أن الآخرين الذين فقدوا ذوق الحرية لطول ما تعودا العيش في أسار العبودية لا يكفون عن مدح «السكينة والراحة اللتين يتمتعون بهما في أغلالهم».

وينتقد روسو نظرية برفندورف قائلاً إنه لا يمكن أن يتخلى الإنسان عن حريته لصالح غيره بمقتضى اتفاق.

يمكن للمرء أن يستغني عن مال يملكه:

«لكن ليس كذلك الأمر فيما يخص منح الطبيعة الأساسية مثل الحياة والحرية، اللتين سمح لكل امرىء أن يتمتع بهما، لكن لا يحق له أن يتخلى عنهما فإن هو حرم نفسه هاته أذل كيانه، وإن هو حرم نفسه تلك قضي عليه: وبما أنه ما من خير زمني يعوض هاته أو تلك؛ فإن التنازل عنهما لقاء أي ثمن هو إهانة للطبيعة وللعقل في وقت

واحد . . . [1] إن الحرية هبة يستمدها الأطفال من الطبيعة بصفتهم بشر ، فليس لآبائهم أي حق في تجريدهم منها . . . » .

فاعتقاد روسو إذن أن الحكومات محال أن تكون قد بدأت بالسلطة المطلقة. وما السلطة المطلقة أولاً حكومة فاسدة. وهذه السلطة هي بطبيعتها غير مشروعة ولا يمكن أن تكون اتخذت أساساً لقوانين المجتمع.

كذلك يرتب روسو خطوات عدم المساواة: فأول خطوة هي نشأة القانون وحق الملكية، والثانية نشأة نظام الولاية. والثالثة والأخيرة تحول الحكم الشرعي إلى حكم مطلق، بحيث أن حالة الغني والفقير أجيزت في العهد الأول، وحالة القوي والضعيف في العهد الثاني، وحالة السيد والعبد في العهد الثالث، وهذه الحالة هي أحط درجات التفاوت.

---

(١) سوف يعود روسو إلى هذه الفكرة في العقد الاجتماعي وسوف يقويها إذ يقول «إن تنازل الإنسان عن حريته لهو تنازل عن صفته الإنسانية، وعن حقوق الإنسانية، بل حتى عن واجباته. إن مثل هذا التنازل لا يتفق وطبيعة الإنسان».

ويختتم روسو مقاله بسطور أقوى وأعنف. فيقول عن الأغنياء:

«إذا رأينا حفنة من العظماء والأغنياء، في ذروة العظمة والثروة، في حين أن العشب يزحف في الظلام والتعاسة، فلذلك أن الأولين لا يقدرون الأشياء التي يتمتعون بها إلا بقدر ما يحرمها الأخيرون حتى أنهم ليفقدون سعادتهم ـ دون أن تتغير حالتهم ـ لو أن الشعب خرج من تعاسته. . . .».

ويقول عن الطغاة:

«إنه لمن حمأة هذا الاختلال وهذه الانقلابات أن الطغيان، وقد رفع تدريجياً رأسه البشع، والتهم كل ما رآه طيباً وسليماً في كل أركان الدولة ـ قد أفلح آخر في أن يطأ بالأقدام القوانين والشعب، وأن يتوطد على أطلال الجمهورية. .

هذا المقال لم يتوجه للمجتمع: وهذا مفهوم. ومع ذلك فلا مراء في أنه المؤلف الذي رسخ مجد روسو نهائياً حتى قال كبار النقاد في هذا المقام «في خطوتين لحق روسو بفولتير».

تفسير المقال [1] :

تقوم نظرية روسو على مواجهة «الطبيعة» التي هي في رأيه «الخير»، «بالمجتمع» الذي هو في رأيه «الشر».

خلقت الطبيعة الإنسان خيراً وجعله المجتمع شريراً، خلقت الطبيعة الإنسان سعيداً وجعله المجتمع تعيساً، خلقت الطبيعة الإنسان حراً وجعله المجتمع عبداً. ثلاث مقولات مرتبطة، هي تعبيرات مختتفة واحدة: أن المجتمع بالقياس إلى الطبيعة هو بمثابة الشر بالقياس إلى الخير.

إن الرذيلة الأساسية في المجتمع لهي التفاوت أي عدم المساواة. والتفاوت الاجتماعي يخلق الامتيازات. فهو يقول لقلة: «ستملك كل شيء دون أن تفعل شيئاً». ويقول للكثرة: «اشتغل، لا لك، إنما لهم». إنه يخلق ظلمة أشداء وعبيداً أرقاء، يخلق أشراراً وبؤساء.

---

(١) استندنا في هذا التفسير على المراجع التالية:

* جان جان روسو، المحاورة الثالثة، المصنفات، المجلد الرابع.
* إميل فاجيه، القرن الثامن عشر، ص ٣٤٥ ـ ٣٥٢
* إميل فاجيه، روسو المفكر، أخلاقه ص ٤٣ ـ ١٣٨
* جوستاف لانسون، تاريخ الأدب الفرنسي، ابتداء من ص ٧٨٠
* آرثور شوكيه، جان جاك روسو والمقالات، ابتداء من ص ٧٠
* البير شينز، تفكير جان جاك روسو، الفصل الثاني.

ومصدر الشر الاجتماعي هو الملكية، محور المجتمع. الثروات، الطبقات الألقاب، كل شيء مرجعه تفاوت الأموال: الملكية. كذلك يمكن أن يفسر الشر الاجتماعي بالخلاف بين الغني والفقير: هاك كيف تعرض المشكلة في المقال عن عدم المساواة.

طيبة الإنسان

يمكن أولاً أن نسأل روسو بأي حق يؤكد طيبة الإنسان الأصلية في حالة الطبيعة؟.

وهو يجيب بأنه يشعر بأنه طيب وفاضل وطاهر، ويحس تماماً أن الحياة الاجتماعية هي التي أفسدته. فالإنسان الطبيعي إذن هو روسو نفسه، الطيب بفضل الطبيعة والتعس بفعل رذائل المجتمع[1].

ثم أنه يؤمن بالله إيماناً عميقاً. والله طيب. أما أن يكون إلهاً شريراً فخرافة وحشية إن راقت بعض الفلاسفة فهي لا تخطر ببال روسو مطلقاً. وإذا كان سبحانه وتعالى طيباً فإنه إنساناً طيباً على شاكلته. كان طيباً عندما خرج من يده.

إذن خلق الإنسان طيباً، لكن كيف أصبح خبيثاً؟ يقول

(١) المحاورة الثانية، المصنفات، المجلد الرابع.

روسو: فلنبحث، ويرجع إلى المصادر، فيروي لنا قصة الإنسانية، مبيناً أن التقدمات التي حققتها كانت كلها شؤماً على سعادتها. ذلك هو لب المقال.

الواقع أن فكر روسو هو تعبير عقلي لفكرة «السقوط» اللاهوتية . كان الإنسان طيباً وسعيداً ، وأراد أن يخرج من حالته ، فسقط . وفي هذا المعنى تبدو فكرته مقبولة ، لأنها تستند إلى الدين .

ولكن هل يمكن للمرء أن يزعم وهو جاد أن الإنسان البدائي، ذلك الحيوان الأبله الهمجي، كان في غمار بلاهته أفضل وأسعد من الإنسان المتمدن؟

مهما يكن من غرابة هذا الرأي فإن عدداً كبيراً من قادة الفكر يشاركه فيه.

فمنذ عهد بعيد، منذ مونتاني، كانت تتردد على الأذهان فكرة غريبة تواجه الإنسان الهمجي بالإنسان المتحضر، وتقر للأول بالتفوق في العقل والفضيلة[1] وكان بيفون يعتقد أن الرجل الهمجي فيه من الفضيلة أكثر مما في الرجل المتحضر

---

(١) بول هازار، أزمة الضمير الاوروبي، الفصل الأول، البارون لاهنتان وغيره.. بول هازار الفكر الاوروبي في القرن الثامن عشر، المجلد الثاني، البدائية والمدنية ص ١٢٥ وما بعدها.

وأن الرذيلة لم تتولد إلا في المجتمع. وكان ديدرو يمدح الطبيعة معلناً أنها لم تفسد الإنسان وإنما يفسد الإنسان نفسه على الرغم منها، ومبشراً مثل روسو بالعودة إلى الطبيعة. بيد أن هناك بوناً شاسعاً بين طبيعة ديدرو وطبيعة روسو[1].

وأخيراً، فإن فولتير نفسه كان يؤيد، في تناقض غريب، رأي روسو في طيبة الإنسان المفطورة فهو يقول في «القاموس الفلسفي» باب «الأشرار».

«لم يولد الإنسان شريراً، إنه يصبح شريراً، كما يصبح مريضاً. . اجمعوا كل أطفال الكون، فلن تروا فيهم إلا البراءة، والوداعة، والخشية، ولو كانوا أشراراً وقساة لأبدوا بعض الإمارات، كصغار الأفاعي التي تحاول أن تلدغ، وصغار النمور التي تحاول أن تفترس. . إذن لم يولد الإنسان خبيثاً. ترى لماذا يصاب الكثيرون بعدوى داء الخبث هذا؟ ذلك أن أولئك الذين يترأسونهم مصابون بهذا المرض فهم ينقلونه إلى الباقين، مثلهم مثل المرأة المصابة بالداء الذي جلبه كريستوفر كولمبس من أمريكا تنشر هذا السم في جميع أنحاء أوروبا. . .».

---

(١) بيير موريس ماسون، دين روسو، المجلد الأول ص ١٤٨ إميل فاجيه القرن الثامن عشر ص ٣٠٠ وما بعدها ص ٤٠٦.

ويصيح أميل فاجيه، وقد بهت لهذه الفقرة: «ها هوذا روسو طبق الأصل يولد الإنسان طيباً، ويفسد بفعل المجتمع، ويتلف بفعل حكوماته. لا ينقص إلا أن ـ يكتب فولتير (عدم المساواة بين الناس)!»[1].

حالة الطبيعة عند روسو :

عندما يحذرنا روسو من أخطار المدنية. ويقترح علينا العودة إلى الطبيعة، فهو لا يعني أن يعرض لنا كمثال الحياة المنعزلة للإنسان «الأورانج أو تانج» النسخة البدائية للإنسانية. إنما يقف كما قلنا عند الحياة الرعائية، عند العهد الذهبي لدى الكلاسيكية. وهذه الحالة ليست حالة الهمجية كما نفهمها.

والواقع أن تفكيره يمكن تلخيصه فيما يلي :

«الإنسان اجتماعي أكثر مما ينبغي، يجب على الأقل أن نقلص الحياة الاجتماعية إلى حدها الأصغر، وأن نعود إن لم يكن إلى الأسرة فعلى الأقل إلى القبيلة إلى المجتمع الصغير، كذلك تتضاءل جسامة التفاوت بين الناس، كذلك نخفف الاحتياجات المختلفة من مجد، وترف وحياة دنيوية، ومتع فنية، وكذلك نعيد

(١) إميل فاجيه، القرن الثامن عشر، فولتير ص ٢١١.

الإنسان إلى شبه حيوانية لكن ذكية، وعلى الأخص سليمة، ساكنة، مستريحة عاطفية، هي حالته الطبيعية، وهي على كل حال الحالة التي فيها سعادته. . . »[1].

وما من شيء أصوب من ذلك: فكلنا يشعر بالملل مما في مدنيتنا من مغالاة، مما في أخلاقنا من اختلاق، وكلنا يفكر أننا يمكن أن نستغني بكل يسر عن بعض مبتكرات العلم، ما دمنا كنا في غنى عنها فيما سلف، ويفكر أيضاً أن الإنسانية ربما تولى ظهرها لسعادتها، وأن المدنية الصناعية شر، وأن الأصلح للإنسانية أن تعود إلى الحياة الطبيعية والريفية بما فيها من بساطة وفضيلة ويسر.

التقدم عند روسو :

لو أنه اكتفى بأن يقول أن تقدمات المدنية ليست كلها نافعة، لو أنه قنع بحضّ معاصريه على بساطة الخلق وأوصاهم بالحياة الريفية، لما جانبه الصواب، ولما فكر أحد أن ينتقد المقال. بيد أنه بدلاً من ذلك اشتط في تفكيره، وتحمس في توكيده أن كل التقدمات التي أبعدت الإنسان عن حالة الطبيعة

---

(١) إميل فاجيه، القرن الثامن عشر، ص ٣٥٥.

إن هي إلا تدهورات. ومع ذلك فحتى هنا ليس روسو مخطئاً كل الخطأ.

إنه لا يؤمن بالتقدم، وبعد فكرة التقدم غلطة من غلطات الإنسانية. وما فكرة التقدم إلا الرغبة في التغيير، وأن الإنسان ليبلغ من الحماقة بحيث يرى كل تغيير تقدماً.

وروسو في هذا المعنى على صواب تماماً.

ومع ذلك فهو يعرف جيداً أن شعور التقدم، سواء كان اعتقاداً باطلاً أو لم يكن، هو فكرة ملتحمة بالإنسان، يحملها منذ ولادته، ويضع فيها كل شرفه ومتعته وأن الإنسانية تسير أو تظن أنها تسير نحو مستقبل أفضل، معتقدة أنها تستطيع أن تبلغه مهما طال الأجل.

وهذه الحياة الأفضل، عند روسو هي الحياة البسيطة، الحياة التي تبتعد ما أمكن عن المدنية المفسدة، غلطة الإنسانية الكبرى، لأنها تفسد أخلاق البشر وتخنق الضمائر ونبيل المشاعر، وتخلق التفاوت الذي يجعل من الإنسان تعساً وعبداً فما الحضارة غير سباق جنوني وراء حالة خادعة وغير محققة، لا تخلف وراءها إلا الشرور والأحزان. وواجبنا أن نكف عن هذا السباق، وأن نعود القهقرى حتى نسترجع الحالة البدائية. إذ ذاك ستقدر الإنسانية، بما اكتسبت من خبرة،

بساطتها الأولى التي تزدريها اليوم، وستعرف قيمة النعم النفسية التي فقدتها والتي تستوجبها: البساطة ومعناها احتقار الزهو، الجهل ومعناه ازدراء المعرفة، البراءة ومعناها الفضيلة...

هذه الرجعة سوف تكون تقدماً.

هكذا فإن روسو، وإن بدا مولياً ظهره لعصره، يتمشى مع عصره أكثر من أي شخص غيره، لأن تقهقره هو تقدم، بل إنه أكبر تقدم يمكن أن تحرزه الإنسانية وهو يعتقد أنها قادرة على إحرازه. إنه يؤمن بأن الإنسان الساقط قادر على النهوض وهذا يعني الإيمان بقابليته للإصلاح والكمال[1].

لهذا السبب، لا تستهدف نظرية روسو للنقد، بل تعد نظرية رائعة، إن مقاله، الذي يتضمن بلاغة خليقة الإعجاب، قد تتضمن بعض التخمينات الروائية وبعض المتناقضات الغريبة والمفارقات. ومن هذه الناحية يمكن توجيه بعض الاعتراضات إليه: مثل إنكار أن الإنسان كان سعيداً في بهيميته كما يزعم، أو أن المجتمع مسئول عن كل الشر الموجود في الدنيا... الخ. ومع ذلك «فإن المرء ليقف مبهوتاً إزاء ما في مؤلفه من رائع، وعمق، وصحيح، وعلى الأخص إزاء ما فيه من حيوية، وحالية تثير اهتمامنا حتى أعمق النفوس»[2].

(١) إميل فاجيه، القرن الثامن عشر، ص ٣٥٠ وما بعدها.

(٢) جوستاف لانسون، تاريخ الأدب الفرنسي ص ٧٩٢.

مسألة الملكية :

المشكلة الاجتماعية التي يعرضها روسو: الترف والحرمان، الغنى والبؤس، التمتع الأناني والعمل لحساب الغير، تتفرع من واقع عام: الملكية. فهي عنده الرذيلة الاجتماعية الإنسانية.

ترى ما فكره في هذه النقطة على التحقيق؟ هل يميل إلى إلغاء الملكية إلغاء تاماً أو لا يحتفظ بأي قيد؟

يؤمن روسو بالاشتراكية إيماناً عميقاً، ، ، بمعنى أنه ينفر من الترف، ينفر من الغنى، ينفر من الملكية، ويرجو أن تقوم بين الناس مساواة حقيقية، فإن تلك المساواة المزعومة في الحقوق ليست إلا طعماً.

ونفوره من الترف يرجع إلى خلقه، إلى أفكاره العامة عن الحياة البسيطة للشعوب البدائية. وهو بتسلسل طبيعي ينفر من الغنى، أولاً في ذاته، ثم لأنه يتيح لرجل أن يبتاع رجلاً آخر، أن يملك رجلاً آخر، لأن هذا غني وذاك فقير.

«إنه لمناقض كل التناقض للقانون الطبيعي، أياً كان تفسيره، أن يأمر طفل شيخاً، أن يقود أبله حكيماً، وأن تتوافر لدى حفنة من الناس الكماليات، في حين أن

الكافة الجائعين تعوزهم الضروريات...»[1].

لكن لا نخطئن في مرمى هذا الكلام: فإن روسو لا يؤيد إلغاء الملكية. فهو على النقيض يؤكد في كل فرصة أن الملكية هي الأساس الحقيقي للمجتمع المدني. ويعلم بصوت جهوري «أن الملكية هو أقدس حقوق المواطنين»[2]، وأنه ينبغي أن نحميه.

ويقول أنه يجب ألا نلغي الوراثة، لأن هناك سبباً قوياً في صالح الأطفال: ذلك أن حق الملكية يكون غير ذي فائدة لهم إذ لم يخلف لهم الأب شيئاً، ثم أنهم كثيراً ما يشاركون بعملهم في تكوين ثروة الأب وإنمائها، وبذلك يكونون شركاء في حقه.

ويضيف:

«ما من شيء أشد شؤماً على أخلاق الجمهورية من التغييرات المستمرة بين المواطنين في الطبقة والثروة، تلك التغيرات التي هي مصدر ألف من البلابل والتي تقلب الأمور رأساً على عقب...

(١) خاتمة المقال.

(٢) في الاقتصاد السيلسي، المصنفات، المجلد الأول ص ٥٩٦ وارجع أيضاً إلى العقد الاجتماعي، والتأملات عن حكومة بولونيا.

وهو يكتب ذلك بعدِ المقال في عدم المساواة بعام واحد[1].

كيف نفسر إذن هذا التناقض؟ أفلم يقل أن الملكية هي أساس التفاوت، وأن التفاوت ذاته هو مصدر كل الشرور؟

إن الأمر من البساطة بمكان. فإن روسو يبدو قاطعاً في مبادئه، وإنما خجولاً في استنباطاته. والحق أنه يخشى أن يذهب في استدلاله إلى نهايته: لأن إلغاء الملكية قد يؤدي إلى قلب نظام المجتمع كله، وإثارة بلابل شديدة الخطر.

إنما ينادي روسو بشبه مساواة، من شأنه أن يخفف من الفوارق الواسعة بين الغني والفقير، ويلغي الترف وما يتبعه من فساد وانحلال، ويمكن أن يبقى متمشياً مع الملكية الصغيرة الموزعة توزيعاً عادلاً، يريد مجالاً لأن يعيش كل فرد، دون أن يغتني أحد فينقسم البشر إلى سيد وعبد. يقول في مقاله في الاقتصاد السياسي:

«من أهم شئون الحكومة أن تدرأ المغالاة في التفاوت في الثروات، ليس بانتزاع الكنوز من أصحابها، بل بحرمان الناس من وسائل جمعها، وليس بإنشاء المستشفيات للفقراء، بل بحماية المواطنين من أن يصبحوا فقراء».

(١) ظهر المقال في الاقتصاد السياسي في الانسكلوبيديا في ١٧٥٥.

الفصل الرابع

إقامته في الايرميتاج [1]

(١٧٥٤ - ١٧٥٨)

كان روسو قد غادر جنيف في أكتوبر ١٧٥٤ وفي نيته أن يعود للإقامة فيها في ربيع السنة التالية. بيد أن هـذا المشروع لم يحقق لسببين: أولهما وجود فولتير بهذه المدينة، وثانيهمـا استبقاء مدام داييناي أباه في فرنسا.

فولتير وروسو في عام ١٧٥٥

لمْ يكنْ وصُول فُولتيـر إلى جنيف في ديسمبـر ١٧٥٤ وإقامته في دليس (على كثب من بحيرة ليمان) في فبراير ١٧٥٥ من الأحـداث التي تجتذب روسـو: فقد كـان يشعر بـأن هذا المفكر، الذي يحـظى بإعجـاب الشباب وعبـادة النساء وثقـة العظماء سوف يحدث ثورة في جنيف، وكان يقـدر لذلـك أنه

(١) لم يصل روسو إلى الايرمتياج إلا في إبريل ١٧٥٦ حيث أقام إلى ١٥ ديسمبر ١٧٥٧.

سوف يجد في وطنه «الأسلوب والأخلاق التي طردته من باريس»[1]

وكانت تفصل ما بين الرجلين هوة واسعة:

ذلك أن فولتير يمثل بالضبط ما يمقته روسو كل المقت: الحياة الاجتماعية من جانبها الذي يصطبغ بالتكلف، والذي يشيع الفساد: فهو يحب «ذلك الزمن اللاديني الذي يتفق وأخلاقه»[2]، يحب اللذات المترفة، والولائم الدسمة والمجتمعات الأنيقة. وهو يمثل السخرية والزندقة: ألا ترى إلى الأشعار التي يتطاول فيها على آدم وحواء ويمثلهما قذرين وأشبه بالسوائم؟ إنه خبيث، والأدهى أنه لا يخالجه على خبثه ندم. ثم أنه غني أرستقراطي في حين أن روسو فقير معدم ومن العوام. وهو فوق ذلك المدافع عن الآداب والعلوم والمؤمن بفضل المسرح، في حين أن روسو هو خصم العلوم وعدو المسرح. وأخيراً فإن فولتير هو نصير التفاوت والملكية، في حين أن روسو بشير المساواة والاشتراكية.

ومع ذلك فإن روسو لم يكن يسعه أن يفلت من شباك الإعجاب التي أسرت بها عبقرية فولتير أهل زمانه: فهو مؤلف

---

(١) الاعترافات، الكتاب الثامن، ص ٢٠٧.

(٢) فولتير؛ الدنيوي» المؤلفة في ١٧٣٦.

زمانه، مؤلف زاهير والرسائل الفلسفية، وحسبه هذا للتجاوز عن هذه السفاسف الهينة. ولقد عبر عن إعجابه هذا في رسالة مؤرخة ١١ ديسمبر ١٧٤٥ حيث قال «منذ ١٥ عاماً وأنا أسعى لكي أكون أهلاً لعطفك. . .»[١]. ولقد رد عليه فولتير رداً يفيض تأدباً. لأن روسو كان عندئذ يعمل في فرع لا يثير قلق فولتير: فما كان إلا منافساً للموسيقار رامو.

لكن يحدث الدوي الهائل الذي أثاره « المقال عن العلوم والفنون » ثم المقال في « عدم المساواة » . ويثبت روسو أقدامه ، ويتخذ بين كتاب عصره مكانة هامة وتلاقي مفارقاته إعجاباً شاملاً وخطوة عامة .

ويستاء فولتير لهذا النجاح، ثم أن عقله لا يهضم مفارقات روسو. وإعجابه! أتكون العلوم والفنون سبباً في إفساد الناس؟ أيكون الجهل والبداوة أفضل حماية للأخلاق؟ ولعل للقارىء يعرف رده اللبق الخفيف الظل على روسو عندما تلقى منه مقاله في عدم المساواة:

«لقد تلقيت، يا سيدي، كتابك الجديد ضد الجنس البشري. . ما من أحد استعمل مثل هذا الذكاء كله

---

(١) رسالة من روسو إلى فولتير، بمناسبة أوبرا، «أعياد رامير». مراسلات روسو الجزء الأول رقم ٩٧.

لكي يرجعنا إلى مرتبة الحيوان، عندما يطالع المرء كتابك تراوده الرغبة في أن يمشي على أربع . . »[1]

وكانت بقية الرسالة، مع ذلك، تفيض أدباً ورقة. وعلى ذلك لم يمتعض روسو، ورد برسالة رائعة قال فيها إنه إذ يرسل كتابه إلى فولتير «إنما يؤدي واجباً ويعرب عن تكريم يدين له به الجميع كرئيس».

ويلاحظ أن فولتير لم يشر إلا إلى مقال روسو الأول، ولم يمس قط مسألة التفاوت الهامة. وهو ينتقد رأي روسو في شأنها فيما بعد في قاموسه الفلسفي الذي لم يظهر إلا في سنة ١٧٦٤ . ففي مادة «رجل» التي يتناول فيها هذه المسألة، يصف روسو كعدو للمجتمع، ويذكر جملته المشهورة «أول من سور أرضاً . . » ويضيف أنه بدلاً من تدمير حد الجار، من الأحكم والأشرف أن يقول «فلنقلد جارنا، لقد سور غيطه وسوف تصبح أرضه أخصب، فلنفلح أرضنا كما أفلح أرضه . . . »[2].

وكذلك ففي سنة ١٧٥٥ كانت العلاقات بين روسو

(١) رسالة من فولتير إلى روسو، ٣٠ اغسطس ١٧٥٥ في مراسلات روسو، المجلد الثاني رقم ٢٤٣ وفي المجلد نفسه رد روسو رقم ٢٤٤.

(٢) فولتير، القاموس الفلسفي، مادة «رجل» وهذه المادة لا تظهر في الطبعات السائرة. وتجدها في فلازوران، فولتير، طبعة هاتيبيه.

وفولتير لا تزال متسمة باللطف والمجاملة، ومع ذلك فقد كان الجو ينذر بعاصفة، وما كان يبقى على هبوبها إلا هفوة تصدر عن أحد الخصمين، وقد وقعت الهفوة من روسو بمناسبة قصيدة نشرها فولتير تمس مسألة العناية الإلهية. وسوف نتناولها حالاً.

الابرميتاج (١٧٥٦ ـ ١٧٥٧)

قلنا أن مدام دايناي استبقت روسو في فرنسا.

وكانت أواصر المودة متصلة بينه وبين هذه السيدة منذ سنين عدة. وكان قد نزل ضيفاً عليها في قصر الشفريت بالقرب من غابة مونمورانسى.

وذات يوم، حينما كانا يتنزهان معاً امتد بهما السير إلى خزان المنتزه، الذي يلاصق غابة مونمورانس، حيث كان يوجد بستان نضير به كوخ صغير ومقوض اشتهر باسم «الإيرميتاج» وقال روسو لما رآه» آه، يا سيدتي، يا له من مسكن جميل، إنه صومعة خلقت لي تماماً». فتظاهرت مدام دايناي بأنها لم تسمع جملته، إلا أنها جددت المسكن في غيبته. ولم يمض طويل وقت حتى عاد روسو إلى النزهة نفسها مع صديقته، فألقى بدلاً من الكوخ المقوض البيت الصغير المجدد. إذ ذاك قالت له مدام دايناي: «هاك يا دُبِّي معتزلك، أنت الذي

اخترته، والصداقة هي التي تهديك إياه».

ويقول روسو أنه لم يتأثر في حياته مثلما تأثر في تلك اللحظة، إنه بلل بدموعه يد صديقته البارة. وأنست منه مدام دابناي شيئاً من التردد فلم تدخر وسعاً لتحمله على سكني «الإيرمتياج». وكسبت في صفها الأم لوفاسير وابنتها حتى وعد روسو أن يسكنه في الربيع التالي. ولعله أن يكون مخطئاً في ذلك، لأنه أصبح مديناً لمدام دابناي بقبول هذه الدعوة، ومن جراء هذا سيتعرض لهموم كثيرة.

وفي انتظار الربيع، واظب على تردده على مجتمع البارون دولباك. وعندما علم أصحابه، وعلى الأخص جريم، بعزمه على مغادرة المدينة، بدأوا يمطرونه بوابل من السخرية:

«إنهالت علي النكات كالبرد، بحجة أني محتاج إلى إغراء المدينة وتسلياتها ولذا فإني لن أحتمل الاعتكاف خمسة عشرة يوماً فقط . . .».

لكنه لا يلقي لسخريتهم بالاً، لأنه يحب حياة الريف والعزلة أولاً:

«منذ ما ألقيت رغم أنفي في المجتمع لم أكف لحظة عن التحسر على الشارميت العزيزة، وما أنفقته فيها من حياة عذبة. كنت أشعر بأني خلقت للريف والعزلة

وبأني يستحيل أن أعيش سعيداً في بقعة أخرى. . في باريس، في دوامة المجتمع الكبير، في ملذات الولائم المترفة، في بريق المسارح العظيمة، كانت نزهاتي الانفرادية وخمائلي، وجداولي تراودني بذكرياتها فتشغلني، وتحزنني وتنتزع مني الزفرات والأشواق. . .»[1].

وفي هذا الوقت لم يكن له أي إيراد، فقد كان يتعيش من مهنته كناقل للموسيقى، ولم تكن مجزية: بيد أنه كان ذا شهرة ومواهب جمة. وكان يدخر الفين من الفرنكات من دخل مسرحيته «عراف القرية» مما يتيح له بعض اليسر في المعيشة، في انتظار إنجاز بعض مؤلفاته التي شرع في إعدادها. وكانت كلها مؤلفات خطيرة سوف نتناولها بالحديث.

ولو شاء أن يعيش في رغد لما كلفه الأمر سوى أن يكتب شأن المأجورين من رجال الأدب وأصحاب القلم، بيد أنه كان يضن بمواهبه أن تنزل إلى هذا المستوى الذي يترفع عنه مصلح مثله يخدم الإنسانية:

«شعرت بأني لو كتبت لكي أكسب قوتي لخنقت عبقريتي وقتلت ملكتي التي تكمن في قلبي لا في

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٠٩

قلمي . . . ما من شيء متين، ما من شيء عظيم يمكن أن يتمخض عنه قلم مأجور . . . لقد أحسست دائماً أن صفة الكاتب لا يمكن أن تكون جليلة طالما كانت حرفة. فإنه من العسير جداً أن يفكر الكاتب تفكيراً نبيلاً إذا كان لا يفكر إلا ليكسب عيشه. لكي لا يخشى ـ الكاتب أن يقول حقائق عظيمة ينبغي ألا يفكر في نجاحه . . .»

وذهب في ٩ إبريل ١٧٥٦ ليقيم في الإيرمتياج.

ومع أن الجو كان لا يزال بارداً، فإن الأرض كانت قد بدأت تكتسي بالخضرة. وكانت زهور الربيع قد ظهرت، وبراعم الأشجار قد بزغت. وفي ليلة وصوله ذاتها غنى البلبل، في الغابة المجاورة لبيته، وتحت نافذته، أولى أغنياته. وتملكته النشوة، لأنه كان آنئذ في حضن الطبيعة، فتحققت كل أمنياته.

وكان أول همه فحص المشاهد الريفية التي تكتنفه، وبدلاً من أن يفكر في مسكنه. أنشأ يعد نفسه لنزهاته. ولم يلبث أن اتخذ من غابة مونموراسى مكتباً لعمله. وسرعان ما عرف كل أركانها ودروبها ومسالكها، وخصص الصباح للنسخ كعادته. وبعد الظهر للتجوال في ربوع غابته، مقلباً أفكاره في ذاكرته، ومالئاً دفتره الأبيض الصغير بمذكراته.

الرسالة عن العناية الإلهية :

وفي تلك الأثناء، يتلقى قصيدة فولتير عن كارثة لشبونة: في عام ١٧٥٥ حدث زلزال دمر نصف المدينة، وكان ضحاياه ثلاثين ألف نسمة ما بين قتلى وجرحى وحرقى ونظم فولتير في شأنها مائتين وخمسين بيتاً من الشعر الشائق، منكراً أن كل شيء في خير حال كما يزعم ليبنتز وبوب. وكان هذا هجوماً على العناية الإلهية في سمة الحاد شنيع يثير المؤمنين.. كان فولتير يقول:

«أيها المخلوقات التعسة... هلموا، تأملوا هذه الأطلال المروعة. أولئك النساء، أولئك الأطفال المكتلين فوق بعضهم بعضاً.. أي جرم، أي ذنب قد ارتكبوه. يجب أن نعترف بأن الشر في الأرض يسود. وما نعرف قط مبدأه الخفي المكنون أترى مصدر الشر خالق كل الخير؟ عندما يطفح كيل شروري بالردي فيالها من سلوة أن يلتهمني الدود!

هذا التشاؤم السافر، وخاصة من جانب رجل يرفل في بحبوحة العيش والمجد[1]، هذا الشعر الملحد، المدسوس

---

(١) في ذاك الوقت كان فولتير يملك، فوق إيراد سنوي قدره مائة وثلاثون ألفاً من الجنيهات، مقراً للشتاء في مونريون، ومقراً للصيف في=

في ثناياه شكوك في طيبة الله، وعنايته بل حتى وجوده، كل ذلك أثار استنكار روسو:

«بهتت لرؤية هذا الرجل التعس المغمور بالمجد والعز، يشكو مع ذلك مر الشكوى من شرور هذه الحياة، ويجد دائماً أن كل شيء في أسوأ حال قواتتني فكرة حمقاء هي أن أرجعه عن غيه، أن أثبت له أن كل شيء في خير حال. إن فولتير، إن تظاهر على الدوام بالإيمان بالله، لم يعتقد قط في الواقع إلا بالشيطان، ما دام إلهه المزعوم ليس إلا كائناً شريراً لا يجد متعة إلا في الأذى، إن سخف هذه النظرية أوضح من النهار وهي على الأخص مثيرة من رجل تغمره كل صنوف النعم، رجل يعيش في وسط السعادة، ويسعى إلى إثارة اليأس في أقرانه بالصورة المروعة والقاسية لكل المصائب التي أعفي منها..»[1].

إذ ذاك عن لروسو الفقير، العاجز، المريض، أن يكتب لفولتير رسالة مسهبة، يدافع فيها عن العناية الإلهية، ويثبت أن الطبيعة بريئة من وزر جميع الشرور التي يشكوها الناس، وأن

= لوزان واسعاً ذا خمس عشر نافذة في الواجهة تطل على البحيرة وجبال الألب.

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٢٤.

مصدرها سوء استعمال الإنسان لمقدراته. وهذه الرسالة مؤرخة ١٨ أغسطس ١٧٥٦، ومعروفة باسم «الرسالة عن العناية الإلهية وهي تتضمن الكثير من العناصر الرئيسية «لإقرار الإيمان». ونظراً لما في الرسالة من قوة وجمال وإيمان فإننا نورد بعض فقراتها:

لست أستطيع، يا سيدي، أن أملك نفسي من أن ألاحظ بهذه المناسبة تعارضاً غريباً بيني وبينكم في موضوع هذه الرسالة. لقد شبعت من المجد، وسئمت المعالي الباطلة، فعشت حراً وسط البحبوحة، ووثقت كل الثقة بالخلود، فتفلسفت هادئاً في طبيعة الروح، وأن تألم منك الجسد أو القلب، فلديك «ترونشان» كطبيب وصديق: ومع ذلك فلست ترى إلا شراً على الأرض. وأنا، الرجل المغمور، المعدم المضني بداء عضال، أتأمل مستمتعاً في عزلتي، وأجد أن كل شيء في خير حال. ترى ما مأتى هذه التناقضات الظاهرية؟ لقد شرحت ذلك بنفسك: فأنت تستمتع، أما أنا فآمل، والأمل يجمل كل شيء»[1].

---

(١) يلاحظ كبار النقاد بمناسبة هذه الفقرة أن في روسو اثنتين ليستا في فولتير: الحساسية إزاء مفاتن الطبيعة، والخيال الذي يجمل كل=

ويستطرد روسو:

«يقول لي بوب ولينميتز، أيها الرجل، تجمل بالصبر، فإن شرورك نتيجة لازمة لطبيعتك، ولتكوين هذا الكون. إنَّ الكائن الأزلي المحسن الذي يهيمن عليه أراد لو يجنبك هذه الشرور: فمن بين كل ما يمكن من أنظمة اختار النظام الذي يتحد فيه من الشر أقله ومن الخير أكثره. . فماذا يقول لي شعرك؟ (تعذب إلى الأبد، أيها التعس، لو أن ثمة إلهاً قد خلقك، فما من شك أنه قادر على كل شيء، وقد كان في وسعه أن يجنبك كل شرورك: إذن لا ترجو أبداً أنها تنتهي . .) لست أدري ما قد تتضمنه مثل نظريتك هذه من سلوة تفوق ما يتضمنه التفاؤل، أما عندي، فأعترف أنها تبدو لي أقسى من المانوية . . .[1] إنّ أغلب شرورنا البدنية هي من صنعنا. ولنعترف مثلاً، دون أن نخرج عن

= شيء. ومن أجل ذلك، فإن فولتير رغم أشعاره ليس هو الشاعر الحق.

(ارجع إلى لويس ديكرو، جان جاك روسو، الفصل الرابع، باريس ١٩١٨).

(١) المانوية: المجوسية، وتقوم على مبدأين الخير والشر كأصل للخليقة. فهي لكي تفسر وجود الشر والخير تقول بوجود مبدأين للخليقة أحدهما الخير والروح والنور، والثاني الشر والمادة والظلام.

موضوع لشبونة، أن الطبيعة لم تجمع هنالك العشرين ألف بيت المكونة من ستة طوابق إلى سبعة، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبيرة أعدل توزيعاً، وأقل اكتظاظاً، لكانت البلية أخف وطأة، وربما لم تكن شيئاً مذكوراً. كم من تعساء هلكوا في هذه الكارثة لأن هذا يريد أن يأخذ ملابسه، وذاك أوراقه، والآخر نقوده. إن الحياة البشرية مهما بلغت الشرور المبذورة فيها، هي بحسب سير الأمور الطبيعي ليست بالهدية السيئة، وإذا لم يكن الموت شراً دائماً، فإن الحياة يندر أن تكون شراً. إن اختلاف طبيعتينا في التفكير في كل هذه المسائل تعرفني لماذا لا يقتعني الكثير من براهينك، لأني لست أجهل كم يسهل على العقل البشري أن يتخذ قالب آرائنا أكثر مما يتخذ قالب الحقيقة، وأنه حين يختلف رجلان في الرأي فإن ما يعتقده أحدهما ثابتاً، كثيراً ما لا يكون في نظر الثاني الامحض سفسطة.. وأخيراً، هاك الحجة التي كان لا بد أن ينزعج لها فولتير: كل هذه المسائل المختلفة تتعلق بوجود الله. إن كان الله موجوداً فهو كامل، وإن كان كاملاً، فهو حكيم، قادر، وعادل، وإن كان حكيماً وقادراً، فكل شيء في خير حال، وإن كان

عـادلاً وقادراً، فـإن روحي خالـدة، وإن كانت روحي خالدة، فإن ثلاثين عاماً من حيـاتي ليست لي بالشيء الذي يذكر، ولعلها أن تكون لازمة لحفظ الكون. . . »

وجد فولتير نفسه مكتوف اليدين أمام هذه الحجة، إلا إذا أنكر المقول الأول، ولم يكن في صـالحه أن يفعـل ذلك في رسالة سوف تدور في كل أقطار باريس.

تردد روسو في إرسال الرسالة رأسـاً إلى فولتيـر إذ كيف يجـرؤ، ولم يكتب سوى بحثين بسيـطين، على مناقشـة أكبـر كتاب العصر؟ كانت خطوة قد تفسر بأنها وقاحة كبـرى. فرأى أن يستعين بوساطة الدكتور ترونشـان طبيب فولتيـر: فإذا قـدر ترونشان أن الرسالة لن تصادف قبـولاً عند فـولتير، أو أنـه لن يتحمل ما فيها من صراحة، فليرد الرسالة دون أن يطلعه عليها.

ومع ذلك فالحق أن روسو كا يريد أن يستدرج فولتير إلى مناقشة فلسفية لا بد أن يكون لها دوي كبير، وقد أثار المعركة بجسارة معتمداً على بلاغته ومنطقه المعدوم النظير.

سلم ترونشان الـرسالـة إلى فولتيـر: إلا أن هذا الأخيـر أحجم عن تلقي القفاز، واكتفى برد بسيط ، زاعماً أنه مريض، ومؤجلاً الرد إلى فرصة أخرى[1].

---

(١) رسالة فولتير إلى روسو المؤرخة ١٢ سبتمبر ١٧٥٦ (مراسلات روسو)

«لا بد أنه أحسن في الحال أنه، في مناقشة خطيرة ودقيقة كتلك التي أشعلها روسو في رسالته، سوف يواجه خصماً شديد المراس، ولم يكن المنطق ميدانه، أو الأحرى سلاحه المفضل، فاستصوب أن يتفادى الهجمة، إلا أنه بعد ذلك بعامين، وقد كان في هذه المرة يحارب في ميدان قد اختاره بنفسه، وبأسلحته الخاصة، وهي كما نعرف السخرية والدعاية الرفيعة، كتب كلنديد: لم يكن روسو مذكوراً فيها، ولكن الرسالة عن العناية الإلهية كانت موضع سخرية مهينة»(١)

قلنا أن روسو كان مشغولاً بإعداد عدة مؤلفات. والمؤلف الذي كان يوليه جل اهتمامه، ويريد أن يخصص له كل حياته هو «الأنظمة السياسية»، التي نعرف أن «العقد الاجتماعي» جزء منها. وكانت قد راودته الفكرة الأولى منذ نحو ١٤ عاماً، في البندقية، حيث لاحظ عيوب حكومة تلك الجمهورية. ولما أمعن التفكير في هذا الموضوع اعتقد أنه قد وصل إلى حقائق عظيمة مفيدة للجنس البشري. بيد أنه رغم اشتغاله خمسة

= المجلد الثاني، رقم ٢٠٣).

(١) لويس ديكرو، جان جاك روسو، باريس ١٩١٨.

أعوام أو ستة لم يتقدم كثيراً في تأليفه هذا.

وثمة مشروع من النوع نفسه كان يشغله في ذاك الوقت، هو تلخيص مؤلفاته الأب سان بيير، صاحب «مشروع للسلام الدائم» وكان الأب قد جعل تأليفه هذا في عشرين جزءاً مليئة بالأفكار القيمة ولكنها صيغت في أسلوب غامض رديء. وطلبت أسرة الأب وأصدقاؤه من روسو أن يلخصها وينقحها ويصوغها بأسلوبه المتين.

والموضوع الثالث الذي كان يفكر فيه هو كتاب فلسفة كان يزمع تسميته «مادية الحكيم» وكان سلسلة من الملاحظات الصالحة لتحديد ضرب من النظام الجثماني والأخلاقي لاستبقاء النفس في حالة تهيؤها للفضيلة. وفي اعتقاد روسو أنه لو استطاع إنجاز هذا الكتاب لكان أفيد كتاب يمكن تقديمه للبشر [1].

وكان فوق ذلك يفكر منذ وقت في نظرية للتربية شرع فيها بناء على طلب مدام دي شونونسو ابنة مدام ديبان. وكان يولي هذا المشروع مزيداً من عنايته لذلك كان المشروع الوحيد الذي استطاع أن يصل به إلى نهايته. وهو يقول إن هذا المشروع كان خليقاً بنصيب أفضل: والحق أنه إن كان «إميل»

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢١٣.

قد بنى مجد روسو وخلده، فقد كان في الوقت نفسه سبب كل متاعبه.

كان إخراج هذه المشروعات جميعاً على نحو طيب يقتضي فراغاً طويلاً ويتطلب حرية مطلقة، ومع ذلك فحالما عادت مدام ديناي إلى الشفريت مع عودة الموسم الجميل، أدرك روسو أنه لم يعد حراً كما كان يظن، وإنما تكفل بقيد ثقيل: هو المداومة على ملازمة مدام ديناي من أجل الصداقة وعرفان الجميل. فلم يعد مسيطراً على وقته. عبثاً كان يقول، «هأنذا في بيتي» لم يكن هذا صحيحاً، فقد كان في بيت مدام ديناي.

وكان هناك أيضاً مدام لوفاسير التي لا مهرب منها، والتي كان مجرد وجودها يضيع فتنة الإيرميتاج. كانت ثرثرتها الدائمة وشكاتها المستمرة تؤلب ابنتها على روسو، وكانت تستدين خفية، بل كان لها محادثات سرية مع ديدرو وجريم بقصد فصم العلاقات بين تيريز وروسو.

يقول:

«لو كنت أنفذ بصراً، لرأيت منذئذ أني كنت أربي في صدري أفعواناً بيد أن ثقتي العمياء بلغ من مقدارها

أني لم أكن أتصور أنه يمكن لامرىء أن يضمر الشر لمن يجب أن يحبه»[1].

غرامه الأكبر :

مدام دوديتو :

إن غراماً متأخراً، خارقاً، عنيفاً، قد أضاع بقية رشده.

ففي وسط التأملات الحزينة التي ألقاه في غمارها موقفه عندئذ، كان يشعر بالحاجة إلى الحب تلتهمه، وتفري مهجته. يقول «إن الظمأ إلى الحب لا يخمد أبداً في قلب الرجل». وكان يخيل إليه أن القدر مدين له بشيء لم يعطه إياه. عبثاً كان يستعيد ذكريات الحب في مخيلته. كانت تبدو له هزيلة شاحبة: فما كان قد تذوق بعد متعة كاملة من تلك التي يتحرق إليها قلبه. هل يدع أيامه تجري ذون أن يتمتع بتلك اللذة المسكرة التي تختلج في حنايا نفسه؟.

«كيف يتأتى أني ـ وقد أوتيت نفساً جياشة بطبيعتها، الحياة عندها هي الحب ـ لم أجد للآن صديقاً وفياً لي، صديقاً صدوقاً، أنا الذي استشعر أني خلقت لأكون صديقاً؟ كيف يتأتى أني ـ وقد أوتيت حواساً

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢١٩.

سريعة الالتهاب، وقلباً مفطوراً على الحب ـ لم أحترق على الأقل مرة بلهيبه من أجل حبيب معين؟ كانت الحاجة إلى الحب تأكلني أكلًا، دون أن أستطيع أبداً أن أشبعها بما يرضيني وكنت أرى نفسي أبلغ أعتاب الشيخوخة، وأموت دون أن أذوق طعم الحياة»[1].

كان روسو مستغرقاً في هذه التأملات حينما زارته مدام دوديتو، ملقية بنفسها في حياته بطيش وحماقة.

كانت تلك الزيارة أشبه ببداية رواية غرامية: كانت تحمل لروسو أخباراً عن عشيقها سان لامبير، وضلت الطريق، إذا أوحلت مركبتها في الطين، فعولت على أن تقطع بقية المرحلة على قدميها، وفقدت حذاءها الصغير في الوحل فاستعارت حذاء من أحد أتباعها، وأخيراً بلغت الإيرميتاج، تشق الفضاء بضحكاتها المرحة الرعناء التي اختلطت بضحكات روسو. . .

واقتضى الأمر أن تغير ملابسها، وأمدتها تيريز بملابس من عندها، وأعد لها روسو وجبة ريفية. وكان الوقت متأخراً، فلم تمكث طويلاً، بيد أن الزيارة كانت مرحة جداً حتى أنها

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٢٢.

ارتاحت لها ولاح عليها الرغبة في تكرارها. ومع ذلك فإنها لم تنفذ رغبتها إلا في السنة التالية (ربيع ١٧٥٧).

وفي الغداة أعادت الملابس التي استعارتها من تيريز، وأرفقت بها قصاصة تفيض ظرفاً:

«إني جد آسفة على أني لم أرك إلا قليلاً من الوقت. ابق في غايتك ما دام هذا يروقك، ولكن اسمح لنا أن نشكو من أنها تروقك إلى هذا الحد. ولو كنت أتمتع بحرية أكثر لكانت شكواي أقل»[١].

كانت مدام دوديتو (صوفي بلجارد في الأصل) أخت زوج مدام داپناي. تزوجت في عام ١٧٤٨ الكونت دوديتو، الجنرال بجيش الملك. ولم يكن زوجها يهواها، وكان يتركها تذبل في أملاكه بنورماندي. لذلك وهبت قلبها للمركيز سان لامبير، الذي كان ضابطاً بجيش الملك ستانسلاس ثم التحق بخدمة ملك فرنسا. ويرجع تاريخ هذه الصلة إلى ١٧٥٤: وكان الناس جميعاً يعرفون أمرها، ويعترفون بها، حسب أفكار ذلك العهد وأخلاقه المتسمحة. وكان هذا الضرب من العلاقة محترماً، ما دام قائماً على وفاء وعاطفة صادقة على نزوة أو بدوة طارئة. وكان غرام مدام دوديتو والمركيز سان لامبير عنيفاً

(١) مراسلات روسو، المجلد الثاني رقم ٣٠٤.

صادقاً، وكان زوجها، وقد علم بهذه العلاقة، يقول: ليس لي الحق أن أتطلب منها إلا الاحتشام في سلوكها»[1].

لم تكن جميلة بيد أنها لم تكن دميمة. كانت حية السيماء صغيرة القوام. وكان شعرها المتوج بطبيعته ينسدل حتى مأبضها. وكان يشوب كل حركاتها خفة آسرة وسذاجة ساحرة. كانت مرحة، بريئة، ذات روح رقيقة ملائكية، وقلب مغلق دون الحقد والكراهية. وكانت لا تستطيع أن تخفي أفكارها ومشارعها وتفرط في الثقة لدرجة الحماقة، وتقع في غفلات غريبة وحماقات مضحكة. وكانت تبدو في غاية الاغتباط عندما يرحل زوجها، وفي غاية القنوط عندما يفارقها عشيقها سان لامبير.

عرفها روسو في شونونسو قبل زواجها، ولم يولها كثيراً من اهتمامه لا سيما وأنها كانت لا تزال فتاة صغيرة. ثم عاد فقابلها في الشيفريت حوالي عام ١٧٥٥، وكانت دائماً ظريفة معه، وتحب أن تتنزه بصحبته، فقد كان كلاهما مغرماً بالسير. تقول الاعترافات: كنا نقوم بنزهات طويلة في بقعة ساحرة.

لم تعد مدام دوديتو ـ بعد زيارتها الأولى ـ إلا في ربيع ١٧٥٧. وفي تلك الفترة أتيح لروسو الكفاية من الوقت

(١) إميل فاجيه، صديقات روسو، الفصل الثامن مدام دوديتو.

ليستغرق في أحلامه: لكي يخدع قلبه المتحرق إلى الحب، تصور جوليا دي تانج وصديقها كلير، بطلتي «هلويز الجديدة التي كان قد أنجز نصفها تقريباً.

غاب زوج مدام دوديتو وعشيقها المركيز، وكانا في الجيش، فاستأجرت منزلاً جميلاً في أوبون وسط وادي مونمورانسي. ومن هنا كانت زيارتها الثانية للإيرمتياج. وفي هذه المرة أقبلت على صهوة جواد، مرتدية زي الرجال:

«مع أني لست أحب هذا النوع من التمسخر، فقد أخذت بمظهرها الروائي، وفي هذه المرة كان الحب...»[1].

وهام بها هياماً عنيفاً، أحبها بالجنون الذي يوحي به شعور المرء بأنه على أعتاب الشيخوخة:

أفلم يبلغ الخامسة والأربعين؟ والمرء يتشبث بالحب في الخامسة والأربعين تشبثه بالحياة في السبعين. أضف إلى ذلك أمتلاء رأسه بصورة جوليا المثالية، التي رآها متمثلة في مدام دوديتو «محلاة بكل الكمالات، التي زين بها معبود قلبه».

وفضفضت له مدام دوديتو بمكنون قلبها، وحدثته عن

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع ص ٢٢٩.

هيامها بسان لامبير الأمر الذي أضاع البقية الباقية من صوابه:

«أيا قوة الحب، يا لعدواك، إن استماعي لها، وشعوري بوجودي بقربها أثارا في أوصالي رجفة عذبة، لم أشعر بها بالقرب من غيرها. كانت تتحدث وكنت أحس نفسي تنفعل وتتأثر، كنت أظن أني لست إلا مهتماً بمشاعرها في حين كانت تسري في مثلها، كنت أجرع القدح المسموم حتى الثمالة، ولم أكن أحس ساعتها إلا عذوبته. وأخيراً على غير وعي مني، وعلى غير وعي منها أوحت لي نحوها بكل ما أبدته نحو عشيقها. وأحر قلباه! كان هذا احتراقاً أليماً بعاطفة لا يقل اضطرامها عن شؤمها، نحو امرأة كان قلبها ممتلئاً بحب آخر»[1].

كان روسو يقر برعونته. أيمكن لرجل في مثل سنه أن يحترق بنار مثل هذا الهوى الشاذ الخطر نحو امرأة تتنهد من أجل آخر؟ أتليق هذه العاطفة بالفيلسوف الخطير الشأن الذي أتم من قريب الرسالة عن العناية الإلهية، والذي يدخر في ذهنه إميل والعقد الاجتماعي؟ أكانت تراوده بارقة من الأمل في أن يغري الكونتيسة الهائمة بسان لامبير بظروفه، ومظهره،

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٣١.

وبزته؟ . . بالعكس فقد كان يعترف بأنه ليس فارساً شديد الخطر، وبأنه لا يخالجه أمل في أن يروق الكونتيسة. والشيء الغريب حقاً، أن هذا الاعتبار الأخير لم يخمد أوار حبه وإنما أشعله، وهاك ما قاله:

«أي وخز ضمير كان يمكن أن يخالجني على حماقة لا تضر أحداً غيري؟ أنا إذن فارس شاب يخشى منه على مدام دوديتو؟ . . . إيه يا جان جاك التعس، أحبب كما تشاء، مطمئن الضمير، ولا تخشى أن تضر زفراتك سان لامبير. . .»[1].

وفي الزيارة الثالثة، بعد أن مكث معقود اللسان، مرتجف الأوصال، دون أن يفتح فمه، أو يرفع عينيه، قرر أن يعترف بهواه. وهو القائل «إن الحب الذي تعلم به موحيته تخف وطأته» وكانت مدام دوديتو تصغي لشكاته، وتشفق على حالته وترثي لحماقته بيد أنها لم ترو غلته، وإنما حاولت أن تبرئه من علته.

ومنذئذ كثرت مقابلاتهما، وواظبت مدام دويتو على زيارتها له، وقاما معاً بنزهات طويلة. وكان روسو غير راض عن

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٣١.

نفسه لأنه أحب وأعلن حبه، فكان يلح في طلب براهين تثبت أن الكونتسة لم تكن تسخر به: فلم تأب عليه شيئاً يمكن لأرق صداقة أن تمنحه. فكان يراها كل يوم تقريباً، سواء في الايمتياج أو في أوبون. وكان يبقى للمبيت لديها أحياناً، بل لقد مكث لديها في إحدى زياراته أياماً.

وذات مساء، تناولا العشاء على انفراد، ثم ذهبا يتنزهان في البستان في ضوء القمر الفضي الخلاب، ووصلا إلى خميلة فيحاء، يعلوها منحدر ماء. كانت ليلة لا تمحى ذكراها، وتركته الكونتسة يبثها حبه ويطارحها شجوه، وكان هو نفسه مغرياً، طلق اللسان، منشرح الوجدان:

«أيتها الذكرى الخالدة للبراءة والمتعة! كان في هذه الخميلة، وقد جلست معها على ربوة معشوشبة، تظلها شجرة طلح مزهرة يانعة، إني وجدت ـ لكي أعبر عن خوالج قلبي ـ لهجة تليق بها حقاً. كانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة في حياتي، كنت رائعاً سامياً، إذا أمكن أن يطلق هذا على كل ما يمكن أن يضيئه على قلب بشر أرق حب وأعنفه من ظرف وإغراء. كم من عبرات مسكرة ذرفتها على قدميها! كم حملتها على ذرف عبراتها على الرغم منها! وأخيراً، في هيمان غير إرادي، صاحت كلا، أبداً ما بلغ بشر

هذا المبلغ من الظرف، وأبـداً ما أحب عـاشق مثلما تحب! بيد أن صديقك سان لامبير يسمعنا، وقلبي لا يستطيع أن يحب مـرتين. . فلذت بالصمت متنهـداً، وأشبعتهـا عنـاقـاً. . وأي عنـاق لكن كـان هـذا كـل شيء. . . »[1].

ويـروحان من العنـاق في غمرة، وتتملكهـا النشوة. . . ولكن تمر على الطريق المجاور عربة، ويتوعد السائق الحصان ويصيح : «هيا، تحـرك!» كـانت الـواقعـة مضحكـة فيهـا من السخرية ما حدا بالكونتسة النشوى إلى أن تنطلق من ذراعيه في قهقهـة عاليـة، منقذة نفسهـا من اللحظة المغـريـة، في حين تملكت روسو رعدة الغيظ، ولم يحصل إلا على قبلته. . .

وازداد إلحافاً: كان بالقرب من صوفيا ينسى نفسه تماماً. ولم يكن يهمه أن يكون محتقراً، وللصداقة خائناً، فكل همـه أن يكـون سعيداً. بيـد أنه كـان يذوي ويـذبل: على الأخص بسبب تلك الحـوادث المؤسفة التي كـانت تقع لـه على طول الطريق الذي يوصل من الارمتيـاج حيث يقيم إلى أبون حيث تقيم، وبسبب ما يصيب قلبه دائماً كلما اقترب من عشيقته من اضـطراب وخفقان ووجيب، بعـد أن يحلم طول الـطريق بما

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٢٣٣ .

سيلاقيه عندها من استقبال حبيب، وود وترحيب، وقبلات ذات لهيب، .

«تلك القبلة المشؤومة، حتى قبل أن أتلقاها، كانت تلهب دمي حتى يدور رأسي، وتصطك ركبتاي، ويعتري كياني كله اختلال يجل عن التصوير. . . كنت أصل إلى أوبون ضعيفاً، مضنى، لا أكاد أستطيع الاعتماد على قدمي»[1].

ولكي تهدىء مدام دوديتو من ثائرة روسو، ولكي تثبت له صدق عاطفتها لم تكن تتردد من جهتها من منحه مآثر نفيسة وإمارات حنان، كانت تحطم العاشق الولهان. والواقع أنها انتهت إلى الإقرار بهذه العاطفة: فقد كانت تعيش بغير عاشق منذ ستة شهور، وكانت في ربيعها السابع والعشرين، وكانت منذ ثلاثة شهور قد استنامت لإغراء أبلغ الأقوال المعسولة لأصدق العشاق. ومع ذلك فإنها لم تسمح لنفسها قط أن تذهب في الاستسلام إلى مداه البعيد، ولكنها كثيراً ما كانت على شفا التسليم.

وأخيراً أدركت مبلغ حماقتها، فأظهرت لروسو شيئاً من الصد والفتور مزمعة أن تستبقيه بقربها لكن على مدى معقول.

---

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٢٣٣

وهنا جعل روسو يشكو إليها حاله في رسائل تكاد تنفث اللهب.

«تعالي، أي صوفيا، تعالي أحزن قلبك الجائر، ولأكن بدوري قاسياً مثلك. لماذا تدخرينني في حين تسلبينني عقلي، وشرفي، وحياتي؟ كم كنت تكونين أقل قسوة لو أنك أغمدت خنجراً في قلبي بدلاً من تلك البدوة المشؤومة التي توردني حتفي! أنظري ماذا كنت وإلام صرت: أنظري إلى أي درج رفعتني، وإلى أي درك خسفتني، عندما كنت تتنازلين بالإصغاء إلى كنت أكثر من بشر، ومنذ ما صددتني أصبحت أحط مخلوق، فقدت صوابي، وذهني، وشجاعتي، بكلمة واحدة سلبتني كل شيء كيف يمكنك أن تقرري تدمير ذات صنعك على هذا النحو؟... ألست ملك يمينك؟ ألا تستحوذين عليَّ ؟...».

وتمضي الرسالة الملتهبة على هذا المنوال، في صفحات طوال، مصوغة من نار.

وسرعان ما ذاعت هذه العلاقة ولم تعد سراً على البيئة. لقد استبدت الغيرة بتيريز، إذ رأته عابس الوجه مقطب الجبين، وسمعته يحدث نفسه في الليل ويذرف الدمع السخين، فدقت ناقوس الخطر. وعلى كل حال، لم يحاول العاشقان كتمان

عـاطفتهما، ولم يتخـذا أي تحوط ويلتـزما الحـذر، بل كـانا يعلنان حبهما كـأنه أمـر طبيعي لا غرابـة فيه: فمـدام دوديتو، الصـريحـة، المشتتـة الفكـر، الـرعنـاء، وروســو الصـادق، الأخرق، الفخور، المنفعل، كانا يتنزهان في مغاني الشفريت في هدوء، ويتحدثان عن غرامهما ويتناجيان تحت نوافذ مدام داينـاي وعيونها الغيرى الحسود. ولم يلاحظا أن حبهما أصبح في الدار مدار الحـديث، حتى لقد أقبـل البارون دوليـاك إلى الشفريت لأول مرة بغية أن يستمتع بالمشهد.

وأخيراً، تلقى سان لامبير رسالة غفلا من التـوقيع تنبئـه بالأمر، ونبهت مدام دوديتو روسو إلى أنـه يجمـل بـه أن يفض علاقته بها نهائياً، أو على الأقل أن يكون مجرد صديق.

واستقر في روع روسو أن مدام داينـاي قد خانتـه. وكان لديه أسبـاب قويـة تدعـوه إلى الاشتباه في أمـرها. ولم يخف غضبه وامتعاضه عن صاحبة قصر الشفريت وكتب إليها رسـالة ضمنهـا أنه لا يثق فيهـا البتة. وأنـه لن يغفر لهـا هذه الـوقيعة وتختم هذه الرسالة المشهورة على النحو التالي:

«لن يطول بي الوقت حتى أعرف ما إذا كنت مخطئاً. حينئذ ربما أكون ارتكبت أخطاء فاحشة يتعين عليَّ أن أصلحها. لكن هل تعرفين كيف سأكفر عن أخطائي؟

بأن أفعل ما لن يفعله أحد غيري: بأن أقول لك في صراحة ما يراه الناس في شأنك، وما يتعين عليك أن تسدي من ثلم أصابت سمعتك. . .»[1].

وردت مدام داينالي على هذه الإهانات بسماحة. بادىء ذي بدء استبد بها العجب، وهالها الأمر، وتظاهرت أنها لم تفهم شيئاً. ثم احتجت على النقيصة النكراء التي رماها بها روسو:

«أنا؟ أنا أستعمل المكائد والدسائس معك؟ أنا أتهم بأشنع النقائص؟! وداعاً. . ».

بيد أنها كانت حنوناً أكثر منها حقوداً، وكانت تعرف قلب روسو، وحبه إياها ولذا فهي تصفح عنه: «لتحضر متى شئت، وسوف تجد من الحفاوة ما لا تستأهله ظنونك. . »

ولقد أسف روسو للإهانات البالغة التي وجهها إلى صديقته. وكان رد مدام داينالي السمح، ورجاء مدام دوديتو إياه ألا يثير فضيحة قد تعصف بسمعتها مما حفزه إلى أن يقرر زيارة سيدة القصر. وكان على استعداد لأن ينسحب من فوره أن لم يجد حفاوة وترحيباً به. لكنه لم يكد يلج القصر حتى هبت مدام داينالي وتعلقت بعنقه وسحت دموعها سحاً. وكان لهذه

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٢٣٤.

المقابلة غير المنتظرة أعمق الأثر في نفسه. فجاشت عاطفته وإنهالت عبراته. وتناولا الطعام، وجرت الأمور كأنما لم يحدث شيء على الإطلاق: لقد نسيت المشاجرة ولكنها سوف تتجدد فيما بعد.

ولنعد إلى سان لامبير:

منذ ما عاد الجيش (في يوليو ١٧٥٧) عاقب روسو عقاباً ينطوي على مكر قد طفق يعامله كمنافس غير ذي خطر. لقد عامله بقسوة لكن بمودة، وأدرك روسو أنه فقد شيئاً من اعتباره عنده. ومع ذلك فقد زار الإيرمتياج بصحبة مدام دوديتو، وتناولا العشاء لدى روسو، وجعلا يتعاتبان ويتباهيان بسعادتهما أمام أنظار العاشق الملتاع القانط. ويزعم روسو أن فكرة معاملة سان لامبير كمنافس لم ترد على خاطره قط، وأنه لم يرتكب في حقه أي خطأ، ما دام هو الذي أرسل إليه عشيقته، وأنه إذا كان هناك خطأ ما، فقد كان يعزي نفسه عنه برؤيته مدام دوديتو سعيدة مع سان لامبير. وأنهما اللذان سببا الشر، وهو وحده الذي كان فريسة للعذاب.

ومع ذلك فإن السهم الذي رشق في قلب روسو لم ينتزع. فإن هواه المجنون ازداد اضطراماً. بيد أن مدام دوديتو كانت قد أقسمت أن تكف عن حماقتها الرعناء. وجعلت تلاقي

عاشقها المستهام الموتور بفتور، وسألته أن يعيد إليها رسائلها. فأعادها إليها روسو بأمانة وإخلاص، لكن بقلب ملتاع.

وعقد روسو العزم على أن يقهر نفسه، وأن يبذل كل جهد ليحول عاطفته الجنونية إلى صداقة خالصة باقية، وكان تنفيذ هذا العزم يقتضي معاونة مدام دوديتو، وكان فتورها الفجائي والألم الذي عاناه روسو من جرائه مما دفعه إلى اتخاذ خطوة غريبة هي أن يكتب إلى عشيقها سان لامبير شاكياً ومستجيراً!

ومن الواجب التنويه في هذا المقام بأن سان لامبير قد ظل دائماً أنبل أصدقاء روسو وأوفاهم. أنظر كيف رد في نبل على شكواه:

«لا تتهم صديقتنا بالخفة ولا بالفتور. . . أنا وحدي الذي يجب أن أسأل عن مسلكها، إن قلبها لم يتحول عنك، فهي تحبك، وهي تحترمك وأنا الذي حرصت على أن أصل ما بينكما، وليس هذا بكل تأكيد ما ألوم نفسي عليه، فإن في قلبي رغبة دائمة في أن أوفق وأن أجمع شمل من أحب ومن أقدر أعظم التقدير. . . فلا تظن يا صديقي العزيز، أني أخادعك، أو أغرر بك، أو أخونك. . لقد سببت تعاسة ثلاثة. . . فأنا الوحيد

الذي لا يزال يعاني الألم، لأني الوحيد الذي يمكن أن يخالجه الندم. . . إني أود أن أرفع ما أنزلته بك من ظلم. وما كف كلانا عن أن يقدرك وعن أن يحبك، فلتصفح عنا، ولتحبنا. نحن خليقان بقلبك، وسوف ترضى عن قلبينا. . .»

وأصبح الطقس رديئاً، وبدأ الناس يغادرون الريف، ويعودون إلى باريس وأنبأت مدام دوديتو روسو بأنها أزمعت الرحيل، وحددت له موعداً في أوبون. وكان روسو يحمل رسالة سان لامبير في جيبه. فطالعها عدة مرات أثناء سيره. كان له فيها سلوة، وكانت له درعاً ضد ضعفه، وكان قد عقد العزم على ألا يرى في مدام دوديتو سوى مجرد صديقه. ونفذ عزمه: أنفق معها أربع ساعات أو خمس في هدوء لذيذ مستحب.

«كانت واعية بالجهود التي أبذلها كي أقهر نفسي، فازداد تقديرها لي وسرني أن أرى صداقتها لم تنطفىء جذوتها. . ورسمنا مشروعاً فاتنا لمجتمع ضيق يتكون من ثلاثتنا. .»

وعند الرحيل عانقته الكونتيسة أمام أتباعها. ويقول روسو «كانت هذه القبلة، المختلفة كل الاختلاف عن القبلات التي كنت أختلسها منها في ظل الشجيرات المورقة، برهاناً على

أني استعدت سلطاني على نفسي».

ولم يعد إلى رؤية مدام دوديتو إلا مرة واحدة، أمام الملأ، وكغريب لا كصديق.

وقد دامت غراميات روسو ومدام دوديتو خمسة أشهر، وطالت صداقتهما سبعة أشهر أخرى. وفي هذه الحقبة من الزمان نشأت بينهما مراسلة حية وعاطفية، دامت إلى عام ١٧٥٨، التاريخ الذي عينت فيه مدام دوديتو القطيعة الحاسمة النهائية:

«لي أن أشكو من عدم رصانتك وعدم رصانة أصدقائك. لقد كنت لأصون طيلة عمري سر عاطفتك التعسة نحوي.. لكنك بحت بها لقوم أذاعوا أمرها.. منذ ما اشتهر بين الناس أنك تعشقني لم يعد يليق بي أن أراك على انفراد... ولتكن على يقين من أني لن أكف قط عن الاهتمام بأمرك... وداعاً»[1].

---

(١) رسالة من مدام دوديتو إلى روسو مؤرخة ٦ مايو ١٧٥٨، المراسلات، الجزء الثالث رقم ٤٩٤. وعن قصة هذين العاشقين الشهيرين يجد القارىء ما يرغب فيه من تفاصيل في مؤلف إميل فاجيه: صديقات روسو، مدام دوديتو.

قطيعة روسو مع أصدقائه، مدام ديناي وديدرو وجريم:

كـانت إقـامـة روسـو في الارمتيـاج حـافلة بـالحـوادث وبـالعواصف، فقـد قطع صلة بجميـع أصدقـائه، وكـان يكن لاثنين منهما، هما ديدرو وجريم معزة خاصـة. وهذان، كمـا رأينا، كانا ضد إقامته في الإرمتياج. ولعلهما كانا مخلصين في بادىء الأمر، إذ خشيـا مغبة العـزلة عليـه، وأرادا إعادتـه إلى باريس. بيد أنهما أساءا تدبير الأمر: فقد قاما باتصالات سرية نما أمرها إلى روسو، فظن قيام مكيـدة، واستبد بـه الغضب. ولما انكشفت بعد ذلك بقليل علاقته بمـدام دوديتو دبـرا فعلاً مؤامرة ضده، ترمي إلى فصله عنها. وجرحت هذه الفعلة روسو جرحاً بليغاً. وأخيراً جاءت مسألة سفر مدام دايناي إلى جنيف، ورغبتهـا في أن يصحبهـا روسـو. فقـد لعب جـريم في هـذه المسـألة دوراً كـريهاً مـرذولاً، وبدأ ديـدرو في شأنهـا متهوراً وجائراً. ومن هنـا تلك المعركـة المشهورة التي عـرفت باسم «المؤامرة (مدام دايناي ـ جريم ـ ديدرو).

سفر مدام دايناي:

أرادت مدام دايناي أن تسافر إلى جنيف لتعـرض نفسها على الدكتور ترونشان، فجاءت ذات يوم تعرض على روسو أن يصحبهـا في السفر. ورفض روسـو لأن أسبابـاً كثيـرة كـانت

تضطره إلى البقاء في الإرمتياج: عمله، وصحته وعشقه لمدام دوديتو. وكان يعلم أن هذا العرض لا يستهدف إلا إبعاده عنها، فضلاً عن أنه لم يكن يجهل أن مدام داييناي كانت حاملاً وأنها ذاهبة إلى جنيف لتخفي حملها. وأنه بينما سيبقى عشيقها جريم في باريس، سيقوم هو لعشيقته بدور الوصيفة في جنيف. وأخيراً فقد أرادوا أن يجروه إلى جنيف ليعرضوه في وطنه كخادم لواحدة من ذوات الأملاك[1].

وهنا يتدخل ديدرو، ويدعو روسو إلى مرافقة مدام داييناي، في رسالة جانبها التوفيق:

«أي صديقي إن كنت راضياً عن مدام داييناي فيجب أن ترحل معها، وإن كنت غير راض فهذا أدعى إلى المبادرة بالرحيل. إن كنت محملاً بأثقال أفضالها عليك نهاك فرصة للوفاء ببعضها والتخفف من هذا العبء»[2].

ويطالع روسو الرسالة وتتملكه رعدة الغضب. ويشتعل خياله ويلتهب. فمن الجلي أن حلفاً يحاك ضده! إنهم يملون عليه مسلكه! فما كان ديدرو ليستطيع أن يكتب تلك الرسالة

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) راسلة من ديدرو إلى روسو في ١٨ أكتوبر ١٧٥٧، المراسلات، الجزء الثالث، رقم ٤٠٤.

من تلقاء نفسه : إنه يستشف فيها أصبع الغير .

وبعد أن تهدأ سورة غضبه الأولى، يكتب الرد التالي على عجل، ويقصد من فوره إلى «الشفريت» ليطع مدام داييناي عليه:

«أي صديقي العزيز، إنك لا تستطيع أن تعرف قوة ما تدينني به مدام داييناي من أفضال، ولا إلى أي حد تقيدني . . . فلتقر بأن أملاءك على ما يجب أن أفعله بمثل هذا الجزم، دون أن تضع نفسك في موقف يتيح لك تقدير الأمر، لهو يا صديقي الفيلسوف، إبداء حماقة صريحة. وإن ما أراه أنكى من ذلك في الأمر هو أن رأيك ليس صادراً عن ذاتك»[1].

وكان جريم في تلك اللحظة لدى مدام داييناي، وقرأ عليهما روسو بصوت عال رده على خطاب ديدرو، وإذا بهما يشدهان ويطرقان، ولا ينطقان:

«رأيت على الأخص ذلك الرجل المتكبر (جريم) يغض بصره، لا تواتيه الجرأة على تحمل الشرر المنطلق من عيني: بيد أنه في اللحظة نفسها أقسم في

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع ص ٢٥١ .

أعماق قلبه على ضياعي، وإني لواثق أنهما دبرا الأمر قبل أن يفترقا».

والواقع أن جريم قام في هذه المسألة بدور مرذول كريه يتعين شرحه.

جريم الصديق:

معلوم أن هذا الألماني النكرة عندما وصل إلى باريس قدمه روسو في صالون مدام ديناي، كما أن روسو هو الذي عرفه بديدرو وبالبارون دولباك. ولكنه كان أجرأ من روسو، وكان مغرضاً، ووصولياً، ولذا فقد استشف لأول وهلة ما يمكن أن يستفيده من مدام ديناي: فإن امرأة ظريفة، غنية، مهملة من زوجها، وعلى جانب كبير من اللين في الطبع والتساهل في الخلق لهي بمثابة كنز بالقياس إلى مغامر مثله. كان يهدف إلى غرضين: أخذ مكان روسو وإبعاده، وكانت وسيلته إلى ذلك إثارة عاطفة عارمة في نفس مدام ديناي عن طريق التظاهر بأنه يكن لها عاطفة مماثلة. ولكن المجتمع الحميم لتلك السيدة كان يحب روسو ويقدره، فلم يكن بد من القضاء على هذه المشاعر، ولهذا الغرض، لنجاح المؤامرة كان لا بد من ديدرو.

وفي هذه المسألة لا يمكن الفصل بين ديدرو وجريم،

فقد كانا يعملان باتساق وتوافق. بيد أن ديدرو، كما يستفاد من جميع التقارير، كان موقفه أكرم من موقف الآخر، فيما عدا أنه كان غراً أبله، ولم يكن سوى أداة في يد جريم.

وإذ أصبح جريم عشيقاً لمدام داينـاي، بدأ يتكبر على روسو:

«ما كاد جريم يصل إلى الشفريت، حيث لم تكن الإقامة تروقني كثيراً، حتى نجح في جعل إقامتي لا تطاق، بمظاهر لم أرها قط في إنسان. . ففي غداة وصوله نقلت من غرفة الحظوة التي كنت أحتلها، والمتصلة بغرفة مدام دايناي وأعدت لجريم. وكان لا يكاد يتنازل بأن يقرئني السلام. كنت أجد مشقة في التعرف فيه على الدعيّ الجلف، الذي كان يشرفه أن يقع نظري عليه لدى أمير ساكس ـ جونا. . »(١).

وكان روسو قد تلقى تحذيراً من أصدقائه ـ المسيو دي فرانكيي، مدام دي شينونسو، وديدرو ذاته في بادىء الأمر، بأن هذا الرجل الذي يضع فيه ثقته يتلاعب بعاطفته، ولا يضمر له حباً، وبأنه ليس صديقه، فقرر أن يقطع علاقته به وصرح بنيته لمدام داينـاي. بيد أنها قاومت عزمه هذا بشدة ولامته

---

(١) الاعتـرافات ـ الكتاب الرابع ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

عليه، وهدأت شكوكه وانتهى الأمر إلى اقتناعه، وذهب إلى جريم «ليتعذر له عما بدر منه في حقه من إهانات[1].

وعندما عرضت مدام دايناي على روسو أن يصحبها إلى جنيف، بلغ من حماقته أن يدبج رسالة مسهبة إلى جريم ليستشيره بل يفوضه في الأمر «أعتقد أنك من العدل بحيث تضع نفسك في موقفي، وتقدر واجباتي الحقيقية»[2].

وتأخر جريم عمداً في الرد، وأرسله بعد لأي. ويقول روسو:

«لم يزد رده عن سبعة أسطر أو ثمانية لم أكمل قراءتها، كانت قطيعة، لكن بألفاظ لا يمكن أن يمليها سوى أشد حقد جهنمي أكول. . . ودون أن أنسخه أعدته إليه في الحال»[3].

ومما يؤسف له أن روسو لم يحتفظ بنسخة من تلك الرسالة. ذلك أن جريم عدلها فيما بعد على هواه، ونشرها في مراسلاته وفي مذكرات مدام دايناي وكان الفصل الذي نشره

---

(١) الاعترافات، الكتاب الرابع ص ٢٤٨

(٢) المراسلات، الجزء الثالث، رقم ٤٠٦، رسالة من روسو إلى جريم في ١٩ أكتوبر ١٧٥٧.

(٣) الاعترافات، الكتاب الرابع ص ٢٥٤.

بداهة هو ذلك الذي يتفق وأغراضه»(١).

ولم يقنع جريم بهذه الخيانة، بل جعل رسالة روسو تدور في باريس كلها، مشفوعة بتعليقات على هواه. وكذلك فإن هذا الرجل، بعد أن خدع روسو زمناً طويلاً، خلع قناعه.

وما أن مضت ثمانية أيام على هذه الرسالة حتى تلقى روسو رسالة أخرى من مدام داي‌ناي، التي كانت قد وصلت إلى جنيف ـ وكان جلياً من لهجتها أنها فضت علاقتها بروسو، وأنها تعمل باتفاق مع عشيقها. وقد رد عليها روسو برسالته المشهورة المؤرخة ٢٣ نوفمبر من عام ١٧٥٧.

«إن الصداقة التي تربطنا قد خمدت يا سيدتي، وأي تأويل آخر لا يجدي: وأن لي ضميري، وأحيلك إلى ضميرك»(٢).

وفي الوقت نفسه أعلن روسو نيته على مغادرة «الإرمتياج» وأن طلب السماح له بالبقاء إلى أن يحل الربيع. وفي هذه المرة لم تكن مدام داي‌ناي بالغة الظرف بل ردت في جفاء: «ما دمت تريد مغادرة الإرمتياج، ويجب أن تغادرها،

(١) ارجع إلى الحاشية المتعلقة بتلك الرسالة ضمن مراسلات روسو، الجزء الثالث ص ١٠، وقارن موسيه باشيه ص ٨١.

(٢) المراسلات، الجزء الثالث، رقم ٤٤٠، الاعترافات ص ٢٥٥

فإنه يدهشني أن أصدقاءك قد استبقوك هناك، أما عني فإني لا أستشير أصدقائي في واجباتي، وليس لدي ما أقوله في شأن واجباتك»[1].

وكان هذا طرداً، ولم يشأ روسو أن يدعه يتكرر: فقرر أن يرحل في الحال، ولو اقتضى الأمر أن ينام في الغابات وفوق الثلج الذي كان يغطي أديم الأرض وقتذاك. وعلى ذلك فإنه استقر في مونمورنسى، في وغرة الشتاء، في ١٥ ديسمبر من عام ١٧٥٧، في بيت صغير، قدمه له المسيو ماتاس، مأمور ضرائب الأميركونديه. وفي الوقت نفسه تخلص من الأم ليفاسير وأرسلها إلى باريس، وغداة وصوله كتب رسالة إلى مدام ديناي قال فيها:

«إزاء رفضك الموافقة على أن أنفق في الإرمتياج بقية الشتاء، فقد غادرتها في ١٥ ديسمبر، وكذلك كان نصيبي أن أغادرها كما دخلتها... رغم أنفي».

(١) المراسلات، الجزء الثالث، رقم ٤٤٩، من مدام ديناي إلى روسو، في أول ديسمبر ١٧٥٧.

الفصل الخامس

الرسالة عن المشاهد

ها هو ذا روسو يقيم في «عز» الشتاء مون لوى، في دار المسيو ماتاس، مأمور ضرائب أمير كونديه. ولم يكد يستقر في مقامه الجديد حتى أصيب بنوبة حادة من مرضه استمرت طوال عام ١٧٥٨. وكان ديدرو قد أخطره ـ في إحدى زياراته له في الإرمتياج ـ أن دالامبير كتب مقالاً عن جنيف في الانسيكلوبيديا نادى فيه بإنشاء مسرح في هذه المدينة. وجعل روسو ينتظر بفارغ صبر المجلد الذي يتضمن ذلك المقال، وكان اهتمامه بالموضوع بالغاً نظراً لتعلقه بوطنه. وتلقى المجلد في فبراير ١٧٥٨.

وقد أثار المقال ضجة كبرى في جنيف، كما أثار رد روسو المشهور المعروف باسم «رسالة إلى دالامبير عن رسالته عن المشاهد».

ماذا قال دالامبير :

لم يكد فولتير يستقر في أملاكه في «ديليس» عند

مشارف جنيف حتى بدأ يبني فيها مسرحاً. وكان فولتير ـ كما هو معروف ـ يحب المسرح ويعده متعة سماوية. ولم يكف منذ وصوله عن بذل نشاط خارق ليحول جنيف إلى حب هذا الفن. وقد استقدم من باريس الممثل الكبير «ليكين»، وعرض في داره مسرحيته «زايير» حيث شهدها جمهور غفير من أهل جنيف بينهم لفيف من أعضاء المجلس.

وكان المسرح يعد في هذه الجمهورية الصغيرة الجادة المتزمته مسلاة خطرة على الأخلاق، نظراً لما يخلقه من ميل للتحرر، ولهذا كان محرماً بقانون. ولم يكن فولتير يجهل ذلك، ولكن حبه للمسرح كان طاغياً، وهكذا كان يغبط نفسه على ما أحرز من نجاح بعرضه مسرحيته، وكان يصيح مبتهجاً، الحمد لله كل شيء على ما يرام، فقد أفسدت مجلس جنيف وجمهوريتها! «غير أنه أراد بعد رحيل «ليكين» أن يواصل عرض مسرحياته فصدم بمقاومة شديدة من القساوة ومعارضة تامة من المجلس. وعندئذ أقسم أن ينتقم «سيكون لجنيف مسرحها رغم كالفين!».

وفي العام التالي ـ ١٧٥٦ ـ جاء دالامبير إلى جنيف ليحصل على الوثائق اللازمة لكتابة المقال الذي كلف بكتابته في الانسيكلوبيديا عن جنيف، بوصفه من أعلام العلم والأدب في فرنسا. وكان فولتير على اتصال به ونعتقد أنه استدعاه ليدبر

معه ضربة من ضرباته المشهورة. ومهما يكن من شيء، فإن المقال ظهر في نوفمبر ١٧٥٧ . وصحيح أنه كان مقالاً لدالامبير، ولكن كان من الواضح ـ كما لاحظ روسو ـ أن فولتير لم يكن غريباً عنه!

وقد بدأ دالامبير مقاله بإطراء حماسي لجنيف وثناء على ازدهارها وامتداح لحكومتها وشعبها الذي وصفه بأنه « أكثر ثقافة من أي شعب آخر » . ولكن هناك ظلاً على اللوحة الباهرة . لماذا ترفض جنيف التسمح في شأن المسرح ؟ .

«إنهم يخشون ـ كما يقال ـ ذوق البهرجة واللهو والتحرر الذي تنشره بين الشباب فرق الممثلين. ومع ذلك هل ليس من الممكن علاج هذا الضرر. بقوانين صارمة؟ بهذه الوسيلة يكون لجنيف مسرح وأخلاق. إن مشاهدة التمثيليات تربى ذوق المواطنين، وتزودهم برقة الطبع وعذوبة الشعور مما لا يمكن اكتسابه بغير هذه المعونة».

وظن دالامبير ـ ربما بناء على نصح مستشاره ـ أن من واجبه إضافة فقرة على هذه الملاحظة في شأن المسرح، أثارت كل الضمائر في جنيف، لأنه في معرض الثناء على قساوسة جنيف امتدح روحهم المستنير وأطرى تسامحهم،

وأشاد بعدم اعتقادهم بالعذاب الأبدي ولا بألوهية المسيح :

«إن رجال الاكليروس في جنيف لعلى أخلاق مثالية . . . ومع ذلك فإنه ينقصهم أن يفكروا نفس التفكير في شأن الموضوعات التي ينظر إليها في الخارج كأهم الموضوعات بالنسبة للدين. فبعضهم لم يعد يعتقد بألوهية المسيح التي كان زعيمهم كالفين محاميها الغيور، والتي أحرق من أجلها السيرفيت. «والجحيم، إحدى النقاط الرئيسية في ديننا، لم يعد له هذا الشأن في نظر كثيرين من قساوسة جنيف، فعندهم أنه بمثابة إهانة للأولوهية أن نتخيل أن هذا الكائن الممتلىء طيبة وعدالة ورحمة يستطيع أن يجازي أخطاءنا بعذاب أبدي مقيم» . . وجماع القول أن كثيرين من قساوسة جنيف لا يدينون إلا بسوسنيانية كاملة، مطرّحين كل ما نسميه سراً، ومتصورين أن أول مبدأ في دين حق هو ألا يدعو إلى اعتناق ما يجافي العقل . . .

وثار قساوسة جنيف على اتهامهم بالسوسنانية[1]، ولجأوا

(١) السوسنيانية مذهب ملحد ينكر التثليث ، وألوهية المسيح ، والخطيئة الأصلية ، والعذاب الأبدي ، ويقترب من الديزم المطلق (الاعتراف بالله وإنكار الوحي) والمذهب منسوب إلى مؤسسة فوستوسوزيني .

إلى دالامبير مستنكرين التهمة، ولكنه لم يقدم لهم أية ترضية، وإنما خضع لفولتير الذي قال له: إن هؤلاء الاغنياء يجترئون فيشكون من المديح الذي تنازلت فغمرتهم به. دعهم يحتجون واستخر منهم، ولا تتراجع...[2].

وقد ظن فولتير أنه كسب الموقعة. وكتب إلى دالامبير في سبتمبر ١٧٥٨، يقول: لقد جن الناس بالمسرح في بلد كالفين!

وفي ذلك الوقت بالضبط ظهرت رسالة روسو عن المشاهد: «لقد سقطت كالقنبلة على معسكر الأعداء، فأخرست وشتت الممثلين والهواة. إن فولتير الذي أرغم على نقل مسرحه سواء إلى فيرني، أو إلى توريني التي ضمها إلى أملاكه من وقت قريب أصابه منها غم قاتل. لقد أقسم أن يضمر لجان جاك كراهية طاغية، وكل امرىء يعرف بأية عناية بر بقسمه»[1].

فلنفحص رسالة روسو هذه، وهي إحدى مؤلفاته المشهورة، بل أن بعض المعجبين به يذهبون إلى أنها «أكمل» مؤلفاته.

---

(١) رسالة من فولتير إلى دالامبير ١٢ ديسمبر ١٧٥٧.

(٢) شهادة معاصر، ذكرها موسيه باتيه، ص ١٠٦

تحليل رسالة روسو :

يبدأ روسو رسالته إلى دالامبير بالدفاع عن قساوسة جنيف، فينعي على دالامبير أنه نسب إليهم مذهباً يستنكرونه، ويسأله عن سنده في هذه التهمة أما فيما يتعلق بالسوسنيانية فإن روسو تجنب أن يذكرها محبذاً أو منتقداً، زاعماً أنه لا يدري عنها شيئاً، ولكنه في الواقع تحرّج من الحكم لها أو عليها لأنها تشبه «الدينيوم» الذي بشر به هو نفسه. وبعد ذلك يتناول مسألة المسرح.

الجزء الأول :

إن الغرض الأساسي للمسرح أن يثير الإعجاب[٢]. أن المؤلف الذي يريد النجاح لا بد أن يهدهد الذوق العام وأن يلتزم بأخلاق جمهوره وبالتالي فإن المسرح ليس له التأثير الناجح الذي ينسب إليه، لأنه لا يغير المشاعر والأخلاق، فما هو إلا لوحة للعواطف الإنسانية التي تتغير تبعاً لخصائص الشعوب:

---

(١) قال موليير: أريد أن أعرف ما إذا لم تكن أعظم قاعدة بين كل القواعد هي إثارة الإعجاب (فقد مدرسة النساء، الفصل السابع.
وقال راسين في مقدمة بيرينيس «القاعدة الأساسية أن تعجب وأن تؤثر».

«فشعب عنيف فوار يريد دماً ومعارك ومشاعر وحشية. وشعب شهواني يريد موسيقى ورقصاً. وشعب مرح يريد حباً وأدباً. وشعب جاد عابس يريد مزاحاً ومسخرة».

إن أنصار المسرح لا يقرون أنه مدرسة للأخلاق الكريمة والفضيلة. إن هذا ليكون غريباً، كما يقول روسو. فالمؤلف لا يستطيع أن يوحي للجمهور إلا المشاعر التي تخالج الجمهور فعلاً.

«إن مؤلفاً يعارض الذوق العام سرعان ما يؤلف لنفسه فقط. فلنضع على المسرح الفرنسي رجلاً مستقيماً وفاضلاً لكنه بسيط وغليظ، بلا حب ولا مرح، ولنستنفد كل فن المسرح في جعل هذه الشخصية جذابة: إني لأكون مخطئاً إذا نجحنا.»[1].

ويستتبع ذلك أن الأثر العام للمسرح هو تجسيد وتضخيم الميول الموجود في الجماهير بالفعل، وتزويد العواطف بطاقات جديدة: ففي لندن تنجح مسرحية تندر بالفرنسيين، وفي تونس تكون القرصنة هي العاطفة المحببة، وفي مسينا يلاقي الانتقام ارتياحاً عاماً، وفي جنوى فإن الشرف هو حرق

---

(١) الرسالة عن المشاهد، المصنفات، المجلد الثالث، هامش ص ١٢١.

اليهود، أو بعبارة أخرى أن المسرح لا يخلق العواطف والميول وإنما يعكس الموجود منها بالفعل.

يقال أن المسرح يجعل الفضيلة محببة والرذيلة مستبغضة. ويرد روسو: ليس المسرح هو الذي يعطينا هذه المشاعر، فإنما تستمدها من طبيعتنا، وهي خيرة. هل قبل وجود الكوميديا لم نكن نحب الأبرار؟ هل لم نكن نكره الأشرار؟ وهل هذه العواطف أقل ضعفاً في أماكن محرومة من المسرح؟

ومسألة أخرى هامة: إن المسرح لا يجعل الرذائل والجرائم التي يصورها بغيضة إلى نفوسنا وإنما يجعلنا نقرها إلى حد ما. فالفهم يعني الاقرار. وعرض حدث بكل تفاصيله عرضاً درامياً من شأنه أن يجعلنا نفهمه وبالتالي نقره أو بمعنى آخر بعد الوقوف على المشاعر والعواطف التي تسبب وجوده.

«إني أشك في أن كل شخص نعرض عليه مسبقاً جرائم فيدرا أو ميديه لا يستنكرها قبل عرض المسرحية أكثر مما يستنكرها بعد عرضها، وإذا كان لهذا الشك أساس، فما الرأي في ذلك التأثير المزعوم للمسرح»[١].

---

(١) الرسالة عن المشاهد، المصنفات، المجلد الثالث ص ١٢٢.

إن هذا صحيح. يقول نيتشه فيما بعد: هل تريد أن ترى المجرم شديد الإجرام وأن تكرهه؟ ما عليك لا أن تعرف جريمته. أما إن أردت أن تراه بريئاً فعليك أن تحيط بكل جوانب حياته، لأنك عندئذ ستعرف حوافز جريمته وبالتالي كل ما يبررها فتختفي الجريمة من أمام أنظارك. أن فيدرا حين تروي قصتها إنما تدافع عن نفسها، والظروف التي تقترن بالجريمة تدافع عنها، وعندما تموت فإننا لا نكرهها»(٢).

إن «المأساة» سيئة. فإن المتفرج يعجب بالمجرمين الوسام، ويتعود على الفظائع. المسرح الفرنسي مثلاً ـ رغم كماله نسبياً ـ يعرض الإجرام والمجرمين ـ بطريقة خلابة وبفن متقدم بحيث تلاقي أفظع الجرائم نوعاً من التبرير:

«تتبع معظم تمثيليات المسرح الفرنسي تجد فيها جميعاً تقريباً. وحوشاً كريهة ووقائع فظيعة قد تكون مفيدة في إضفاء جاذبية على التمثيليات ولكنها خطيرة قطعاً في أنها تعود أعين الناس على فظائع يجب ألا يعتقدو أنها ممكنة. وليس حتى صحيحاً أن سفك الدماء وقتل الأباء منفرة فيها دائماً. . . إن المرء ليجد مشقة في عدم تبرير فيدرا الزانية سفاكة الدم البريء.

---

(١) إميل فاجيه، روسو المفكر، ص ٦٥

أن سيفاكس وهو يسم زوجته، وهوراس وهو يطعن شقيقته بالخنجر، وأوديت وهو يخنق أمه تظل شخصيات جذابة»[3].

إن روسو يدهش كيف يتحمل المتفرجون ما يعرضه عليهم المسرح من فظائع: فواحد يقتل أباه، ويتزوج أمه، ويجد نفسه أخاً لأبنائه، وآخر يرغم فتاة على خنق أبيها، وثالث يجبر الأب على شرب دماء أبنائه، فيقول أن مذابح الجلادين لم تكن من الفظاعة بقدر هذه التمثيليات.

ويرى روسو أن «الكوميديا» ليست أقل شؤماً. فهي تحتفظ بالأباطيل الاجتماعية، وتعلم أنماط السلوك التي ليست سوى أكاذيب، ولا تتحدّث إلا عن الحب والملاطفات، وهي تمكن سيطرة النساء، وتميّع الأخلاق وتضعف القلوب.

ومع أنه من أشد المعجبين بمواهب موليير، الذي يرى أنه أكمل مؤلف كوميدي، إلا أنه يؤكد أن مسرحه مدرسة للانحلال والفساد، فهو يسخر من الطيبة والسذاجة، ويشيد بالمكر والحيلة، ويضائل من شأن حقوق الأب على أبنائه، والزواج على زوجته. وهذا ينطبق حتى على «البخيل» تحفة موليير» حيث سخر من الفضيلة نفسها:

---

(١) الرسالة عن المشاهد، المصنفات ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

«إنك لا تستطيع أن تنكر أمرين: أولهما أن «السيست» في هـذه المسـرحيـة رجـل مستقيم مخلص. «خليق بالتقدير، رجل خير بحق، وثانيهما أن المؤلف يعطيه شخصيـة ممسخـرة. (وإذن فـإن المؤلف يسخـر من الفضيلة. وهذا يكفي لجعل خطأ مولتير لا يغتفر»

ويؤكد روسو أن جاذبية المسرح قائمة بصفة أساسية على الحب، ومن ثم فإن أثره هو الأنة القلوب، هو إضعافنا، وجعلنا عاجزين عن مغالبة الشهـوة، وهو يضـرب لنا مثـلاً بمسرحيـة راسين «بيرينيس» وموضوعها حب الامبراطور الروماني تيتوس الـذي يوازن بين عشيقتـه اليهوديـة بيرينيس وواجبه، ويعرض الموضوع بشكل يجعلك لا تحتقر الامبراطور ـ كما هو واجب ـ وإنمـا يجعلك ترثي لحـال هذا الـرجـل الحسـاس، وتعجب بعـاطفته. وإذن فـإنه من الخـطأ أن نزعم أن تصـوير جـوانب الضعف في الحب يشفينـا منـه، لأن الجمهـور على النقيض يعـطف على المحب الضعيف، ولعله أن يغضب أحيـانـاً لأن المحب لم يبد أكثر ضعفاً.

إن إنحلال الممثلين يضاف إلى ذلـك كله، وهو نتيجـة حتميـة لطبيعـة المسرح القـائمة على تغييـر أو تزويـر كيـانهم الحقيقي، حيث يعطي الممثلون والممثلات مثلاً سيئاً بتقمص أية شخصية، فلا يعنون إلا بتنميـة موهبـة خداع النـاس، ولا

يظهرون من المشاعر إلا ما لا يضمرون، فضلاً عن أن حياتهم مليئة بالخلل والفضائح!

ويتحدث روسو محللاً موهبة الممثل، موضحاً أنها فن فعل غير ما يحسه، فن الظهور على غير طبيعته، وقول ما لا يفكر فيه، ونسيان نفسه من أجل أخذ مكان غيره، ثم ينتقل إلى الممثلات فيقول:

«إني أضيف أنه لا توجد أخلاق فاضلة للنساء خارج حياة معتكفة ومنزلية ولو أني قلت أن المشاغل العائلية والمنزلية الهادئة هي نصيبهن، وأن كرامة جنسهن في تواضعه، وأن الخفر والحياة لا يفترقان فيهن عن الشرف، وأن سعيهن إلى لفت نظر الرجال إنما هو انزلاق إلى الانحلال وأن كل امرأة تعرض نفسها تفقد شرفها، لانبرت لي في الحال فلسفة اليوم التي تولد وتموت في ركن مدينة كبيرة، وتريد من هناك أن تخنق صيحة الطبيعة وصوت إجماع الجنس البشري»[1].

وهنا يبدي روسو ملاحظات بليغة عن الاختلاف بين الجنسين:

---

(١) الرسالة عن المشاهد، المصنفات، المجلد الثالث، ص ١٢٨.

«أليست الطبيعة هي التي تزين الفتيات بتلك القسمات الوديعة؟ أليست هي التي تضع في عيونهن تلك النظرة الخجول الحنون التي يقاومها المرء بشق النفس، أليست هي التي تعطي لونهن مزيداً من النضرة وبشرتهن مزيداً من الرقة حتى تبدو فيها بجلاء أية مسحة من الحمرة؟ أليست هي التي تجعلهن متهيبات حتى يفلتن وضعيفات حتى يستسلمن؟ ماذا كان يجدي أن تعطيهن قلباً أكثر إحساساً بالشفقة، وسرعة أقل في الجري، وجسماً أقل متانة، وقواماً «أقل ارتفاعاً، وعضلات أكثر رقة إذا لم تكن خلقتهن ليستسلمن»؟.

وبعد أن يذكّر روسو بإرادة الطبيعة على هذا النحو يرد على الفلاسفة الذين يقولون أن الخجل من الأباطيل السائدة فيقول:

«إذا كان الخجل والحياء والتواضع، وهي خاصة بهن، مخترعات اجتماعية، فإنه يهم المجتمع أن تكتسب النساء هذه الصفات، يهمه أن ينميها فيهن، وكل امرأة تحتقرها تهين الأخلاق الفاضلة. هل هناك في الدنيا مشهد أكثر تأثيراً، أكثر احتراماً من مشهد أم يحيط بها أطفالها، تشرف على أعمال خدمها،

وتهيىء لزوجها حياة سعيدة، وتدير بيتها بحكمة؟ إنما هنا تبدو في كامل كرامتها كامرأة شريفة، إنما هنا تفرض الاحترام بحق... إن بيتاً ربته غائبة هو جسم بلا روح، سرعان ما يؤول إلى الانحلال، إن امرأة خارج بيتها لتفقد أكبر بريق لها، وإذ تتجرد من زينتها الطبيعية فإنها تعرض نفسها في ابتذال. إن كان لها زوج فما الذي تبحث عنه بين الرجال؟»[1].

الجزء الثاني:

يتناول روسو في هذا الجزء أثر المسرح على المدن الصغيرة. ففي المدن الكبيرة حيث تسود الفنون الجميلة والترف والغزل والانحلال يجب إنشاء المسارح دون أن نخشى أثرها لأن الشعب فاسد منحل. ولكن المسرح خطر في المدن الصغيرة مثل جنيف. ويمضي روسو فيشرح أضراره على جنيف من النواحي الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، باعتبارها مدينة صغيرة، تعدادها ٢٠ ألف نسمة.

إن جنيف لها متعها البريئة التي تتفق مع الأخلاق الجمهورية، ومع حلقاتها[2] واجتماعاتها السمرية التي لا

---

(١) الرسالة عن المشاهد ص ١٤٠

(٢) حلقات سمر من اثني عشر إلى خمسة عشر شخص تتضمن لعباً

يلتقي فيها الجنسان. وهي تحتفظ بخشونتها القديمة ولا تعرف الرذيلة ولا الفراغ. وهكذا فإن إقامة مسرح في المدينة مشروع خطر لأن سكانها سوف يفقدون فيه وقتهم ومالهم وفضيلتهم، وسوف تختفي الحلقات البريئة، ويلتقي الجنسان كل يوم، ويختلطان متحملين بكل وسيلة، لتسود اهتمامات أخرى جديدة، وتحتقر العادات القديمة، وتحل الأناقة الباريسية محل البساطة التقليدية.

وإذا كان يتعين أن يجتمع النساء والرجال أحياناً. فإنهم يجب أن يعيشوا منفصلين عادة. فالاتصال بالنساء يفقد الرجال أخلاقهم وتكوينهم:

«لأن هذا الجنس الضعيف غير القادر على اتخاذ أسلوبنا في الحياة لمشقته عليه بجبرنا على اتخاذ أسلوبه الرخو اللين بالنسبة لنا، وهكذا فإن النساء إذ لا يردن تحمل عناء الانفصال ولا يقدرن على التحول إلى رجال يحولننا إلى نساء».

«إن كل امرأة في باريس تجمع في شقتها لفيفاً من الرجال أكثر منها أنوثة، يعرفون كيف يقدمون إلى الجمال كل

وحديثاً وقراءة وشرباً وتدخيناً، وللنساء حلقات مماثلة مع تبادل إقامة الحلقة. ارجع إلى الرسالة عن المشهد ص ١٥٨

نوع من أنواع التقـدير، فيمـا خلا تقـدير القلب الـذي هو بـه جدير».

.... «انـظر ماذا يفعـل رجـالنـا الآن: إنهم يضعـون أنفسهم في سجن اختيـاري، لا عمـل لهم إلا أن يستيقــظوا ويحلقوا ذقنهم، يذهبون إلى المدفأة وإلى النافذة ويجيئون بلا انقطاع، يتناولون الساتر ويعد لون وضعه مائة مرة ويتصفحون الكتب، ويتفحصون الغرف، بينما المعبودة مستلقية بلا حراك في مقعدها المستطيل لا ينشط منها سوى اللسان والعيون».

ذلك هو السلطان الذي أصبح للنسـاء علينا، وتلك هي آثاره المشئومة لقد تشربنا سلوكاً مناقضاً تمامـاً لسلوك القدمـاء الذين عاشوا رجالاً بينما نفقد نحن رجولتنا وصلابتنا في الحياة الناعمة المرفهة التي جرنا إليهـا الاختلاط إن انشغـالنا دائمـاً بتسليـة نسائنـا، وبانفـاق وقت فراغنـا بجـوارهن، وفعلنـا من أجلهن مـا كان يجب أن يفعلنـه من أجلنا، أدى بنـا إلى فقـد كرامتنا وعظمة روحنا، حتى أصبح يستحيل علينا أن نرتفع إلى مستوى عمل عظيم: فمواهبنا وكتاباتنا متأثرة بمشاغلنا التافهة، خالية منْ القوة ومن العمق.

وقد قوبلت رسالة روسو هذه أروع استقبال لدى رجـال الاكليـروس في جنيف فكتب له أحـدهم: «إننـا لا نملك من

الألفاظ ما يكفي للتعبير عن الرضا الذي غمرنا عندما قرأنا المؤلف القيم الكريم الذي دبجه قلمكم»[١]. وكتب له آخر: إن كتابكم إشارة تجمع لكل المواطنين الشرفاء ومبعث فزع للأشرار، والمرء يمكنه الآن أن يحكم على مدى حب كل مواطن لوطنه بمدى ما يبديه من تقدير لكتابكم. . »[٢].

أما فولتير فاضطر إلى نقل مسرحه إلى فرنسا حيث أقامه في فيرني، ومنذئذ أضمر لروسو أشد الحقد والكراهية. وقد أثارت رسالة روسو ردوداً كثيراً، من بينها رد لما رمونتيل وإن تضمَّن كثيراً من السطحية، ورد لدالامبير تميز بالدقة والموضوعية، وإن أختتمه بمعايرة روسو بأبنائه. ولكن ذلك كله كان ضعيفاً إذا قورن بقوة رسالة روسو التي تعد أكثر ما يقرأ من مؤلفاته حتى الآن، والتي تدرس في المدارس.

(١) رسالة من القس بارازان، المراسلات، المجلد الرابع، رقم ٥٦٩.

(٢) رسالة القس مولتر، المراسلات، المجلد الرابع، رقم ٥٨٢

القسم الثالث

عهد الروائع

الفصل الأول

الإقامة في مونمورنسي

(١٧٥٧ - ١٧٦٢)

فلنتبع روسو إلى داره الصغيرة في مونلوى، بمونمورنسي. كان قد قطع علاقته ببعض أصدقائه على النحو الذي بيناه. وكان يؤخذ عليه عزلته في الريف، وعاطفته نحو مدام دوديتو، ورفضه مصاحبة مدام دانياي في سفرها إلى جنيف، ومغادرته الصومعة (الارمتياج). وكان هو، من جهة أخرى يستعر سخطه ويوغر صدره، إذ يستعرض في خاطره الأحداث السيئة التي كان ضحية لها.

وضمَّن سان لامبير مبلغ ألمه إذ يرى نفسه وقد تخلى عنه أصدقاؤه، فزاره ولم يجد في داره، فتبادل مع تيريز أطراف حديث طويل، أورد في سياقه أموراً في شأن حب روسو لمدام دوديتو، كان روسو وحده يعرفها، ولم يبح بها لأحد سوى ديدرو. ومنذ تلك اللحظة مر في ذهنه أن ديدرو قد خانه، وصمم على قطع علاقته به بصفة نهائية، وكان لا بد أن تعلن هذه القطيعة على الملأ لأنه :

«أن يبدو المرء وكـأنه لا يـزال صديقـاً لشخص لم يعد صديقاً له، هو بمثابة احتفاظ بوسائل الازعاج عن طريق إثـارة عجب القوم الشرفاء ودهشتهم».

وهنا يذكر روسو مثل مونتسكيو الشهير، الذي عندما قرر قطع علاقته بتورنين، ، عجل بإعلان القطيعة للجميع قائلاً «لا تستمعوا إلى تورنيمين ولا إلي إذا تحـدث أحدنـا عن الآخر، فإننا لم نعد صديقين». وكان هذا المسلك محل ثناء، وتقدير، وحمد الجميع لمونسكييو هذه الصراحة.

وكيما يعلن روسو هذه القطيعـة، مع تفادي الفضيحة، فكر في أن يكتب في مقدمة «الرسالة عن المشاهد» أنه لم يعد له شأن بصديقه ديدرو، فذكر نبذة عن الاكليركي:

«بسبب إفشاء السر، والجرح القائم على الخيانة، ابتعد الصديق إلى غير عودة».

ومع ذلك فإن هذا الموقف المليء بالشجاعة والشرف، الذي خلع على مونتسيكو الثناء والمدح، جر على روسو الذم والقدح. كان قد أهدى نسخة من «الرسالة عن المشاهد» إلى سان لامبير، فردها هذا إليه مشفـوعة بـرسالـة ينعى عليه فيهـا يقسوة، أنه كتب في المقدمة تلك الكلمة الموجهة إلى ديدرو، وينوه له بقطيعته في جفوة، ورد عليه روسو باللهجة نفسها قائلاً

إنه يجد رسالته غير جديدة بالرد عليها[١].

ويبدو أن سان لامبير خالجه الأسف على ما اقترف. أما مدام دانياي التي أسفت بدورها على أنها عاملته بمثل تلك القسوة، ولعلها ندمت على ثقتها العمياء، في جريم، فقد دعت روسو إلى العشاء في باريس، منوهة بإعجابها بمؤلفاته القيمة، ومخطرة إياه بأن سان لامبير وفرانكيي ومدام دوديتو سيختلفون إلى هذا العشاء ويسرهم أن يروه.

وقبل روسو الدعوة. وكان وصوله مثيراً. واستشعر أن دسائس جريم وعصبة دولياك لم تفصله عن معارفه القدماء.

المؤلفات العظيمة :

لو احتسبنا المؤلفات التي أنجزها روسو خلال السنوات الست التي أقامها في الارمتياج ومونمورنسى، لوجدنا أنه لم يضيع وقته في الفراغ والبطالة، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أنه طالما كان مريضاً، وطالما كان في الشفريت، وفي أبناى، وفي أوبون، وفي قصر مونمورنسى، وطالما أزعجه وأمضّه الفضوليون المتعطلون وأنه كان مشغولاً دائماً نصف النهار في النسخ.

---

(١) الاعترافات، الكتاب الخامس، ص ٦٢.

وبصفة خاصة أنجز روسو في مونمورنسي» هلويز الجديدة» التي بدأها في الارمتياج، وهناك أيضاً كتب عدا «الرسالة إلى دالامبير» «العقد الاجتماعي» «وأميل». وهذه المؤلفات الثلاثة تكون ما اتفق على تسميته «مؤلفات روسو العظيمة» ويتحتم أن يضاف إليها «الاعترافات» التي ظهرت بعد وفاته.

وقد أنجزت «هلويز الجديدة» في شتاء ١٧٥٨ ـ ١٧٥٩، وطبعت في امستردام، ثم ظهرت في فرنسا في مستهل عام ١٧٦١. وبمناسبة هذا الكتاب عرف روسو المسيو دي ماليزيرب مدير المكتبة العامة، وكان يكن لروسو تقديراً عظيماً، وقرأ أصول الكتاب صفحة صفحة، بوصفه صديقاً لا قريباً، ويسر كثيراً من طباعته عن طريق اجتلاب الأصول من أمستردام باسمه، وختمها بخاتم أبيه المستشار جيوم دي لاموانيون. وقد رد له روسو جميله وأشاد بذكره في «الاعترافات»[1] ومعلوم أنه بعث إلى هذا الموظف الكبير بأربع رسائل مشهورة، سنتحدث عنها فيما بعد.

كانت هلويز الجديدة أول مؤلف عظيم لروسو، وقد لاقت نجاحاً يفوق كل خيال.

---

(١) الاعترافات، تلكتاب العاشر، ص ٢٧٠ وموسيه باتيه ص ١١٩ ـ ١٢١

لم يستطع الناشرون أن يلبوا الطلبات الواردة من جميع الطبقات. كان الناس يمتدحون المؤلف كل يوم، أو كل ساعة، وعندما ظهر كان يطلب إثني عشر «سو» ثمناً لكل مجلد، ولو أن قراءته لا تستنفد ٦٠ دقيقة[٢]

وقد عرف أمر الكتاب في الواقع قبل ظهوره، فقد تحدثت عنه مدام لوكسمبورج في البلاط، ومدام دوديتو في باريس، وفتن به الملك ستاتسيلاس الذي قرأ أصوله كما تحدث عنه ديكلو في الأكاديمية التي كان يشغل فيها منصب السكرتير الدائم.

أما النساء على الأخص فقد سحرهن الكتاب والمؤلف معاً. وقد تحدثت عن الكتاب زوجة ولي العهد مع الماريشال دي لوكسمبورج حسبانه كتاباً خلاباً ساحراً. ويروي لنا روسو أنه تلقى في شأنه رسائل فريدة من نساء عديدات من ذوات المكانة الرفيعة، لم يشأن أن يفصح عن أسمائهن. ونحن نعرف أن النساء كن يبكين لدى قراءة الكتاب. وقد أعلنت المركيزة دي بلو «أن امرأة مرهفة الحس لا يمكن أن تضن على روسو بأي شيء» كما أن سيدة عظيمة ولعلها الأميرة دي تالمون، فتحت الكتاب قبيل ذهابها إلى حفلة ساهرة،

(١) شهادة الأب بريزار، أوردها موسيه باتيه ص ١٥٣.

وأخطرت عند منتصف الليل أن عربتها في انتظارها، فواصلت القـراءة ولم تجب، ثم نبهت إلى أن الساعـة أصبحت الثانيـة صباحاً فقالت دون أن تكف عن القراءة أنه لا مدعاة للعجلة، وفي الرابعة صباحاً قـدرت أن الوقت أصبـح متأخـراً للخروج وخلعت ملابسها وواصلت القراءة»[1].

وهناك سيدة خليقة بأن تذكر هنـا، هي مدام دي لاتـور فرانكيفيل. كانت تعبد مؤلف هلويز الجديدة كأنـه إله. وكـان عمرها ٢٨ عاماً، وكانت جميلة الطلعة لطيفـة المعشر واسعـة الثراء قويـة الشخصية. وقـد تملكها الحمـاس عندمـا طالعت الكتـاب، وأرادت أن تعـرف معبـودهـا، وسعت بكـل وسيلة للتقرب إليه. وكانت منطوية على نفسها وتعيش في زهد، فهيَّأ لها خيالها أن تنتحل اسم جوليا لتراسله، ولكنه بدا حذراً بـل قاسياً. ولـم يثبط ذلك عزيمتهـا، فظلت تـراسله خمسة عشـر عاماً، ولو أنها لـم تره سوى مرتين أو ثلاث مرات. وفي الجدال الشهير الذي نشب بين روسو وهيوم امتشقت قلمها لتدافع عن معبودها بحرارة غريبة. وظلت عاطفتها نحوه حية مشبوبة حتى بعد وفاته، فكتبت ضد أولئـك الذين هـاجموا ذكـراه، وبرأت روسو من تهمة الجحود التي وجهت إليه[2]

(١) الاعترافات، الكتاب الحادي عشر ٢٨٧ وشوكيه ص ٥١.
(٢) موسيه باتيه من ص ١٢١ إلى ١٢٥ ومراسلات روسو الجزء السادس

إن فولتير لم يستطع إخفاء غيرته من هذا الكتاب. لقد أدرك هذه المرة أن روسو يزداد مكانة في رأي معاصريه، وأنه سوف يطفىء نجمه، بعد أن كان هو ممثل عصره وسيده، إن هلويز الجديد تثير غضبه وتوحي إليه بكتابة رسائله الحاقدة المعروفة باسم «هلويزا».

روسو لدى المارشال دي لوكسمبورج :

كان روسو قد قرر للمرة الثانية أن يعتكف. كان قد أصر ـ كما يقول ـ على الانزواء ونبذ المجتمع بعد أن تذكر كل ما لاقاه من مضايقات أثناء إقامته في الشفريت وفي أوبون. كان قد استرد حريته وصمم على الاحتفاظ بها. ولكن في مستهل صيف ١٧٥٩ وصل الماريشال دي لوكسمبورج والدوقة قرينته إلى قصرهما في مونمورتسى، القريب من بيت روسو الصغير، فقلبا مشروعات اعتكافه رأساً على عقب. ومع ذلك، فإنه لم يستسلم للقائهما إلا بعد محاولات متكررة، ولم يستجب للدعوة إلا عندما زاره الماريشال بنفسه ذات يوم وفي صحبته خمسة أشخاص أو ستة، ولم يستنكف الماريشال أن يجلس

رقم ١١٣٩، ١١٤، ١١٥٨، ١١٦٦.. الخ. ورسالة روسو إلى مدام دي لاتور ٧ فبراير ١٧٦٧. ارجع أيضاً إلى إميل فاجيه، صديقات روسو من ص ٣٢٦ إلى ٤١٣.

في غرفة الفيلسوف الوحيدة على أرضية خشبية متهالكة بين الأطباق القذرة والأواني المكسورة. في هذه المرة تلاشت مقاومة روسو ولم يجد بداً من رد الزيارة، والذهاب للسؤال عن الدوقة.

وكان روسو قد خشي على أرضية غرفته في الطابق الثاني أن تنهار تحت ثقل ضيوفه فدعاهم إلى الانتقال إلى شرفة البرج التي ألف فيها «رسالة عن المشاهد» والتي يلفحها الهواء من كل جانب. ولاحظ الماريشال خوف روسو على سقفه المتهالك فوعد بإصلاحه، وأجبره على الانتقال ومعه مديرة بيته - إلى جناح ملحق بقصره. وبذلك أصبح لروسو مسكنان: البيت الصغير في مونلوى والقصر الصغير لدى الماريشال، وقد أضيف إليهما مسكن ثالث فيما بعد هو فندق لوكسمبورج في باريس الذي دعاه الماريشال إلى التردد عليه من آن لآخر، فوافق عن مضض بسبب كراهيته لباريس.

وكان الماريشال رجلاً ممتازاً، واتخذ روسو صديقاً، وأغرقه بملاطفاته ورقته، فأحبه روسو، وراقت له الإقامة في القصر الصغير، حيث أكب على العمل وكأنه في قلب الغابة، في جو يعبق بأريج زهر البرتقال ويضج بشقشة العصافير. ومع ذلك فقد أراد أن يكون حراً فتجرأ وأملى شروطه:

ألا يستقبل إلا في خصوصية ضيقة، وألا يجبر على تلبية

دعوات للعشاء، واحترم الماريشال والدوقة رغباتـه، وأبديـا له صداقة خالصة صريحة.

وكـانت الدوقـة بصفة خـاصـة لـطيفـة معـه إلى أقصى الحدود. كانت تعانقه، وتغرقه بمظاهر العناية، وكـانت تسميه «أحب الناس وأجدرهم بالحب» وكانت تقدم إلى تيريزا هدايا صغيرة، وتضفي عليها أمام الملأ إمارات الرعاية. وقـد تملق ذلك كله عواطف روسو فأحب الدوقة بإخلاص وكـان عمرهـا ٥١ عاماً عنـدما دخـل روسو في زمـرة أصدقـائها الحميمين. وكانت ما تزال جميلة مفرطة الذكاء. وكانت أيـام حكم لويس الرابع عشر تعتبر آية في السلوك والأدب، وحفيظة على أصول الصحبة الحقة. وكان دورها في المجتمع يستلزم ذكاء لمـاحاً وسرعة خاطر وكثيراً من الكياسة واللباقة. ولم تجد أي صعوبة في الاستحواذ على روسو، وكانت أفضل كثيـراً من «معذبتـه» مدام داينـاي، التي كانت سيدة عظيمة لكن من الصف الثاني.

هكذا، على كل حال، يجد روسو نفسه ـ مـرة أخرى ـ أسير فضل رجل عظيم وسيدة عظيمة. وأنه ليذهب كل يوم إلى المـاريشال والمـدام دي لوكسمبـورج، يـذهب في الصبـاح، ويتنـاول الغذاء في الـظهر، وينفق معهمـا القصر، وكثيـراً مـا يتناول العشاء. إنه لا يكاد يفارقهما على حد قولـه. وهو يقـرأ كل صباح على الماريشالة مستلقية، أصول «هلويز الجديدة»،

ويظل ذلك فترة طويلة، ويكتب لها نسخة جميلة. وعندما ينتهي من قراءة هلويز الجديدة عليها، يقرأ عليها «إميل».

«افتتنت مدام دي لوكسمبورج بجوليا وبمؤلفها. لم تكن تتكلم إلا عني، ولم تكن تنشغل إلا بي، وكانت طول النهار تلاطفني، وكانت تعانقني عشر مرات في اليوم. كانت تريد أن يكون مكاني دائماً بجوارها وعندما كان بعض النبلاء يريدون أخذ هذا المكان، كانت تقول لهم أنه مكاني، وكانت تجلسهم بعيداً»[1].

وسواء في القصر الصغير أو في مونلوي كان الماريشال وعقيلته يجلبان له زوارهما. وكانوا دائماً من النبلاء الكبار والسيدات العظيمات. وكانت هذه مفارقة غريبة في نصيب روسو: هو يزدري العظماء والأغنياء، وهم يدللونه أعظم التدليل.

وكان روسو آنذاك يعيش معيشة ساحرة. فما حلم قط بسيدة في مثل نبل مدام لوكسمبورج وعظمتها، وتسامحها وامتلائها بالحنان وبالأخص نحوه. إن الإطلاع على روح الرسائل المتبادلة بينهما يظهرنا علي متانة الآصرة التي كانت تجمعهما:

(١) الاعترافات، الكتاب العاشر، ص ٢٧٦.

قال روسو في إحداها «. . . . لو قد كنت سيدة أقل مكانة مما أنت عليه لألقيت بنفسي على قدميك، ولما أدخرت خضوعاً ولا ابتهالاً لأمحو أسباب عدم رضاك، أما وأنت في مثل هذه المكانة فلا تنتظري أن أفعل كل ما يسألني قلبي أن أفعله . .».

وأجابت الدوقة: «ليس عليك أنت أن ترتمي على قدمي، إنما علي أنا أن أرتمي على قدميك. ترى هل يمكن أن يخطىء المرء معك؟ لا يجوز أبداً أن يغتفر المرء لنفسه ذلك. وإنما ألوذ برحمتك وبصداقتك أن تغتفره لي، إذا وجدتني ما زلت جديرة بذلك. . .»

وقالت في رسالة أخرى «إني لأجرؤ على الشكوى من أنك استطعت أن تشك في قلبي - إنه مع ذلك لك بكل حنان، وسيكون لك طيلة عمري. ولسوف أكون في غمرة الحزن ما لم أتأكد من أنك لست غاضباً علي. وهكذا يا سيدي فإني أسألك، جاثية على ركبتي، كلمة صغيرة تطمئنني، وأتوسل إليك أن تقتنع بأن مشاعري نحوك من طبيعتها إلا ينضب لها معين أبداً. . .»

وعندما كتب لها روسو، شاكياً من المسافة التي تفصل بينه وبينها، قائلاً في قسوة: «لشد ما أبغض القابك جميعاً،

ولشد ما أرثي لك أنك تحملينها» ردت عليه بهذه الرسالة:

«أجل يا سيدي، إني اجترىء فأقولها: إن قلبي جدير بقلبك كنت أتمنى أن أنفق حياتي معك، وإنك لتجدني غير جديرة بذلك. وأنا أؤمن بتفوقك علي، واحترمه، وأعجب به. ولم يعد في حياتي لحظة إلا أسفت فيها عليك، ورغبت فيك، وأحببتك»(١)

الإعلان الفجائي للحرب بين روسو وفولتير (١٧٦٠):

وبينما كان روسو مشغولاً بجد في مؤلفاته العظيمة في معتزله البديع، بالقصر الصغير في مونمورسي، كان فولتير من جهته يستمرىء احتفال أهل جنيف به، مما سبب نشوب الحرب بينهما فجأة بإعلان من روسو الذي لم ينسَ وطنه. وكان كل حلمه أن يعود إليه ذات يوم. لا عودة مواطن عادي وإنما عودة الظافر.

لكن ها هم أولاً ينسونه في جنيف! لقد خالجه على

(١) في صدد علاقة روسو بمدام دي لوكسمبورج ارجع إلى فاجيه، «صديقات روسو» الفصل العاشر ص ١٩٣ إلى ٢٣٤. وفي صدد رسائلها ارجع إلى مراسلات روسو المجلد الرابع أرقام ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٧، ٦٩٨... الخ.

الأقل هذا الإحساس، وانتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأنهم قد كرهوه، وآية ذلك تلك الحفاوة التي قابلوا بها فولتير. إنه استقبل زواراً من جميع أركان الدنيا إلا من جنيف، فكتب إلى صديقه «مو» شاكياً هذا الوضع:

«هل يمكنك أن تعتقد أني أحس أن سمعتي قذى في عيون مواطني، وأنه لو لم يكن روسو من جنيف لما استقبل فيها فولتير بهذه الحفاوة؟ ليس في أوروبا مدينة الأماني منها زوار في مونمورنسى بينما لم أر قط أثراً لواحد من جنيف. وإن حدث أن أحداً منها أتى فإنهم لم يكونوا إلا من مريدي فولتير الذين أتوا كجواسيس[1].

لقد أحس روسو هذا الغضب ضد فولتير منذ «المقال عن جنيف» إذ ألهبته الشكاوي والأنات التي كان يتلقاها دون انقطاع من أصدقائه القساوسة عن الانحلال الخلقي الذي عجل به «الكوميدي» وبطانته التافهة. هكذا بين مولتو، الراعي الطيب والصديق المخلص:

«إن هذا الرجل (فولتير)، يا سيدي، دون ما كذب،

---

(١) المراسلات، رسالة من روسو إلى مولتو، إبريل ١٧٦٢ والجزء السابع رقم ١٣٤١.

يوقع بنا أفدح الشر. عسى أن يكون القوم قد اتبعوا حياله مشورة أفلاطون، ولكن أولئك الذين استدعوه لم يكونوا أفلاطونيين. ومهما يكن من شيء فإن فولتير ينتقدك على نحو آخر غير الذي يسلكه دالامبير، وبنجاح ينطوي على هوان كبير له. فهو في الستين من عمره. يا سيدي، يمثل على المسرح مع فتية طائشين، في الخامسة عشرة، وذلك لتسلية المنحرفين المهرجين والأطفال. هاك تعاسة ذوي المواهب الكبرى الذين لا يسندهم أساس عظيم من الحكمة. إنهم لا يجعلون من فولتير إلا مسخرة»[٢].

ويبدو روسو مغيظاً محنقاً جداً في رده:

«إنك تحدثني عن هذا «الفولتير»! لماذا يدنس اسم هذا المهرج رسائلك؟ لقد ضيع المنكود وطني، ولو كنت احتقره أقل مما أحتقره لأبغضته أكثر مما أبغضه. إني لا أرى في مواهبه العظيمة إلا مزيداً من العار الذي يصمه عن طريق استغلاله المزدول لها. إن مواهبه لا تخدمه، بقدر ما يخدمه ثراؤه، إلا في تغذية فساد قلبه. أي أهل جنيف، أنه يجزل لكم

---

(١) المراسلات، رسالة من مولتو إلى روسو، يناير ١٧٦٠، الجزء الخامس رقم ٧٣٥.

أجر الملاذ الذي قدمتموه له! انسه ما كان يعرف بعد أين يذهب ليوقع الشر. إنكم ستكونون آخر ضحاياه »[1].

ويكتب روسو عن فولتير إلى الراعي فيرنيه فيقول أيضاً:

«هكذا أصبح الهجاء والكذب الأسود والقذف أسلحة الفلاسفة ومريديهم! هكذا يدفع المسيو دي فولتير ثمن الحفاوة التي قدمتها له جنيف بتسمح مشئوم. إن داعية الزندقة هذا، إن هذه العبقرية البديعة والروح الوضيعة، إن هذا الرجل المفرط العظمة بمواهبه، والمفرط الوضاعة باستعمال مواهبه، سوف يترك لنا ذكريات طويلة وقاسية عن إقامته بيننا. إن خراب الأخلاق، وضيعة الحرية، وهما الذيول المحتومة لإقامته سوف تكونان لدى أسلافنا آثار مجده وعرفانه للجميل. إلا أن بقي في قلوبهم بعض حب الوطن فلسوف يستهجنون ذكراه، ولسوف يكون في هذا الوطن موضع لعنة أكثر منه محل إعجاب»[2].

---

(١) المراسلات، رد على مولتو، ٢٩ يناير، ١٧٦٠ الجزء الخامس رقم ٧٣٦.

(٢) المراسلات، رسالة من روسو إلى .. فيرنيه ٢٩ أكتوبر ١٧٦٠، الجزء الخامس رقم ٩٣٠.

هكذا تتسلسل الأمور: روسو، مدفوعاً ببغضه لفولتير وحنينه إلى جنيف مناط أحلامه، كلما رأى فولتير منتصراً ومكرماً في وطنه، يثور سخطه، ويطيش حلمه، ويشعر بأنه يمكنه أن يفعل أي شيء، بما في ذلك أن يكتب الرسالة غير المعقولة المؤرخة ٢٧ يونيو ١٧٦٠، التي تعد بمثابة «إعلان حرب» إن هذه الرسالة تصبح نوبة جنون ـ كما يقول البعض ـ إذا لم تعرف الحوافز التي أملتها.

فلا يمكن أن نتصور أن يكون روسو على غير علم بموقف فولتير البعيد عن الشهامة حياله. ذلك أن فولتير لم يضيع وقته. لقد وقف روسو عند الشكوى منه، أما هو فلم يكف عن توجيه الإهانات الخبيثة إليه، طوال عامين، أو منذ «الرسالة عن المشاهد» وهو لم يجرؤ على الوقوف موقف الدفاع عن «الملهاة» أمام روسو، ولكنه كان يفتأ غضبه في رسائله، بتعريضه ـ على طريقته للسخريات والإهانات مثل قوله «الحمير الحمراء التي تكتب ضد فن سوفوكليس». ومثل تسميته روسو «ديوجين» أو كلب ديوجين هذا»، بل أحياناً «كلب ديوجين هذا ابن السفاح»[1]

---

(١) ارجع إلى لويس بيكرو، جان جاك روسو، المجلد الثالث، روسو وفولتير.

ومهما يكن من شيء، فقد كان روسو البادىء بافتتاح العداوة برسالته المريعة المؤرخة ١٧ يونيو ١٧٦٠، التي أربكت فولتير. ولعله لم يفكر في أن يكتب إليه، ولكن الاعترافات تقول أن نشر الرسالة عن العناية الإلهية، كان الحجة: فإن فورميي نشر ـ على غير علم من روسو ـ رسالته إلى فولتير عن العناية الإلهية، وأراد روسو أن يوضح أنه لم يكن له في ذلك شأن[٢]. والرسالة تبدأ هكذا: «ما كان يخطر ببالي، يا سيدي، أن أجد نفسي قط أدخل في مراسلات معك».

وكانت البقية تتسم بنفس اللهجة، وبصراحة فذة كما يتضح من هذه الفقرة:

«إني لست أحبك، يا سيدي، فلقد أنزلت بي من الشرور أشدها إيلاماً لنفسي، أنزلتها بي أنا، مريدك ومشاريعك المتحمس لك. ولقد ضيعت جنيف لقاء الملاذ الذي لقيته فيها، وألبت على مواطنيَّ لقاء ما غمرتك به بينهم من تهليل. أنت الذي جعلت مقامي في موطني لا يحتمل، أنت الذي ستجعلني أموت في أرض أجنبية، محروماً من كل سلوة يحظى بها

(١) الاعترافات، الكتاب العاشر ص ٢٨٤.

الأموات مرمياً ـ كتكريم ـ في حفرة قذرة، بينما كل ما يتوقعه المرء من ضروب التكريم سوف يصاحبك في وطني. وأخيراً فإني أمقتك، ما دمت تريد ذلك، أمقتك، بوصفي رجلاً كان قميناً بأن يحبك لو أردت. من بين المشاعر التي كان يكنها لك قلبي لم يبق سوى الإعجاب الذي لا يمكن أن يضن به المرء على عبقريتك الرائعة، والحب لمؤلفاتك... وداعاً يا سيدي[1].

إن هذه الرسالة الحمقاء تنطوي على فضل واحد على الأقل لا يسع المرء أن ينكره: الصراحة. فهي رسالة صادرة من القلب، مهما كان هذا القلب مليئاً بالسوداء، الناشئة عن عزلة طويلة. لكن ماذا كان صداها في نفس فولتير؟.

أنه تملص أوراغ كعهده، لم يرد بأي دفاع صريح أو إجابة مباشرة. وإنما كتب إلى دالامبير الذي أصبح، كما نعرف، صديقاً له: «كنت أرجو ألا يصبح جان جاك مجنوناً جنوناً مطبقاً، ولكنه كذلك. فقد كتب إلي رسالة يجب إزاءها أن يلقي في مغطس وأن يعطي شراباً منعشاً.»[2]

---

(١) الاعترافات، الكتاب العاشر، المراسلات، الجزء الخامس رقم ٨١١.

(٢) من فولتير إلى دالامبير في ٢٣ يونيو، ١٧٦٠.

وقد يكون هذا رداً ذكياً، ولكن رجلاً بريئاً وصريحاً ما كان ليرد على على هذا النحو. إلا أن الصراحة والاستقامة والأمانة أسلحة عامية لا تليق بسيد فيرنيي: فهو يعرف أسلحة أمضى وأشد فتكاً: التشهير والقذف.

ففي نفس الوقت الذي كتب فيه رسائله إلى دالامبير، وتيرييو، وداميلافير، سود ضد «جوليا»، التي تحظى باحتفال بالغ وإعجاب رائع، أربع رسائل عن «هلويز الجديدة أو الويزا» وحمل المركيز كزيمينيه على توقيعها. إن هذا المركيز الذي تمتع قبيل ذلك بحظوة مدام ـ دينيس بنت أخت فولتير، والذي اختلس منه الوثيقة الخاصة بتاريخ حرب ١٧٤١، انتهى به الأمر إلى التمرغ على باب فولتير الذي قبله[١]. وعلى ذلك لم يتورع عن أن يوقع باسم أجداده النبلاء شتائم فولتير في روسو.

إن هذه الرسائل الأربع مضمونها: أن هلويز الجديدة ليست عملاً من أعمال العبقرية، وأنها قصة مكتوبة أسوأ كتابة، وأنها زاخرة بالأحداث غير المعقولة وبالشناعات.

وواضح أن فولتير لم يكن صادقاً في كتابتها، وفي إتهام القصة بهذه الأكاذيب، لأنه ما كان ليغضب كل هذا الغضب إزاء كتاب مكتوب برداءة إلى الحد الذي صوره! بل أن فولتير،

---

(١) رسالة من مدام لوكسمبورج، يونيو ١٧٦١

بكل عبقريته، ارتكب سفاهات أخرى مثل هذه: «ليس جان جاك روسو سوى صعلوك، إن أباه صبي ساعاتي ممتاز». أو مثل هذه: كيف فاتك أن تقول أنه يمكن الرهان بعشرين ضد واحد على أن النبيل يمكن أن ينحدر من صلب وضيع؟ ألا تعرف أن مونمورنسى، الذي أواك، رجل نبيل إلى حد كبير؟.

ولعل هذه الرسائل المسماة «الويزا» كانت مثار إعجاب أشياع فولتير، ولكنها كانت مبعث استنكار الشرفاء. وقد وقفت إزاءها مدام لوكسمبورج في صف روسو متخذة لهجة شديدة الاحتقار، ومبدية سخطها على هذا النحو:

«ثمة تافه يدعى المركيز دي كزيمينيه يقيم في «ديليس» لدى المسيو دي فولتير، الذي يستكتبه أربع رسائل ضد جوليا، رسائل بربرية شريرة، وضيعة. هل من الممكن أن فولتير بذكائه وألمعيته يدخل في طويته حسد وضيع؟ ومع ذلك لا بد أن يعتقد المرء أنه يشعر بعجزه عن تأليف كتاب مثل كتابك. إننا لا نرى قط في مؤلفاته السمو وقوة العبقرية الشائعة في «جوليا» الساحرة هذه وداعاً يا أخلق الرجال بالحب وأحبهم»[1].

---

(١) رسالة من مدام دي لوكسمبورج إلى روسو، يونيو ١٧٦١. ارجع إلى لويس ديكرو، فولتير وروسو.

أثر إميل :

ولنعد إلى مؤلفات روسو الكبرى.

بعد «هلويز الجديدة» التي فوهنا بنجاحها الباهر، نشر روسو «العقد الاجتماعي»، وأميل» وقد ظهرت مؤلفاته الثلاثة الكبرى هذه في أثر بعضها بعضاً إبان إقامته في مونمورنس: هلويز الجديدة أو جوليا في مستهل عام ١٧٦١، وهذه الكتب الثلاثة المؤلفة في وقت واحد تختلف في الأسلوب اختلافها في النوع.

ولئن كانت هلويز الجديدة قد لاقت على الفور نجاحاً منقطع النظير لئن كان «العقد الاجتماعي» قد مر في البداية كأن أحداً لم يشعر به ولم يلتفت إليه، فإن الأمر كان على النقيض فيما يتعلق «باميل» فقد قلب حياة روسو رأساً على عقب.

ففي البداية أجريت طباعته ببطء أخنق مؤلفه وأثار أعصابه وأوقعه مريضاً: فقد أراد روسو من قبيل الحذر أن يطبعه وينشره، مثل جوليا في الخارج فقط، في هولانده. إلا أن مدام دي لوكسمبورج خشيت أن يغرر به ناشروه فأرادت أن يدع لها أمر نشر الكتاب. وبالاشتراك مع ماليزير مدير دار الكتب أراد أن ينشر الكتاب بانتظام بفرنسا في نفس الوقت الذي ينشر فيه بهولانده. وقام جدال طويل، فروسو يؤكد

استحالة الحصول على ترخيص، والماريشالة تقول أنه لا صعوبة في ذلك. وأخيراً تدخل ماليزيرب وكتب إلى روسو رسالة طويلة ليثبت له أن «إقرار إيمان الخوري السافوي» أخطر جزء في الكتاب ـ كان على وجه الدقة أهلاً لأن يحظى في كل مكان بتأييد الجنس البشري. وعندئذ أيقن روسو أن طباعة كتاب يقره ماليزيرب تكون مشروعة لهذا السبب وحده، ولن يقوم عليها اعتراض. وعهد بأصول إميل إلى الناشر «دوشين» في باريس، وعن طريقه إلى الناشر «نيولم» في امستردام. وقد أعطى «دوشين» روسو ستة آلاف فرنك، منها ثلاثة آلاف تحت الحساب. وما أن تم الاتفاق حتى أرسل روسو «العقد الاجتماعي» إلى «راي» في امستردام محدداً ثمنه بألف فرنك سلمت إليه[1]

وكان روسو يموت من القلق إزاء البطء الشديد في طبع الكتاب في فرنسا وهولنده على السواء. وعبثاً كان يهون على نفسه الأمر مردداً التفكير في أن ماليزيرب يشرف على الطبع، وأن المدام دي لوكسمبورج بل والأمير دي كونيتي[2] يتوليان

---

(١) الاعترافات، الكتاب الحادي عشر، ص ٢٩٥.

(٢) الاعترافات، الكتاب العاشر ص ٢٨٦، حيث يحدثنا روسو عن زيارة هذا الأمير له في القصر الصغير وفي مونلوي ولعبه الشطرنج معه، كما يحدثنا عن عشيقته الكونتيسة دي بوفيير التي كانت شديدة التحمس لروسو.

كل شيء ويردان عن كل سؤال له. ولكن الطبع كان جارياً على كل حال دون أن تتبدد مخاوفه التي أشعلها ديكلو عند ما زاره وقرأ عليه روسو «إقرار الإيمان» فأبدى عجبه وقال: ماذا أيها المواطن؟ أهذا جزء من كتاب يجري طبعه في باريس؟ وكان عجب روسو أشد لأن ديكلو يتردد كثيراً على ماليزيرب!

وأصبح روسو عصبياً، وتسلطت عليه آلامه العضوية: فمنذ إقامته في مونمورنس، منذ أربع سنوات لم يمر عليه يوم وهو سليم معافى. وفي نهاية خريف ١٧٦١ وقع مريضاً تماماً وتعرض طوال الشتاء لآلام شديدة تكاد لا تنقطع وكان أكثر ما يثير قلقه خوفه أن يكون (الجيزويت) دخل في تأخير طبع كتابه، بغية تدميره لأنه هاجم مدارسهم في مقاله الأول. إلا أنه كان قد نسي أن الجيزويت لديهم ما يشغلهم عن كتابه[١] وقد اعترف هو بذلك في «اعترافاته» ولكنه برر خوفه بأنه كان يرى نفسه محوطاً بالأعداء من كل جانب وأنه كان يخشى وهم يدركون خطورة مرضه أن يزوروا كتابه ليلطخوا ذكراه. وهو قلق يغتفر له، لأن «إميل» كان أكرم كتبه وأحنها.

وقد زاره ماليزيرب في مونمورنس ليهدىء روعه. وكتب له بعدها يقول له أنه أنس فيه أساساً كبيراً للسوداء... وأن هذه

---

(١) أبعد الجيزويت من فرنسا في عام ١٧٦٢.

السوداء الكئيبة التي تسبب تعاسته قد استفحل شأنها بفعل العزلة[1].

وقد أثارت هذه الملاحظة حساسية روسو فكتب إلى ماليزيرب أربع رسائل متعاقبة يشرح فيها الحوافز الحقيقية لمسلكه، وأن العزلة ليست هي التي تهوش ذهنه. وقد كتب روسو هذه الرسائل الأربع في غضون يناير ١٧٦٢، ودون تسويد. وأبدى روسو عجبه ـ في الاعترافات ـ من السهولة التي كتبها بها، رغم شدة آلامه وقتها. وقد أعجب بها ماليزيرب أيما أعجاب، وأوراها لباريس كلها، وعمل منها نسخة، واشتهرت باسم «رسائل إلى ماليزيرب» واعتبرت أروع صفحات كتبها روسو. وزاد من أهميتها أنها تضمنت نوعاً من إقرار الإيمان، أو صورة أولى من الاعترافات.

وأخيراً ظهر «إميل» في مايو ١٧٦٢، وكان «العقد الاجتماعي» قد سبقه بزهاء شهر. وكل مؤلف منها يستحق أن يدرس في فصل خاص.

(١) رسالة من ماليزريب في ٢٥ ديسمبر ١٧٦١. المراسلات، الجزء السابع، رقم ١٢٢٥.

الفصل الثاني

جوليا أو هلويز الجديدة

(١٧٦١)

تأليفها :

ولدت قصة هلويز الجديدة في الصومعة ـ الارمتياج ـ في ربيع ١٧٥٦ وكان روسو يتنزه، حالماً، بين الأزهار والأعشاب، ويسمع تغريد البلابل وخرير الجداول. وكان في صحبته كلبه وعشيقته تيريز التي كانت لا تزال أعجز من أن تفهم «لغة القلب» ولا المتعة التي تضيئها التأملات الفكرية والاستطلاعات الذهنية.

وكان قد أطرح لتوه صالونات السيدات العظيمات، ومجتمع الفلاسفة، وكل ما يذكره بالمدينة، ولكنه لم يستطع أن يطرح الحب. كان الحب، عنده هو الحياة. لم يكن يتصور أن في الحياة ما هو أروع من الحب. وكانت الحاجة إلى الحب تلتهمه إلتهاماً فحاول أن يشبعها مراراً. ولكن لا الأقدار ولا النساء عرفت أن تفهم حلمه، حتى كاد أن يموت دون أن يعيش!

عبثاً كان يقـول لنفسه أنـه يتجاوز الأربعين عـاماً، وأنـه تخطى زمان الحب، أو على الأقل الزمان الذي يكون فيه أهلاً لأن يكون محبوباً. ولكنه يـريد أن يحتـرق مرة أخـرى بلهيب الحب، فما العمل؟ (أن يحلم! فما دام يستطيع أن يتطلع إلى كائنات حقيقية ليس أمامه إلا أن يلقي بنفسه في دنيا الخيال. وهو عندئذ يستعرض في خياله كل النساء اللاتي عشقهن دون أن يستطيع أن يقهرهن. وفي الغابة يتذكر الآنسة دي جرانفيد والآنسـة جالاي، ولقـاءه معهمـا في نفس الفصـل وفي بقـاع مشابهة. وتستدعي هذه الذكرى ذكريات أخرى من النوع ذاته، وعلى الأخص الآنسة دي برى فتاة القصر، ثم الآنسة سوذان. أليست هذه اللحظة التي يستعيد فيها بخياله كل تلك القصص الجميلة التي قطعت؟ هكذا ولدت هلويز الجديدة: من منابع بلغ من حيويتها الدافقة أنها جرت على الفـور في أمواج قـوية عـارمـة: «إذ نسيت الجنس البشـري نسيـا تـامـاً فقـد أقمت مجتمعـات من مخلوقات كـاملة علوية بفضـائلها بقـدر ما هي علوية بجمالهـا أصدقـاء رقاق مخلصين لم أر مثلهم في هـذه الدنيا»

إنه يتخيل صديقتين، أحداهما سمراء والأخرى شقراء. إحداهما مفرطة الحيوية والأخرى فياضـة العذويـة. إحداهمـا حكيمة والأخرى ضعيفة «لكنها ذات ضعف بـالغ التـأثير حتى

ليبدو أن الفضيلة تكسبه». ويصور نفسه شاباً كريماً، خليقاً بالحب، ويتخذ شخصية معلم هاتين الفتاتين الجميلتين، الغنيتين الناعمتين. ويصبح هو ـ سان برو ـ عاشق جوليا.

وهو بعد ذلك يبحث لهما عن مقر، ويفكر أولاً في جزر بورميه في بحيرة ماجورى الإيطالية، ثم يختار لهما أخيراً فيفي على ضفاف بحيرة ليمان، بحيرته العزيزة. ويأخذ في الكتابة بالصدفة دون خطة مرسومة. وكان يعرض على قلبه ما يكتب من رسائل، ويعيد قراءتها في وجد مشبوب وبشهيق ودموع. وهو يؤكد أن القسمين الأولين من جوليا قد تمت كتابتهما بهذه الطريقة دون أن يستشف أنه ذات يوم سيحاول أن يجعل منها مؤلفاً متكاملاً بمعنى الكلمة.

وكان يشعر بأنه سوف يثير الذهول ويتعرض للانتقاد إذ

المراجع:

جان جاك روسو: المصنفات الكاملة، طبعة فيرن، باريس ١٨٣٥ الاعترافات، ص ٢٢٢ ـ ٢٣٠ الجزء الثاني، هلويز الجديدة.

دانيل مورنيه: هلويز الجديدة، باريس، ، هاشيت، ٤ مجلدات، مقدمة ١٩٢٥، طبعة كبار الكتاب ـ هلويز الجديدة ـ باريس ميلوتيه، دراسة وتحليل.

بير تراهار: أساتذة الحساسية الفرنسية.

ينساق إلى كتابة قصة حب، بعدما أعلن من أحكام قاسية ضد الأدب «التافه» وكان هذا الشعور يثير خجله. ولكنه استسلم إلى غرضين : أولهما المتعة التي يحسها وهو يكتب هذه القصة، وثانيهما تخيله أنها قد تكون نافعة.

«إن المخلوقات ذات الكمال لا وجود لها في الطبيعة، ودروسها ليست قريبة منا بما يكفي، لكن أن فتاة يافعة ولدت بقلب رقيق بقدر ما هو شريف، تستلم للحب وهي فتاة، وتجد وهي امرأة فوات لتقهره بدوره، وتصبح فاضلة: فبأي امرىء يقول لك أن هذه اللوحة في جملتها فاضحة وغير نافعة فهو كذاب ومنافق ولا تستمع إليه»[1].

وفي الوقت نفسه يقع حدث لقائه مع مدام دوديتو، أكبر أحداث حياته، وفي الحال يتجسد في شخصها مثله الأعلى: إنه حتى ذاك الوقت لم يحب سوى طيف خيال، وها هو ذا الطيف يتخذ صورة حية نابضة وفاتنة، صورة مدام دوديتو». رأيت جولياي في مدام دوديتو، وسرعان ما لم أعد أرى غير مدام دوديتو»[2].

---

(١) الاعترافات، الكتاب التاسع ص ٢٢٧.

(٢) الاعترافات، الكتاب التاسع، ص ٢٣٠.

وكانت مدام دوديتو ذكية جذابة فاتنة. كانت مرحة وماكرة وواسعة الحيلة مثل كلير، ناعمة رقيقة صادقة مثل جوليا، ولكنها كانت تلك سان لامبير صديق روسو بحيث أنه لكي يمتلكها لكي يسعد بها لا بد أن يخون الصداقة. كان لا يستطيع أن يكون سعيداً إلا بإذا أصبح مذنباً: إن الشهوة تجابه الفضيلة. إن حقوق القلب تواجه حقوق الضمير. إن هذه لمأساة من أكبر مآسي الإنسانية، وهو لم يفعل إلا أن حول هذه المأساة إلى قصة سان برو وجوليا ديتانج.

إن جوليا فتاة نبيلة يتولى تربيتها سان برو، وهو شاب فقير ومن العامة وهي خليقة بالحب، ولم تلبث أن أصبحت محبوبة. ولكنه حب بلا أمل، لأن المسيو ديتانج المتعجرف، الممتلىء الغطرسة لن يعطي ابنته لواحد من العامة. وكانت الحكمة تقضي على سان برو بالرحيل ومحاولة النسيان، ولكنه ليس حكيماً وإذا كان فاضلاً فهو ضعيف. إنه ينقاد للعاطفة.

إن أهمية القصة تبدأ هنا حيث يعنى روسو بالدفاع عن حقوق العاطفة:

إن العاطفة في ذاتها ليست رذيلة. إنها ليست وضيعة. إن لها حقوقها التي كثيراً ما تكون ناصعة ساطعة. إنها ليست علامة على فساد الإنسان ليست قناعاً للخطيئة إنها نداء

القلب، انـدقاق قـواه العميقـة والكـريمـة. وإذن يتعين عـدم التعجل في إدانتها.

إن جوليا وسان برو إذن يعترفان بحبهما، ويتحابان برقة وحنان، ومع ذلـك فإن الفـاصل بين الحنـان الطاهـر والحنان الفاجر زلق، وفيه يتزلق سان برو ويجر جوليا معه، بـل يذهب روسو إلى أبعد من ذلك، فينادي بسيادة العاطفة. فأي أهميـة لأن يرفض بارون غني أن يعطي ابنته إلى بورجوازي صغير فقير إن قرار السماء «يكتب» جوليا وسان برو كلاهما للآخر، وهذا هو القانون الأول الذي ينبغي أن يطاع، ولهذا يسخط كلاهما على المعتقـدات البـاطلة والأوضـاع الـظالمـة التي تغيـر الاتجاهات الأزلية الخالدة»

إن الجزء الأول إذن هو أنشودة للعاطفة الساميـة بيد أن والد جوليا وعد صديقاً له أنقذ حياته بأن يعطيـه ابنته. وتـدرك جوليا أن واجباتها كإبنة مقدمة على واجباتها كحبيبة، فتذعن، وتتزوج المسيو دي فولمار، وتنقلب من عشيقة إلى زوجة وأم، وتصمم على ألا يكون لها واجبات أخرى سوى واجبات الزواج الشـريف. وهكذا فـإن القصة تتحـول من قصة العـاطفـة في بـدايتها إلى قصـة الوفـاء الزوجي والسعـادة في نهـايتهـا. إن النصف الثاني من القصة يقوم على السلام الناجح النافع لزواج بـلا حب، إذا المـرء كيف يضفي عليـه التقـديـر والاحتـرام

والشرف والعمل والخير وحب الأطفال. وقد كتب روسو هذا الجزء من القصة بعد إبتعاده عن مدام دوديتو.

إن جوليا بعد زواجها، وسان برو، لا يستطيعان أن يفكرا في سعادة تبادل الحب، ولكن ثمة وسائل أخرى للحصول على السعادة. إن سعادة جوليا الجديدة تصبح تلك التي عرفها روسو في الشارميت: الحياة الريفية والمشاغل المنزلية، لا في المدن المحمومة بل في ربوع الريف الساكنة الهادئة هناك تجد جوليا أصدقاءها في الأزهار والأشجار والأطيار والآفاق الرحبة وتجد مطمحها في سعادة أهلها ومن يحيطون بها. وهي لن تصبح موضع حب كعشيقة، وإنما كأم، كفاعلة خير وبر، كقديسة يحبها أولادها ومن يخدمونها.

وهكذا تصبح قصة العاطفة السامية قصة الاعتكاف. تتحول قصة التمرد إلى قصة الاعتزال والتقاليد. وبهذا يعتقد روسو أنه استطاع أن يوفق بين قصته واصلاحه الفلسفي.

تحليل القصة :

القسم الأول :

جوليا هي وحيدة البارون ديتانج، تعيش في فيفيى مع أبيها وأمها، ولكي تتم مدام ديتانج تعليم ابنتها فإنها تقدم لها

معلماً شاباً خليقاً بالتقدير طيب الطوية، لكن بلا ثروة ولا حسب. يدعى سان برو. وتتابع معها كلير ابنة عمها نفس الدروس. ولا يلبث سان برو أن يهيم بتلميذته. وهو يصارحها بحبه في رسالة لا ترد عليها، فيعاود الكتابة إليها يشرح وجده مرة أخرى، ومرة ثالثة. وأخيراً ترد عليه، في بادىء الأمر بقصاصات صغيرة تحاول أن تكبت جماحه ثم برسالة مسهبة تعترف فيها بأنها تبادله العاطفة وتعاني في كبتها منذ البداية:

اعترافات جوليا ـ الرسالة الرابعة :

«.... لا مفر إذن من أن أعترف به أخيراً، ذلك السر المشئون الذي لم أفلح في أن أداريه! كم من مرة أقسمت أنه لن يتسرب من قلبي إلا مع حياتي! أما وحياتك في خطر فإنها تنتزعه من ضلوعي، إنه يفلت مني، ويالضيعة شرفي...

ما أدخرت جهداً لوقف مسرى هذه العاطفة المشئومة. وفي عجزي عن المقاومة أردت أن أحمي نفسي من هجومك، إلا أن ملاحقتك إياي خذلت حيطتي غير المجدية. لقد هممت مائة مرة أن أرتمي على أقدام أبوي، وهمست مائة مرة أن أفضي لهما بسر قلبي المذنب، ولكنهما لا يستطيعان أن يفهما ما يعتلج فيه: إنهما سيحاولان أن يجربا دواء عادياً لعلاج داء عضال، وأمي مريضة لا حول لها ولا قوة، وإني

لأعرف صراحة أبي الصلبة، وسأضيع وأفضح الجميع: نفسي وأسرتي، وأنت أيضاً. وصديقتي غائبة، وأخي ولّى وراح، ولا أجد في الدنيا حامياً ضد العدو الذي يلاحقني، وعبثاً أتضرَّع إلى السماء، فإن السماء تصم أذنيها عن دعاء الضعفاء. كل شيء يؤجج السعير الذي يلتهمني، كل شيء يتركني لنفسي وحدي، أو الاحرى أن كل شيء يسلمني إليك. أن الطبيعة جمعاء تبدو متواطئة معك، وكل جهودي تضيع سدى، وأني لأعبدك بالرغم مني، كيف يخفي عنك بقية ضعفه هذا القلب الذي لا يعرف أن يكتم شيئاً؟ آه أن الخطوة الأولى ـ وما أكثر ما تكلفه ـ هي التي ما كان لي أن أقدم عليها، وكيف أحجم عن الخطوات الأخرى، كلا، فمنذ هذه الخطوة الأولى أشعر بنفسي منساقة إلى المهوى، وأنك لتقدر أن تشقيني كما تهوى . .

ومع ذلك فإن لم تكن أخس الرجال طرا، إن كان قبس من الفضيلة يضيء في حنايا روحك، إن كان باقياً فيها أثر من مشاعر الشرف الذي بدأ لي أنك تعزه فهل يمكنني أن أظنك تبلغ من الضعة بحيث تستغل الاعتراف المشئوم الذي ينتزعه مني هذياني الأخرق؟ كلا، إني أعرفك جيداً، سوف تسندني في ضعفي، سوف تكون ظهري، وسوف تحمي شخصي من قلبي.

رباه، أما حسبي مذلة؟ إني أكتب إليك وأنا على ركبتي جاثية، أغرق قرطاسي بعبراتي الجارية، وأرفع إليك ضراعاتي الخجولة الخاشية، ومع ذلك فلا أظن أني أجهل أنه كان يجب أن ترفعها أنت إلي، وأن شيئاً من الدلال ـ وأن جعلني أهلاً للاحتقار ـ كان كفيلاً بأن يجعلك طوع أمري. أي عزيزي، أهنأ بهذا الملك الباطل، ودع لي الشرف. فإني أوثر أن أكون أمة لك محتفظة بطهارتي، عن أن أشتري خضوعك لي لقاء عاري. ولو أضحت لي سمعك، فيا للحب، يا للإحترام الذي يمكنك أن تتوقعه من تلك التي سوف تدين لك بعودتها إلى الحياة! أي فتنة في الاتحاد الرقيق لروحين طاهرتين لم يلحقهما دنس إن أشواقك المكبوتة سوف تكون معين سعادتي، وأن ما تضيئه من لذاذات سوف يكون لائقاً بالسماء ذاتها، ستكون فاضلاً وألا تزدري، سأكون موقرة وألا أشقى هذا هو الأمل الوحيد الذي يتبقى لي قبل الأمل في أن أموت».

إن سان برو يتلقى الاعتراف فيروح في غمرة النشوة القصوى، ويكتب لها:

«أيا قوة السماوات العليا! لقد كان لي روح لأجل العذاب، فهبيني روحاً لأجل السعادة! أيها الحب، يا حياة الروح، هيا أسند روحي فإنها توشك أن تخور! يا

سحر الفضيلة الذي يعي العقول! يا قوة صوت الحبيب أيتها السعادة، أيتها المتعة، أيتها النشوة، ما أمضى سهامك! من يستطيع أن يحتمل وخز نصالك؟! أواه! كيف السبيل إلى صد سيل الملاذ الذي يغرق قلبي! وكيف أبدد وساوس حبيبة خاشية! جوليا.. كلا؟ جولياي على ركبتيها جاثية!؟ جولياي تذرف دموعاً جارية؟... تلك التي يدين لها الكون بالإكرام والإكبار تتوسل إلى رجل يعبدها عبادة ألا يمس شرفها، ألا يجلل نفسه بالعار!؟ لو كنت أستطيع أن أغضب منك لفعلت، من أجل مخاوفك التي تحط من قدري ومن قدرك. أيها الجمال النقي العلوي فلتحسن تقدير طبيعة سلطانك... بربك أي ملاحقات يمكن أن تخشاها تلك التي تغشى بالاحترام والشرف كل ما توحي به من عواطف؟...»

بيد أن العاطفة أقوى من العزيمة، على الأقل لدى سان برو. إنه لا يستطيع التزام الحكمة إلا وهو يعاني أشد التعاسة والشقاء. وهو يشكو:

«إني أذوي وأفني نفسي، النار تسري في عروقي، ولا شيء يستطيع أن يطفئها أو يهدئها، وأني لأوججها إذ أريد أن أخمدها. يجب أن أكون سعيداً، وأني

لسعيد، أعترف بذلك، وأني لا أشكو من نصيبي، وما كنت لأبدله مع ملوك الأرض أجمعين. ومع ذلك فإن شراً حقيقياً يعذبني، ذلك أني أردت أن أعيش لـك، إلا أنك تنزعين مني الحياة. . . » (الرسالة العاشرة).

ولكي تهدىء جوليا روح عاشقها فإنها تعد له مفاجـأة. وهذه المفاجأة هي مشهد الخميلة المشهور، حيث تعطيه قبلة في حضور بنت عمها كلير. أول قبلة للحب. إن سان برو يجن هياماً بعدها، ويصرخ في رسالة طويلة يصور فيها المـوقف إذ هفت الشفة إلى الشفة، ودنا الصدر إلى الصـدر، ودنا القلب من القلب. فكانت القبلة الأولى:

«ماذا فعلت بي، آه يا جولياي، مـاذا فعلت بي؟ أردت أن تكـافئيني فضيعتني! إني لنشـوان أو الأحـرى مسـلوب الصواب. لقد فسـدت حواسي واضـطربت جميع قـواي بهذه القبلة القـاتلة. أكنت تـريـدين أن تخففي آلامي وتسكنيهـا؟ ويحك يا قاسية فقد أهجتها. إنـه لسم ذلك الـذي قطفتـه من شفتيك، إنه يغلي ويحـرق دمي، إنه يقتلني، وهكـذا توردني شفتك حتفي.

إيه أيتها الذكرى الخالدة للحظة الوهم والسحر والغيبوبة هذه، أبداً أبداً لن تمحى من روحي، وطالما أن مفاتن جـوليا منقوشة في أعماقها، طالما أن هـذا القلب يزودني بـالمشاعـر

والـزفرات الحـرى، ستكـونين لحيـاتي مبعث العـذاب الأليم والنعيم!

وا أسفاه! كنت أتمتع بسكينـة ظـاهـريـة، كنت أخضـع لإرادتك العلية فلم أعد أتذمر من نصيب تنازلت فتوليت أمره. لقد كسحت العنيفة لخيال جريء وسترت نظراتي بحجـاب، وأقمت حاجزاً أمام قلبي، ولم تجرؤ أشواقي أن تفلت مني إلا بقـدر محـدود، فكنت قـريـراً بقـدر مـا يستـطاع. وأتلقى قصـاصتـك، وأطيـر إلى ابنـة عمـك، ونقصـد إلى كـلاران، وأراك، ويخفق قلبي، وتزيده نبرات صوتك الرقيقـة اضطرابـاً على اضطراب، وألقاك وأنا نشوان، وكنت في أمـس الحاجـة إلى وجود ابنة عمك لتشغلني حتى أخفي اضطرابي عن أمك. ونتجـوَّل في الحـديقـة ونتعشى في هـدوء، وتسلميني خلسـة رسالتك التي لا أجرؤ على قراءتها أمام هذه الشاهدة الخطيرة، وتجنـح الشمس إلى المغيب، ونهرب نحن الثـلاثـة من بقيـة أشعتهـا إلى الغابـة، ولم تكن سذاجتي الهـائـة تتخيـل حالـة أعذب من حالتي.

وإذ اقتربنا من الخميلة، لمحت ببعض الانفعال الخفي! إشاراتكما السرية، وابتساماتكما المتبادلة، ولون وجنتيك يتخذ نضرة جديدة. ودخلتها فـرأيت لدهشتي ابنـة عمك تـدنو مني وتطلب قبله في توسل ظريف محبب. ودون أن أفهم شيئاً من

هذا السر عانقت هذه الصديقة «الفاتنة، ومع بالغ ظرفها، ومع كل جاذبيتها، عرفت في تلك اللحظة أن الأحاسيس لا وزن لها إلا بما يوحي به القلب!

لكن يا لشدة ما دهاني بعد لحظة، عندما شعرت. أن يدي ترتعد برجفة عذبة، بفمك الوردي، فم جوليا.. يحط يضغط على فمي، وذراعاك تطوقان جسمي! لا، إن نار الصاعقة ليست أشد لظى ولا أسرع انقضاضاً من النار التي اضطرمت في تلك اللحظة في دمي. لقد تجمعت كل حنايا نفسي في تلك اللمسة العذبة، وتصاعد اللهب من شفاهنا المستعرة من ذراتنا الحرى، وكان قلبي يحتضر تحت وطأة الشهوة، وإذا بي أراك تمتقعين فجأة، وتغمضين عينيك الجميلتين، وتتكئين على ابنة عمك، وتهوين مغشياً عليك. وهكذا عانق الذعر المتعة، ولم تكن سعادتي إلا برقاً خاطفاً. لا أكاد أعرف ماذا حدث لي منذ تلك اللحظة المنكودة. إن ما طبعته في نفسي من أثر عميق لا يمكن أن إنها لعذاب أليم. كلا، احتفظي بقبلاتك فإني عاجز عن احتمالها. ما الذعها ما أمضاها. إنها تنفذ وتحرق حتى النخاع. إنها ستجعلني مسعوراً. إن واحدة منها، قبلة واحدة، أوقعتني في غيبوبة لم يعد في وسعي إلا فاقة منها. لم أعد أنا بذاتي، ولم أعد أراك بذاتك. لم أعد أراك كذي قبل زاجرة صارمة وإنما أشعر بك وألمسك بلا

انقطاع ملتصقة بحضني كما كنت في تلك اللحظة. أيه يا جوليا، أياً كان النصيب الذي ينذرني به هيمان لم يعد لي عليه سلطان أياً كانت المعاملة التي تقدرها لي صرامتك، لم يعد في وسعي أن أعيش في حالتي الراهنة، وأحس أنه ينبغي آخر الأمر أن أموت مرتمياً على قدميك... أو بين ذراعيك! - (الرسالة الرابعة عشرة).

وتفكر جوليا في حرص في إبعاد معلمها الشاب مؤقتاً، وترجوه أن يسافر إلى فاليه فيقبل. وأبان ذلك يعود البارون ديتانج، ويقر بأن ابنته قد أفادت من دروس أستاذها، ولكن هذا النبيل المتعجرف لا يريد معلماً لا يتقاضى أجراً، فإما أن يقبل سان برومرو مرتباً وإما أن يوقف دروسه. وكان لا بد أن يوقف سان برو دروسه لأنه لا يستطيع أن يتقاضى مرتباً من والد تلك التي يهواها والتي أغواها. ويرحل ويلتجيء إلى الضفة الأخرى للبحيرة، في مواجهة فيفي حيث تقيم حبيبته، وفي مقر بري موحش يلائم يأسه. ومن هنا فإنه يكتب إلى حبيبته ويصف لها عذابه: وتفكر جوليا في حرص في إبعاد معلمها الشاب مؤقتاً، وترجوه أن يسافر إلى فاليه فيقبل. وإبان ذلك يعود البارون ديتانج، ويقر بأن ابنته قد أفادت من دروس أستاذها، ولكن هذا النبيل المتعجرف لا يريد معلماً لا يتقاضى أجراً فإما أن يقبل سان برو مرتباً وإما أن يوقف دروسه. وكان لا بد أن يوقف سان

برو دروسه لأنه لا يستطيع أن يتقاضى مرتباً من والد تلك التي يهواها والتي أغواها. ويـرحل. ويلتجىء إلى الضفـة الأخرى للبحيرة، في مواجهـة فيفيي حيث تقيم حبيبته، في مقـر برى موحش يلائم يأسه. ومن هنا فإنه يكتب إلى حبيبته ويصف لها عذابه:

«أي جـوليا، يـا للنفس المـرهفـة من هـديـة سمـاويـة مشؤومة، على الذي يتلقاها إلا يتوقع على الأرض سوى الآلام والشقاء. . . إنه يكون العوبة طفيفة في يد الفصول والهـواء. ولـذا فـإن الشمس والضبـاب، والهـواء الحبيس أو الـطلق ستتحكم في مصيره، وسيكون سعيداً أو حزيناً حسبما تشتهي الريح. إنه يكون ضحية النزهات والأباطيل. ولذا فإنه يجد في المبادىء السخيفة السائدة عقبة منيعة أمام أمنيات قلبه الحقة. وسيعاقبه الناس على ما له من مشاعـر مستقيمه عن كـل شيء وعلى أنه يقدرها بما هو حق لا بما هو اتفاق. إنه يكون وحيداً فيصنـع شقاءه بيـده، إذ يستسلم بغير فـطنة إلى مـا للشـريف والجميل من مفاتن علوية بينما أغـلال الضرورة الثقيلة تشـده إلى الهواء والمذلة. .

ذلك هو الموقف القاسي الـذي أجد نفسي فيـه: القدر الذي يبهظني ومشاعري التي ترفعني، وأبوك الذي يحتقرني، وأنت يا مبعث الفتنة والعذاب في حياتي. لولاك أيها الجمـال

الرحيم ما شعرت بهذا التناقض الذي لا يطاق بين الرفعة في أعماق روحي والضعة في نصيبي... أن أراك ولا أستطيع أن أمتلكك أن أعبدك ولا أكون إلا من البشر! أن أكون محبوباً ولا أستطيع أن أكون سعيداً أن تقطن نفسي الأماكن معاً ولا نستطيع أن نعيش سوياً، ايه يا جوليا يا من لا أستطيع أن أهجر، ايه يا قدر يا من لا أستطيع أن أقهر، أي اتصالات مروعة أثرتماها في نفسي دون أن تستطيعا التغلب على جوهر وجدي ولا على عجزي!... (الرسالة السادسة والعشرون)

الزلل والندم :

وتقع جوليا مريضة وتصاب بيأس عميق، وفي نوبة من نوبات الحمى تهذي وتنادي حبيبها، فتخاف عليها كلير وتستدعي سان برو، ويصل ملهوفاً، ويقع المحذور. فبين ظلم أب متغطرس يريد أن يبيع ابنته لصديقه، ويؤثر أن يقتلها على أن يعطيها لواحد من العامة، وبين ضعف أمها، وهيام حبيبها المؤثر، وضنى جسدها، تصل جوليا وتشعر أن صوابها يضيع. وتستسلم. وتصبح عشيقة سان برو.

إلا أنها تشعر بعمق الهوة التي تردت إليها، وتدفع للسعادة التي غمرتها ثمناً قاسياً من الندم.

«أين كنت يا صديقتي الرقيقة، يا حاميتي، يا ملاكي الحارس، لقد تخليت عني، ولقد ضعت. إن الدنيا بأسرها تؤنبني على غلطتي. إن خجلي مسجل على كل شيء. إن الرذيلة قد أفسدت روحي. فدون أن أدري ماذا كنت أفعل اخترت شقائي بيدي. نسيت كل شيء ولم أذكر سوى الحب. وهكذا فإن لحظة الغواية ضيعتني إلى الأبد. لقد سقطت في هوة العار والهوان التي لا تعود منها فتاة أبداً. . .». (من جوليا إلى كلير الرسالة التاسعة والعشرون).

ويحاول سان برو أن يخفف آلام جوليا وأن يثبت لها أن الإثم ليس أن يحب المرء، وأن يستسلم لمن يحب عندما يحب بكل كيانه، وإنما الإثم الوحيد أن يكف يوماً عن حبه وأن يخدعه:

«كوني أكثر عدلاً من نفسك يا جولياي، ولتري بعين أقل تغرضاً الروابط المقدسة التي وثقها قلبك. ألم تتبعي أطهر قوانين الطبيعة؟ ألم توقعي طوعاً أقدس الارتباطات؟ أي شيء فعلته لا تقره الشرائع الإلهية والبشرية؟ ماذا ينقصك من الرابطة التي تجمعنا سوى إعلانها على الملأ؟ أي زوجتي أي رفيقتي الموقرة الطاهرة (ي فتنة حياتي ونعيمها كلا، ليس ما فعله

حبك يمكن أن يكون إثماً: ليس إلا قبولك زوجاً آخر يمكنـك أن تمس الشرف. إن الـرابـطة التي تجمعنـا شرعية وإن الخيانة التي تفصمها هي فقط الذميمة». .
(إلى جوليا، الرسالة الحادية والثلاثون).

الأزمة والانفصال ورحيل سان برو :

لا يمكن التفكيـر في موضـوع زواج بين العـاشقين لأن البارون ديتانج والد جوليا رجـل متغطرس «منفـوخ» بالأبـاطيل الاستقراطية ولن يوافق على زواج ابنته من أحد من العامة مهما كانت الظروف. ويتصل سان برو بصديق انجليـزي له يـدعى اللورد إدوارد ليتـدخـل. ويسعى اللورد ويـدافـع عن قضيـة صديقه، ويقـول أن لديـه جميع صفـات القلب والذكـاء، ولا شيء يحول دون زواجه بجوليا إلا الأباطيل السخيفة.

ولكن المناقشة تفشل، لا المسيو ديتانج عنيد فيما يتعلق بنبله. وإلى هنـا لم يكن يعلم أن ابنته قـد زلت مع سـان برو وأضحت عشيقته. ويفاجأ بالحقيقة فيرتمي عليها وينهال ضرباً، وينهاها عن رؤيته إطلاقاً، ويهددها بقتله إذا أبصره بقربها يوماً. ويرحل سان برو مع اللورد إدوارد، وتتم خطبة كلير إلى المسيو دروب.

الجزء الثاني :

هكذا يتبدد حلم سان برو. إنه في تعطشه إلى السعادة يضل في خيال محال ثم يصدم بالحقيقة المحتومة المرة والحزنة. لقد ضاعت منه جوليا. ويكتب لها من منفاه:

«لم يعد كلانا للآخر، لم نعد نفسينا، ولم أعد أدري لمن أكتب. هل تتنازلين بتلقي رسائلي؟ هل تتنازل عيناك فتطالعانها؟ وهل أجرؤ أن أتحدث فيها عن حب مخمور أو محقر؟» (الرسالة الأولى، الجزء الثاني).

(ويكتب اللورد إدوارد إلى كلير لكي يجعلها تقف على مجرى الأمور، ويقول لها أنه مهتم بمصير الزواج التعس. إن سان برو وجوليا زوجان رائعان خصصتهما السماء بعضهما لبعض: لماذا يأتي اعتقاد باطل أخرق فيغير الاتجاهات الأزلية الخالدة، ويقلب اتساق الكائنات المفكرة؟ لماذا يئن كبر أب قاس في دموع قلوب رقيقة خلقت لتأسو قلوب الغير (الرسالة الثانية، الجزء الثاني).

إن اللورد إدوارد لا يستطيع أن يحتمل هذا الظلم ـ فيجب أن يتزوج العاشقان، وليس ثمة سوى وسيلة واحدة. أن لديه في دوقية يورك أرضاً قيمة، فليذهب إليها العاشقان عيشة سعيدة هانئة في حماية القوانين الإنجليزية.

وعندما تتلقى جوليا الاقتراح تتردد: هل تختار عاشقها أم تختار أبويها إن هي رفضت اقتراح اللورد فإنها تقي بحبيبها في لجة اليأس، وإن هي قبلته فإنهـا تخل بـواجباتهـا نحو أبيهـا. وبعـد بحث وتفكير تـرفض الملاذ الـذي عرضـه عليها اللورد إدوارد. (الرسالة السادسة من جوليا).

ويقرر سان برو في غمرة يأسه أن ينسى حبه، وأن يعيش حيـاة فاضلة مفيـدة، ويذهب إلى بـاريس ليخلق لنفسه حيـاة جديدة وليعرف الدنيا. وهكذا يبتعد عن جوليا مائة فرسخ، هو الذيٰ لا يستطيع أن يعيش وشارع واحد يفصل بينهما!

وخافت عليه جوليا من فساد باريس ومجتمعهـا المنحل فانهالت على عنوانه بالنصائح والمواعظ، ورد هو عليها برسائل مسهبة يرسم لها فيها حياة المجتمع وينتقـد الأخلاق الـزوجية ويصور ما بلغته من انحلال إن سيـدات المجتمع الفـرنسيات ينشئن بناتهن بصرامة شديدة، وأولئك بنات يقبلن على مضض أزواجاً طاعنين في السن، قساة، متجبرين، لا مبالين، وكأنما يحدث ذلك ليأخذن بثأرهن، فهن يعتبرن الزواج بمثابة التحرر وبمـوافقة أزواجهن يخضن غمـار المغامـرات الغـراميـة على هواهن. فالـزواج عندهن لا يعني أكثـر من إتفاق على تبـادل المنفعة. إن لكل زوجة خصوصياتها وغرامياتها. وما هـو خطأ لدى الفتاة ليس خطأ الزوجة، فكل شيء لديها مباح، حتى الزنا:

«ليس مسموحاً قط للفتاة أن يكون لها قلب، فهذا الحق محفوظ للسيدات المتزوجات وحدهن، ولا يحرم من الاختيار سوى أزواجهن. فإن يكون للأم عشرون عشيقاً أفضل من أن يكون للبنت عشيق واحد. والزنا لا يثير أحداً، ولا يجدون فيه ما يخالف الآداب العامة. أي جوليا؛ أي امرأة لم تتورع عن تدنيس فراش الزوجية مائة مرة تجرؤ أن تتهم بفمها النجس حبنا العفيف؟!». (إلى جوليا الرسالة الحادية والعشرون).

وفي الرسالة نفسها ينتقد سان برو الباريسيات بشدة، لأنهن يستعضن عن الجمال بالزينة المصنوعة، بالتبرج، وبدلاً من الحياء والاحتشام في ملبسهن يضعن الخلاعة، خلاعة الموضة «والأصباغ والنحور العارية والسلوك:

«إن النساء لا يطيب لهن العيش إلا مع الرجال، ولا يأخذن راحتهن إلا معهم. ففي كل المجتمع تكاد ربة البيت تكون وحيدة دائماً وسط حلقة من الرجال. إنه ليصعب على المرء أن يتصور كيف يستطيع كل هذا العدد من الرجال أن ينتشر في كل مكان، ولكن باريس مليئة بالمغامرين والعزاب ينفقون حياتهم في الجري من دار إلى دار»

وينتهي هـذا الجزء بـأزمة خـطيرة: فـإن مـدام ديتـانـج تكتشف الرسائـل المتبادلـة بين ابنتها وسـان برو وتعلم بـالسر المشؤوم عندما تطلع على رسالة من جوليا إلى عاشقها تعلن له فيها أن كل شيء قد ضاع. وينتاب مدام ديتانج مرض شديد، نتيجة لهذه الأنباء السيئة.

الجزء الثالث:

حـرصاً على عـدم تـدهـور صحـة الأم، ورغبـة في أن تستعيد جوليا حريتها، فإن كلير التي أصبحت منذ قريب مدام دورب، تلح على سان برو أن يهجر جوليـا. ويفهم سان بـرو ـ رغم يأسه ـ أن هذا واجبه، ويعد مدام ديتانج بأن يتصرف كما تشاء وأن يختفي ويكلف مدام دورب أن يبلغها جوابه:

«خذي يا قاسية، هاك ردي. وحين تقرئينه ذوبي دموعاً إن كنت تعرفين قلبي. هل تشعرين جيداً بأنك تنتزعين روحي؟.. ما حديثك هذا عن خطورة حال أمها؟ آه ما قيمـة حياة أي أم، أمي، أمـك، حتى أمها، مـا قيمة وجود الدنيا بأسرها بجانب قيمة المشاعر العـذبة التي توحد بيننا؟ أيتها الفضيلة المتوحشة! إني أطيع صوتك دون حق، إني أمقتك وأنا أفعل كل شيء في سبيلك! ما هي سلوتك الفارغة إزاء آلام الروح العارمة؟...»

(إلى مدام دورب، الرسالة الثالثة).

وتتوفى مدام ديتانج، تاركة ابنتها يائسة، معتقدة أنها سبب موتها. ويخطر البارون ديتانج جوليا بأنه وجد لها زوجاً، فترد بأنها أقسمت لسان برون ألا تتزوج غيره أبداً، لا يمكن لنبيل أن يحنث بمثل هذا القسم. وعندئذ يتصل البارون بسان برو ويسأله أن يحل جوليا من وعدها، فيفعل، لكنه في نفس الوقت يبعث للبارون برسالة مريعة يقول فيها:

«أياً كانت السلطات التي تسيء استغلالها فإن حقوقي أقدس من حقوقك وعندما تتجاسر على معارضة الطبيعة فأنت وحدك الذي تتحدى القوانين... لا تتعلل قط بهذا الشرف الغريب الذي تتحدث عن الانتقام له، فما من أحد يهينه سواك. احترم اختيار جوليا يكن شرفك في أمان، لأن قلبي يجلك رغم إهاناتك، ورغم المبادىء القوطية البربرية فإن مصاهرة رجل شريف لن تشين أبداً رجلاً آخر. اذهب أيها الأب البربري غير الجدير باسم في مثل هذه العذوبة» (الرسالة الحادية عشرة).

زواج جوليا:

وتوافق جوليا على الزواج من المسيو دي فولمار، لكن

وهي مصممة تماماً على أن تكون بقلبها لحبيبها. ومع ذلك ففي لحظة مراسيم الأكليل، أمام الهيكل، تعتمل في نفسها ثورة: فهي تفهم خطورة جلال الزواج وجماله، وهي تصمم كما لم تصمم من قبل على احترام زوجها. واتباع واجباتها الجديدة بإخلاص لدرجة أنها تكتب إلى سان برو لكي يكف عن مراسلتها.

إن مشهد الزواج هذا، الذي نرى فيه تدخل العناية الإلهية لإنقاذ الفضيلة هو الجزء الرئيسي في القصة. وقد شرحته جوليا شرحاً مستفيضاً في رسالتها إلى سان برو:

«إن اليوم الذي فصل بينك وبيني إلى الأبد يبدو لي آخر أيام حياتي كلما اقتربت من اللحظة المشؤومة كان يعز علي أن انتزع من قلبي عواطفي الأولى. ففي لحظة كنت أتأهب لأقسم لآخر بالإخلاص الأبدي، كان قلبي يقسم لك أيضاً بالحب الأبدي. واقعاً دوني إلى الهيكل مثل قربنان يخس يدنس التضحية التي سوف يسفك لها. وعندما وصلت إلى الكنيسة، شعرت وأنا أدخل، بضرب من الانفعال لم أشعر به من قبل: ضوء المبنى الشاحب، سكون المشاهدين المطبق، هياتهم الخاشعة المتحفزة، تجمع كل أقاربي، طلعة أبي الوقور المهيبة، كل هذا أضفى

على ما سيحدث مسحة من الجلال حثتني على الانتباه والاحترام، أعتقدت أني سأرى أداة العناية الإلهية وأسمع صوت الله في شخص هذا القس ينطق بالدعاء المقدس. إن طهارة الزواج، وكرامته وقدسته المشروحة في الكتاب المقدس شرحاً قوياً مؤثراً، وهذه الواجبات القدسية الجليلة البالغة الأهمية للسعادة والنظام والسلام، والمتعذبة الاداء من أجل ذاتها، كل ذلك أحدث في نفسي تأثيراً بلغ من شأنه أن خلت أني أشعر في دخيلتي بثورة مفاجئة.. قلت لنفسي، إن العين الأزلية التي ترى كل شيء، تقرأ الآن خبيئة قلبي، إن السماء والأرض شاهدتان على العهد المقدس الذي أقطعه على نفسي...» (من جوليا، الرسالة الثامنة عشرة).

في هذه الرسالة الهامة يهاجم روسو أيضاً سفسطة عصره العاطلة التي تزعم تبرير الزنا بوصفه علاجاً لمخذورات الزواج، ويصف روسو الزنا بأنه حنث في قسم، إهانة لله خلط للإنساب، اعتراف بالكذب، إثارة للشقاق والجرائم.

وهكذا فإن جوليا، زوجة المسيو فولمار، تكف عن حب سان برو كعشيق ولكنها لن تنساه. لقد أعداها الزواج إلى الفضيلة. وما دام كل شيء بينه وبين جوليا قد انقطع فإن سان

برو لا يرى الدنيا إلا كحل ثقيل غير مجد. ويفكر في الانتحار. ولكن صديقه اللورد أدوارد يكافح هذا الاتجاه المشؤوم بتفنيد رائع للانتحار بالرسالة الثانية والعشرون ـ ويضمه كمهندس إلى أسطول الاميرال أنسون الذي يزمع الإبحار في رحلة حول العالم تستغرق بضع سنوات.

الجزء الرابع:

تصبح جوليا أماً. إنها تنجب طفلين فاتنين، تحيا حياة نشيطة هادئة حافلة بالمشاغل المنزلية. والمسيو دي فولمار رجل فاضل وزوج طيب. ومع ذلك فإن جوليا ليست سعيدة، فهي لا تحس راحة الضمير. ألا ينبغي أن تعترف لزوجها بكل شيء؟. إنها لم تفعل خوفاً من أن تطرد، ويحرم ابناها من أمهما. ثم أنها لم تنس سان برو، الذكريات تقلقها وتزعجها، فتكتب إلى كلير ـ مدام دورب ـ تناشدها أن تجيء لتشد أزرها في محنتها، وتسند كيانها المضني.

ويخطر سان برو مدام دورب بعودته، بعد رحلته البحرية التي استغرقت أربع سنوات، ويؤكد لها أنه لم ينسى جوليا، وأنه يحبها كما ينبغي أن تحب يحبها بفضيلة، وأنه يحب أن يكون محل تصديق، وأن يسمح له برؤيتها.

وتتحقق أمنية سان برو، على نحو أفضل مما كان يطمع فيه، فإن المسيو فولمار يكتب إليه:

«رغم أننا لم نتعارف بعد فإني مكلف بأن أكتب إليه، إن أحكم النساء وأعزهن قد فتحت قلبها لتوها لزوجها السعيد. وهو يعتقد أنك جدير بأنك كنت موضع حبها، وهو يقدم لك بيته. إن البراءة والسلام يسودان فيه، وستجد فيه الصداقة وكرم الضيافة والتقدير والثقة. فاستشر قلبك، وإذا لم يكن فيه ما يروعك فتعال دون خشية». (من فولمار إلى سان برو، الرسالة الرابعة).

وقد ذيلت الرسالة بكلمة خطتها يد جوليا، تستحث فيها سان برو على القدوم. وينبغي الا يندهش لفلسفة المسيو فولمار الشاذة، وهو نفسه سيبررها لنا بعد قليل. على أنها كانت متفقة تماماً مع أخلاق ذلك العصر. فإن اتحاداً القلوب اتحاد افلاطونياً كان يبدو عندئذ مثلاً أعلى طبيعياً، حتى أن هذا التصرف الغريب الذي يذهلنا اليوم كان يقبل دون دهشة في ذلك العصر. بل إن الذين انتقدوا القصة لأسباب أخرى لم ينتقدوها لهذا السبب.

الثقة والزلة:

ويصل سان برو، ويؤخذ بفتنة جوليا الزوجة وفضيلتها، وبحكمة المسيو فولمار وطيبته. ويصف لصديقه اللورد إدوارد في رسالة مسهبة الحياة التي يعيشها المسيو فولمار وزوجته في قصرهما: حياة ريفية مدبرة بحكمة، ومتميزة بالكرم واللطف حيال الخدم.

وفي رسالة من جوليا إلى كلير ـ الرسالة الثانية عشرة ـ يشرح لنا روسو مسلك المسيو فولمار تجاه جوليا وسان برو. إن دي فولمار مثال للحكماء. فهو لم يكن عندما تزوج جوليا يكن لها أية عاطفة، لأن قلبه يجهل العاطفة ولكنه كان يقدرها باعتبارها الشخص الوحيد الذي استطاع أن يؤثر في فؤاده. ولم يكن يجهل حالة قلبها، بل يرى أنها إن كانت قد أخطأت فهو خطأ مغتفر. وهو يعرف أنه كان مستحيلاً أن تتزوج سان برو، وأنها لو تزوجته لعاشت في تعاسة وشقاء. وقد تزوجها هو فرد لها اعتبارها، ووضع فيها وفي سان برو ثقة مطلقة. ولكي يثبت ذلك فقد سافر لمدة خمسة أيام أو ستة إلى قصر ديتانج لإنجاز بعض الشؤون تاركاً العاشقين في خلوة.

وفي خلال غيابه هذا حدثت النزهة في بحيرة ليمان، حيث كان لا بد أن تغرق فضيلة جوليا وسان برو وفلسفة المسيو دي فولمار. إن سان برو يصف لنا تلك النزهة في رسالته

المشهورة إلى صديقه اللورد إدوارد ـ الرسالة السابعة عشـرة ـ وهي واحدة من أروع الرسائل التي يـذكرهـا المعجبون بهلويز الجديد وتعد مثالاً للنثر المليء بالشعر المؤثر. غير أنها كان لها مغزى آخر: هو أن عاطفة عظمى مثل عاطفة سان برو لا يمكن أن تـذوي رغم قوة عـزيمة العـاشقين، وأن الفضيلة مهما بلغ سلطانها لا تمحو قط آثار الحب الصادق من القلب.

الجزء الخامس:

يصور سان برو في رسالة طويلة إلى اللورد إدوارد لوحة للحيـاة التي تجري في قصـر كـلاران، وللسعـادة التي تسـود معـاملة المسيو والمـدام فولمـار المنزليـة ويشرح أسـرار تلك السعادة. وتعد الرسالة بحثاً قيماً في الأخلاق المنزلية فمسـألة السعادة هذه، وتحقيقها على الأرض، كانت إحدى المسائـل التي تناقش بكثرة في عصر روسو. وقد تناولهـا كتاب كثيـرون لكن على نحو نظري. ولكن تفوق روسو وسر نجاحه، أنه على حد قول دانيل مورنيه ـ يجعل «أخلاقه تحيا» يقول روسو:

«إن الظروف الطبيعية للإنسان أن يفلح الأرض ويعيش من ثمارها إن ساكن الحقل الهادىء ليس محتاجاً لأن يشعر بسعادتـه إلا أنه يعـرفها فكـل متع الإنسـان في متنـاوله، ولا متـاعب لديـه سوى المتـاعب الملتحمة

بالإنسانية هذه الحالة هي الحالة الوحيدة الضرورية والنافعة. فهو ليس تعساً إلا عندما يظلمه الآخرون بالقوة، (يغرونه على تقليد رذائلهم. ففيه يتمثل الازدهار الحقيقي لدولة ما، ومنه تستمد قوة شعب ما وعظمته.. وعندما يراد تقدير القوة العامة فإن المتحذلق يزور الأمير وموانيه وجيوشه وترساناته ومدته أما السياسي الحقيقي فإنه يتجول في الأرض ويذهب إلى كوخ الفلاح...» (الرسالة الثانية).

وفي الرسالة الثالثة يعرض روسو بعض خواطره في تعليم الأطفال، مما سنتناوله فيما بعد، في تحليل مؤلفه الخالد «إميل» وفي الرسالة الخامسة يعرض «عدم تصديق» المسيو دي فولمار الذي يسبب أحزان جوليا. وهكذا فإن روسو بعد أن علمنا الحكة المنزلية، والحكمة الريفية، يعطينا درساً في الحكمة الفلسفية: ففلسفته تواجه فلسفة الفلاسفة الباطلة.

فالمسيو فولمار يمثل الفلاسفة. إنه غير مؤمن بالله. لقد ولد في روسيا فلم يستطع أن يعتقد في حمامات الدين الارثوذوكسي. وأراد أن يتعمق الأمر بنفسه فوجد نفسه يغوص في ظلمات المتافيزيقا، حيث لم يجد غير الشكوك والمتناقضات وعدم تصديقه هذا يعذب زوجته العميقة التقوى. إنها لا تفكر، ولا تستدل ولذلك فهي تؤمن. إنها روح رقيقة

مجبولة على التقوى تستمد من قلبها نفحة الإيمان.

ويختتم الجزء الخامس بسفر سان برو إلى إيطاليا، في صحبة اللورد إدوارد.

الجزء السادس:

تعرض جوليا على سان برو أن تزوجه من بنت عمها كلير التي توفي زوجها المسيو دورب، ولكنه يرفض ويبرر رفضه ويتضمن رده تأنيبه المشهور للنساء. فالمرأة شيء غال مشؤوم، جملته الطبيعة من أجل عذابنا. فهي تقبل على الرجل إذا تجنبها وتدبر عنه إذا طاردها، وهي تصد وتصل على هواها. وهي الجمال والفتنة والجاذبية والعطف والخيال ولكنها هوة الآلام والشهوات. ثم يقول مخاطباً هذا الكائن الغريب: ما أتعس من يستسلم لهدوئك الخداع! أنت الذي تولد العواصف التي تعذب الجنس البشري. أي جوليا، أي كليرا ما أغلى الثمن الذي تبيعان به لي تلك الصداقة القاسية. . . .»» (الرسالة السابعة).

وتتبع هذه المناقشة العاطفية مناقشة دينية عن فاعلية الدعاء. فهو يرى أننا نواجه إهانة للحكمة والطيبة الإلهية حين نسألها أثناء الدعاء تحقيق مطالب شخصية، فكل المؤمنين وكل اللاهوتيين يقبلون «دعاء الخشوع والعبادة». لكن الأمر ليس

كذلك فيما يتعلق بدعـاء «المطالب» والـذي نسأل الله فيـه أن يحقق لنـا مكرمـة. ألا يفترض ذلـك أن الله الكامـل الحكمة والطيبة قادر على ألا يريد لنا كامل الحكمة؟ هل هو قادر على أن ينسانا؟ وهل ينبغي أن إنسانـاً جاهـلاً وضعيفاً يـذهب لكي «ينير» القادر، ويذكره بالمكرمات التي نسي أن يعطينا إياها؟

ثم تقع الكارثة : وفاة جوليا.

كانت الأسرة كلها قد ذهبت إلى قصر شيون للغـذاء. . وبينما كان ابنا جوليا يجريان على حاجـز الخزان تعثـرت قدم أحدهما وسقط في الماء. وتلقي جوليا بنفسها وراءه لتنقذه من الغرق. وينقضي وقت طويل قبل أن يتم انتشالهما من الماء. وتصاب جوليا بالتهاب رئوي، ويتعـذر شفاؤهـا منه، فتمـوت ويخطر المسيو دي فولمار سـان برو بمـوتها في رسـالة طـويلة ـ الرسالة الحادية عشرة ـ تتضمن جوهر دين روسو.

الفصل الثالث

العقد الاجتماعي

١٧٦٢

العقد الاجتماعي هو أهم مؤلفات روسو السياسية. وقد كان روسو مشغولاً دائماً بمسائل الدولة والحكومة. وكان قد بدا في البندقية عام ١٧٤٤ مؤلفاً ضخماً عن الأنظمة السياسية. والعقد الاجتماعي جزء من هذا المؤلف الذي لم يستطع أن يكمله. وعندما نشر عام ١٧٦٢ كان لا بد أن يكون له تأثير عميق عن الأذهان وحسبته أن مؤلف العقد الاجتماعي أصبح في نظر جميع الجمهوريين هو الأب الحقيقي للثورة الفرنسية.

تحليل العقد الاجتماعي:

الجزء الأول:

يبدأ روسو كعادته بجملة قوية ذات تأثير وفعالية: «ولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان يكبل بالأغلال». يريد بذلك أن يقول أنه لا توجد أسباب طبيعية لأن يخضع الإنسان لإنسان مثله، ولا أن يذعن شعب لإرادة أمير واحد وقوانينه. ومع ذلك

لإن هذا هو المشهد الذي يطالعنا في الكون بأسره.

وهو يعترف بأن النظام الاجتماعي حق مقدس ينهض كأساس للحقوق الأخرى كافة. ومع ذلك فإن هذا الحق لا ينبثق من الطبيعة، وإذن فهو يقوم على اتفاقات. فما هي هذه الاتفاقات؟.

حق الأبوة:

إن الأسرة هي النموذج الأول للمجتمعات السياسية. «فالرئيس بمثابة الأب، والشعب بمثابة الأولاد» ـ إلا أن الأولاد لا يظلون مرتبطين بالأب إلا بقدر احتياجهم إليه لاستبقاء وجودهم. فبمجرد أن تنتهي هذه الحاجة تنحل الرابطة الطبيعية. ومع ذلك فإن روسو لا يقف طويلاً عند هذه الموازنة بين «الملك» و«الأب»؛ ويكتفي بأن يسخر على هذا النحو: «الفارق هو أن حب الأب لأولاده في الأسرة ـ يعوضه عما يشملهم به من رعاية أما في الدولة فإن لذة الحكم تحل محل هذا الحب الذي لا يكنه «الملك للشعب»

حق الأقوى:

يثور روسو ببلاغة ضد حق الأقوى، فكيف تستطيع القوة أن تخلق الحق؟ إن القوة مقدرة بدنية. وهو يقول: لست أرى

أي مغزى أخلاقي يمكن أن ينتج عن أفعالها. فالإذعان للقوة هو من مقتضيات الضرورة وليس الإرادة. ومنذ اللحظة التي يخضع فيها المرء بالقوة فإنه يستطيع أن يعصي عصياناً مشروعاً. وإذن فالأمر أن يسعى المرء لأن يكون هو الأقوى. فأي حق هذا الذي يتلاشى إذا راحت القوة؟.

حق الاستعباد:

يهاجم روسو نظرية جروسيوس التي تقول بأن الشعب يستطيع أن يتصرف في حريته وأن يصبح تابعاً للملك، تماماً كما يتصرف الفرد في حريته ويصبح عبداً للصيد. إن روسو يثور على هذه الفكرة: أي شيء أشرف من أن يبيع المرء حريته ما لم يكن ذلك ليشتري طمأنينته، ومع ذلك فإن الرعايا لا يكسبون شيئاً بهذه المبادلة ثم أن المرء لا يمكن أن ينبذ حريته نبذاً مشروعاً.

«أن يطرح المرء حريته هو أن يطرح صفته البشرية وحقوق الإنسانية بل واجباته. مثل هذا الأطراح لا يتفق وطبيعة الإنسان. . . .

«وإذا استطاع كل امرىء أن يتصرف في نفسه، فهو لا يستطيع أن يتصرف في نسله، فهم يولودون بشراً وأحراراً، وحريتهم تخصهم، وما من أحد يحق له أن يتصرف لهم فيها. .

وإذن فإن حق الاستعباد باطل، ليس فقط لأنه غير مشروع، بل أيضاً لأنه سخيف ولا معنى له. ولا بد لبناء أساس النظام الاجتماعي من أن ترجع إلى اتفاق «أول قديم غير حق الأبوة، وحق القوة، وحق الاستعباد، التي فندها.

المراجع:

- جان جاك روسو، باريس ١٨٩٣ الفصل السادس، العقد الاجتماعي، لشوكيه
- القرن الثامن عشر، روسو المفكر، الجزء الثامن، أفكاره السياسية، لإميل فاجيه.
- جان جاك روسو، باريس ١٩٢٥، الطبعة الأربعون، العقد الاجتماعي، لجول لومتير.
- تاريخ الأدب الفرنسي، جان جاك روسو، الوحدة لدى المؤلف، لجوستاف لانسون
- جان جاك روسو، طبعة هاتييه، باريس ١٩٤٦، العقد الاجتماعي لفلاندران.
- جان جاك روسو في تقدير الفرنسيين اليوم، باريس ١٨٩٠ لكارتيريه
- حياة جان جاك روسو ومؤلفاته، باريس ١٨٢٧ ص ١٥٣ وما بعدها لموسيه باتيه
- أساتذة الحساسية الفرنسية، طبعة بوفان ٤ مجلدات، الجزء الثالث، الفصل الثالث، لبيير تراهار.

الميثاق الاجتماعي:

إن الاتفاقات هي أساس كل سلطة شرعية، هي دعامة المجتمع المدني هي «العقد». فبفضل هذا العقد تتكون جماعة تدافع بكل قوتها الجماعية عن شخص ومال كل عضو مساهم فيها، وبها يتحد كل فرد في المجموع، ولا يطيع مع ذلك إلا نفسه، ويبقى حراً كما كان من قبل. فكل فرد يقدم للمجموع كل قدرته تحت الإدارة العليا «للإدارة العامة» وهكذا تنتج هيئة معنوية وجماعية مؤلفة من عدد من الأعضاء بقدر ما للهيئة من أصوات.

هذه الهيئة السياسية اسمها «الدولة، عندما تكون سلبية، واسمها «السيد» عندما تكون إيجابية. وأعضاء هذه الهيئة الذين يتخذون اسم «الشعب» يسمون «المواطنين» بوصفهم مشتركين في «السلطة العليا» و «الرعايا» بوصفهم خاضعين لقوانين «الدولة».

الجزء الثاني
السيادة لا تقبل التصرف

بعد أن وضع روسو هكذا نظرية السيادة فإنه يستخلص منها نتائج خطيرة. وأول هذه النتائج وأهمها أن الإدارة العامة

تستطيع وحدها أن توجه قوى الدولة نحو هدف نظامها، وهو الخير المشترك. ولما كانت السيادة ليست إلا تنفيذ الإدارة العامة فإنها لا يمكن أن تكون محلاً للتصرف، والسيد الذي ليس إلا كائناً جماعياً لا يمكن أن يمثل إلا بذاته: إن السلطة تمكن أن تنتقل، ولكن ليس الإرادة. وليس مستحيلاً أن إرادة خاصة - إرادة الأمير أو السلطان تتفق في بعض النقاط مع الإدارة العامة، ولكن المستحيل أن يستمر هذا الاتفاق ويستقر. إن السيد، الذي هو الشعب، يستطيع أن يقول: إني أريد فعلاً ما يريده هذا الرجل، ولكنه لا يستطيع أن يقول: إن ما سيريده هذا الرجل غداً سأريده أنا أيضاً.

السيادة لا تنقسم:

ولنفس السبب فإن السيادة لا تنقسم. لأنها إما إرادة عامة، وإما ليست كذلك. وهنا نجد فقرة يبدو أنها موجهة ضد مونتسكيو:[1]

إن سياسينا، وقد عجزوا عن تقسيم السيادة من حيث المبدأ يقسمونها من حيث القوة ومن حيث الإرادة، إلى سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية الخ. وهم أحياناً يخلطون كل هذه

---

(١) مؤلف روح القوانين، والرسائل الفارسية، وعظمة وانحلال الرومان.

الأقسام، وأحياناً أخرى يفصلون بينها وهم يجعلون من السيد كائناً خيالياً ومكوناً من أجزاء موصولة، وهذا أشبه بما لو كونوا الإنسان من عدة أجسام: لأحدها عينان، وللآخر ذراعان، وللثالث قدمان، ولا شيء غير ذلك. إن حواة اليابان - فيما يقال - يمزقون الطفل أمام عيون النظارة إلى أشلاء، ثم يقذفون في الهواء بجميع أعضائه واحداً وراء الآخر، ثم يسقطونه من حالق حياً وملتحم الأعضاء. وهذه تقريباً لعبة حواتنا السياسيين، فبعد أن قطعوا أوصال الهيئة الاجتماعية في سحر يليق بالسوق الكبير، يجمعون الأشلاء لست تدري كيف. هذا الخطأ مأتاه أنهم ليس لديهم فكرة صحيحة عن السيادة العليا وأنهم أخذوا ما ليس انبثاقات تصدر عنها على أنه أجزاء منها».

القانون:

لئن كان الميثاق الاجتماعي يعطي الوجود والحياة للهيئة السياسية فإن التشريع يعطيها الحركة والإرادة. فالقانون إذن هو تعبير الإرادة العامة.

إن هدف القانون، دائماً عام وفي سبيل المصلحة العامة، وإلا فقد قوته ولم يعد قانوناً، وهكذا فإن القانون يمكن أن يقرر أنه ستكون هناك امتيازات، ولكنه لا يستطيع أن يعطيها لأشخاص معينين، والقانون يستطيع أن يجعل من المواطنين

طبقـات عديـدة، ولكنه لا يستـطيـع أن يعين هؤلاء أو أولئـك بعينهم ليدخلوا في طبقة مـا. إنه يستـطيع أن ينشىء حكـومة ملكيـة، ونظام وراثـة للعرش، ولكنـه لا يستطيـع أت يتخـذه ملكاً، ولا أن يحدد أسرة ملكية، وجماع القول: أن كل عمل يتعلق بموضوع فردي فهو ليس من شأن السلطة التشريعية.

ويضيف روسو: وبناء على هذه الفكرة يرى المرء لأول وهلة أنه لم يعد ثمة محل للتساؤل عمن له حق إصدار القوانين ما دامت من أعمال «الإدارة العامة» ولا عما إذا كان الأمير فوق القانون ما دام الأمير عضواً في الدولة، ولا عما إذا كان يمكن أن يكون القانون ظالماً، لأنه ما من أحد يظلم نفسه.

وفي نفس هذا الفصل الخـاص بالقـانون يعلن روسـو: إني اسمي «جمهورية كل دولة تحكمهـا القوانين تحت شكـل من الإدارة أياً كان هذا الشكل، لأن المصلحة العامـة عندئـذ هي التي تحكم وحـدها، والشيء العـام شيء له قيمـة، وكل حكـومة شـرعيـة جمهـوريـة. وهـو سيشـرح مختلف أشكـال الحكومة في الجزء الثالث.

إن روسـو ينكر على «المجمـوع الأعمى» القـدرة على وضع النظام التشريعي. إن الإرادة العامة مستقيمة دائماً، ولكن التقدير الذي يقودها ليس مستنيراً دائماً، وإذن فلا بد من وجود فقهاء مشرعين.

الجزء الثالث :
في الحكومة :

إن «السيد» في حاجة إلى وكيل أمين ينفذ الإرادة العامة، إلى سلطة أخرى تفتت القانون إلى أحكام خاصة. هذه السلطة هي الحكومة أو الهيئة التنفيذية. فالحكومة تستعمل القوة العامة وفق توجيهات الإرادة العامة. ويعقد روسو مقارنة في هذا الصدد: «كل عمل حر له سببان يسهمان في إنتاجه أولهما معنوي، أي الإرادة التي تعين العمل، والآخر مادي، أي السلطة التي تنفذه. عندما أسير نحو غرض، لا بد أولاً أن أريد أن أذهب، وفي المكان الثاني أن تحملني قدماي إليه. والهيئة السياسية لها نفس هذين الوجهين فالمرء يميز فيها القوة كما يميز فيها الإرادة، هذه تحت اسم السلطة التشريعية والأخرى تحت اسم السلطة «التنفيذية».

وهكذا فإن الحكومة هي هيئة وسيطة بين الرعية والسيد من أجل تعاملهما المتبادل، وهي مكلفة بمهمة تنفيذ القانون، وفعلها في «الشخص العام» هو فعل اتحاد الروح والجسم في الشخص البشري. الحكومة هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية، والأمير أو الحاكم هو الشخص أو الهيئة المكلفة بهذه الممارسة أو الإدارة.

عبثاً إذن يحاول هوبز ولوك الزعم بأن القرار الذي يتخذه الحاكم هو عقد فهو ليس سوى قانون. إن الأمناء على السلطة التنفيذية هم عمال الشعب وليس سادته، فالشعب له أن يستبقيهم أو يقبلهم إذا أراق له ذلك، وهم لا يملكون في الوظائف التي تفرضها عليهم الدولة، إلا أن يطيعوا، وأن يؤدوا واجبهم كمواطنين.

في أشكال الحكومة :

يقرر روسو بصفة مبدئية أنه كلما كثر عدد الموظفين ضعفت الحكومة وإن أنشط الحكومات هي ذات الحاكم الواحد. ويقول: إن علاقة الموظفين بحكومة يجب أن تكون على عكس علاقة الرعايا بالسيد، أي أنه كلما كبرت الدولة تعين ضغط الموظفين، بحيث يقل عدد الرؤساء بسبب ازدياد تعداد الشعب».

وأشكال الحكومة المختلفة تميز بعدد الأعضاء الذين يكونونها ;

فالسيد يستطيع باديء ذي بدء أن يعهد بأمانة الحكومة إلى الشعب كله أو الجزء الأكبر من الشعب. وهذا الشكل للحكومة يسمى الديموقراطية.

والسيد يستطيع أن يحصر الحكومة أو يركزها في يد فئة قليلة، بحيث يكون هناك عدد من المواطنين العاديين أكثر من عدد الموظفين، وهذا الشكل يسمى الارستقراطية.

والسيد يستطيع أن يركز الحكومة كلها في يد حاكم فرد يستمد منه الآخرون سلطتهم. وهذا الشكل الثالث هو الملكية.

أي الحكومات أصلح ؟

يبين روسو أن الحكومة الديموقراطية توائم الدول الصغيرة، والاستقراطية توائم المتوسطة، والملكية توائم الكبرى، ثم يناقش كل نوع منها ويبين ما له وما عليه:

عن الديمقراطية :

واضح أن هذا الشكل هو أكمل أشكال الحكومة. ولكن ما أصعب المتطلبات التي يقتضيها قيام هذه الحكومة: إقليم صغير يسهل فيه اجتماع الشعب، ومواطنون يعرف كل واحد منهم الآخرين، وبساطة الأخلاق، والمساواة بين الطبقات في الثروات، وقلة من الترف أو لا ترف على الإطلاق، ثم هناك الحروب الأهلية والاضطرابات الداخلية، فهي شيء محتوم

فيها. «لو أن هناك شعباً من الآلهة لحكم نفسه ديموقراطياً. إن الحكومة تبلغ هذا المدى من الكمال لا تلائم البشر».

عن الأرستقراطية :

كان هذا هو الشكل الذي اتبع في المجتمعات الأولى. كان رؤساء الأسر والعشائر، الشيوخ، يتداولون ويتشاورون. ومن هنا ألقاب: الكهنة، والقدماء، والشيوخ.

ولكن ازدياد التفاوت الناجم عن النظم على التفاوت الطبيعي أدى إلى تفضيل الثراء على السن، وأصبحت الارستقراطية بالانتخاب. وأخيراً فإن القوة أصبحت تنتقل مع الثروة من الأب إلى الأبناء مما جعل الأسرة شرف يورث فأصبحت الحكومة وراثية، ورأينا «شيوخاً» في العشرين من عمرهم.

«هناك إذن ثلاثة أنواع من الارستقراطية: طبيعية، انتخابية، وراثية الأولى لا تلائم إلا شعوباً بسيطة، والثالثة شر الحكومات طراً، أما الثانية فهي أفضلها إنها الارستقراطية بمعناها الصحيح.

«إنه أفضل الأنظمة وأكثرها طبيعة أن يتولى الأكثر حكمة حكم المجموع إذا استيقن المجموع أنهم سيحكمونه لمصلحته

لا لمصلحتهم هم. لا مدهاة لتوسيع الولاية، ولا لأن يعمل عشرون ألفاً من الناس ما يستطيع أن يعمله مائة مختارون منهم، على نحو أفضل».

وواضح أن روسو لا يوافق على الحكومة الديموقراطية، ويقول صراحة أنه يؤيد الاستقراطية ـ ومع ذلك يجب أن نفهم ما يعنيه بالديموقراطية. فما يسميه ديموقراطية ليس نظاماً مثل النظام الجمهوري الشائع الآن، بل هي الديموقراطية كما وجدت في الزمان القديم، في أثينا: إنها الحكومة المباشرة أي شعب يسن كله القانون ويحكم كله نفسه، ويتخذ في اجتماعات شعبية بطريق الاستفتاء ما يشاء من قرارات.

وعلى النقيض، فإن الحكومات المماثلة لنظام الحكم الجمهوري الآن، حيث يسن الشعب القانون عن طريق نوابه، وحيث لا يحكمْ الشعب نفسه مباشرة بل عن طريق حكومات ينتخبها، هي ما يسميه روسو «ارستقراطية إنتخابية» وفي هذا المعنى يقول أنه ارستقراطي ويؤيد الارستقراطية ولكنه في الحق «ديموقراطي تماماً في المعنى الذي نستعمل فيه نحن هذه الكلمة»[1].

---

(١) إميل فاجيه، روسو المفكر، الجزء الثامن، أفكاره السياسية.

عن الملكية

الملكيـة من بين أشكـال الحكـومـة هي أكثـرهـا قــوة وعنفواناً، فكل إجزاء الالة تحركها يد واحدة، وكل شيء يسير نحو هدف واحد: ولكن هل هذا الهدف هو سعادة الشعب؟ إن روسو لا يعتقد ذلك.

«يـريد الملوك أن يكـون لهم سلطة مطلقـة. ومن بعيد يصبح لهم الصائحون أن خير وسيلة لذلك أن يجعلوا أنفسهم موضع حب الشعب. وهذا المبدأ جميل جداً. بل هو حقيقي جداً من بعض النواحي: ولكنه للأسف سيكون موضع سخرية في البلاط. إن القوة المستمدة من حب الشعب هي الأعظم بالأمراء، ولكنها غير مستقرة ومشروطة، ولن يقنع بهـا الأمراء قط. فـأحسن الملوك يريـدون أن يكونـوا أشراراً إذا راق لهم دون أن يكفـوا عن أن يكونـوا هم السادة وعبثاً يحـاول واعظ سياسي أن يقول لهم أن قـوة الشعب ما دامت هي قـوتهم فإن مصلحتهم الكبـرى أن يكون الشعب مـزدهراً، كبيـر التعداد، قوي الشوكـة، إلا أنهم يدركـون جيداً أن هـذا غير صحيـح. فمصلحتهم الشخصية هي في المقام الأول أن يكـون الشعب ضعيفاً، بائساً، ولا يستطيع مقاومتهم أبداً».

عن إمارات الحكومة الصالحة :

يجب ألا يسأل سائل: ما هي أصلح الحكومات؟ إنه سؤال لا جواب له. وإنما يجب أن يسأل عن الشواهد التي يعرف بها المرء أن شعباً ما محكوماً حكماً صالحاً أو فاسداً. هذا السؤال جوابه ميسور:

«يذهلني أن ينكر امرؤ أمارة بسيطة إلى هذا الحد، أو أن يكون من سوء النية بحيث لا يعترف بها. ما هي غاية المجتمع السياسي؟ إنها حفظ أعضائه ورفاهيتهم. وما هي أوثق إمارة على أنهم يتمتعون بالحفظ والرفاهية؟ إنها تكاثرهم وازدياد تعدادهم».

وهو يعني بذلك أن الحكومة الصالحة هي الحكومة التي ينمو في ظلها تعداد الشعب. ويرتفع مستوى معيشته دون اعتماد على وسائل خارجية أو مستعمرات أو توطين أجانب، أما الحكومة السيئة فهي التي يتقلص في ظلها عدد المواطنين أو يشرفون على الانقراض.

وينتقد روسو الكتاب الذين يشيدون بعصرهم لأسباب شخصية ويقول أن بلوغ دخل الكاتب أو الشاعر مائة ألف جنيه لا يعني أن عصره هو خير العصور ما دام شعبه يضمحل ويتضاءل تعداده، وأن المهم ليس الازدهار والسكينة المظهرية

للرؤساء، وإنما المهم رفاهية الشعب لا سيما في الدول الكثيفة السكان.

عن مبدأ التمثيل النيابي :

ويرى روسو أن أعضاء المجالس النيابية ليسوا «ممثلين» للشعب وإنما هم مجرد «مندوبين»، لأن السيادة أو الإرادة العامة لا يمكن أن تمثل، لنفس السبب الذي من أجله لا يمكن أن تكون محل تصرف:

«إن خفوت حب الوطن، ونشاط المصلحة الخاصة، وضخامة الدول وسوء استعمال سلطة الحكم دعت إلى تخيل طريقة اختيار نواب أو ممثلي الشعب في المجالس النيابية.. إن السيادة غير قابلة للتمثيل لنفس السبب الذي من أجله هي غير قابلة للتصرف، إنها أساساً من الإرادة العامة والإرادة لا تمثل. وعلى ذلك فإن نواب الشعب ليسوا ـ ولا يمكن أن يكونوا ممثليه ـ فهم ليسوا سوى مندوبيه، ولا يمكن أن يرموا شيئاً بصفة قاطعة. إن كل قانون لا يقره الشعب بشخصه قانون باطل، وليس بقانون. إن الشعب الإنجليزي يظن نفسه حراً، وهو ليس كذلك إلا إبان انتخابات أعضاء البرلمان: وبمجرد انتخابهم، فهو عبد، هو لا شيء!

الجزء الرابع :

الدين والدولة :

وبعد أن يتحدث روسو في الجزء الرابع عن الاستفتاء والاقتراع العام يتناول موضوع الدين والدولة يختتم به مؤلفه الكبير. ولا يقر روسو وجود سلطتين في الدولة إحداهما مدنية والأخرى دينية، إحداهما مادية والأخرى روحية. وهو يقول أن الدولة في الزمان القديم كانت تمتص الدين، ولكن الأمر اختلف منذ أقام المسيح مملكته الروحية، مما أدى إلى فصل النظام اللاهوتي عن النظام السياسي، وبالتالي إلى ضياع وحدة الدولة. ويمتدح روسو محمداً عليه الصلاة والسلام، لما اعتدى إليه من جهل الخلفاء الراشدين يمسكون زمام الدولة والدين مما أمن وحدة الحكومة. ولكن العرب حين ازدهروا وتنعموا وترفهوا تعرضوا لغزو البرابرة، ومنذ ذاك العهد عاد انقسام السلطتين مرة أخرى.

وقد أجريت محاولات في انجلترا وروسيا لوقف ازدواج السلطة هذا، ولكن سلطان الاكليروس أدى إلى فشل هذه المحاولات، وبقيت سلطتان في انجلترا وفي روسيا، كما هو الشأن في أي مكان آخر.

ويقول روسو أن هوبز كان الفيلسوف المسيحي الوحيد

الذي شخص المرض ووصف العلاج، واقترح إدماج «رأس النسر» وإرجاع كل شيء إلى الوحدة السياسية. ولكن روح السيطرة المسيحية طغت على نظريته، ومصلحة القساوسة كانت أقوى من مصلحة الدولة.

ويقدر روسو العلاقة بين الدين والدولة ويحدد المبادىء الموضحة لهذه النقطة فلا شك أن حقوق السيد على الرعية لا تتعدى حدود المصلحة السياسية، أو بعبارة أخرى أن الرعية غير مسؤولة أمام السيد إلا عن آرائها المتصلة بالمجتمع. ولكنها تستطيع أن تفكر كما تشاء في شأن الحياة الأخرى، التي لا يمتد إليها سلطان السيد. على أنه يهم الدولة أن يكون لكل مواطن دين يدفعه إلى تقديس واجباته. وفيما عدا ذلك فإن كل مواطن له أن يعتنق ما يشاء من الآراء دون أن يلزم بكشفها للسيد، فيكفي أن يكون الرعايا مواطنون طيبون صالحون:

«هناك إقرار إيمان مدني بحث يتعين على السيد أن يحدد موارده، لا كأصول دين، وإنما كمشاعر تعاطف اجتماعي بدونها يستحيل أن يكون المرء من المواطنين الصالحين ولا من الرعايا المخلصين. ودون أن يكون من حق السيد إلزام أحد باعتناقها. فإنه يستطيع أن ينفي من الدولة أي امرىء لا يعتنقها لا كزنديق، وإنما كغير اجتماعي».

وأصول هذا الدين يجب أن تكون بسيطة ودقيقة. إنها

الاعتراف بوجود إله قوي إله ذكي خير، والاعتقاد بوجود الآخرة، وبمثابة الأخيار وعقاب الأشرار واحترام العقد الاجتماعي والقوانين.

صدى الكتاب :

بالرغم من أن روسو كان يفكر في جنيف، وهو يضع كتابه، بوصفها وطنه ولأنها جمهورية صغيرة، فإن التأثير الحقيقي والعميق لكتابه لم يكن في جنيف وإنما كان في فرنسا. إنه لم يلاق اهتماماً كبيراً عند صدوره لأنه صدر مع كتابه الآخر «إميل» في وقت واحد، وهو الكتاب الذي أثار ضجة كبرى، ولكن تأثيره الضخم ظهر في الجيل التالي، جيل الثورة. إن إعلان حقوق الإنسان والشعب السيد، والإيمان بالكائن الاسمى، وكل المفاهيم التي تبدو وليدة الثورة الفرنسية إنما هي مستوحاة في الواقع من العقد الاجتماعي، الذي اعتبره الكثيرون «إنجيل الثوار».

الفصل الرابع

إميل أوفي التربية

لقد ظهرت مؤلفات روسو الثلاثة الكبيرة: هلويز الجديدة والعقد الاجتماعي وإميل وراء بعضها بعضاً، إبان إقامته في مونمورنس: هلويز في ١٧٦١، والعقد وإميل في ربيع ١٧٦٢ وبينهما فاصل زمني لا يزيد عن أسابيع قلائل. ومع أن إميل هو أقل كتبه ثورية فإنه قلب حياة روسو رأساً على عقب.

المراجع

- جان جاك روسو، الاعترافات، المجلد الثالث، الكتاب العاشر.
- ا . فاجيع، حياة روسو
- ا . شوكيه، جان جاك روسو.
- ل . ديكرو، جان جاك روسو، المجلد الثاني من مونمورنس إلى فال دي ترافير (١٧٥٧ ـ ١٧٦٥) باريس ١٩١٨
- ف . فيال، نظرية التربية عند روسو، باريس ١٩٢٠
- ل . فلاندرلف، جان جاك روسو، مؤلفات مختارة، طبعة هاتييه، باريس ١٩٤٦
- جان جاك روسو، إميل، طبعة جارنييه
- ب . م . ماسون، دين روسو، الجزء الثالث

وقد ألف روسو هذا الكتاب عقب إقامته في مومورنس، وإبان إنجازه العقد الاجتماعي. وهو يقول أنه كلفه عشرين سنة من التفكير وثلاث سنوات من العمل.. ولنتذكر أن إقامته في مونمورنس لم تتعد أربع سنوات، اضطرب عمله خلالها نتيجة للقلق والهموم واعتلال الصحة. ونحن نعلم أن اعتلاله المعنوي أضفاه أكثر مما أضفناه اعتلاله الصحي. فقطيعته مع صديقه ديدرو عقب شكه في إذاعة أسرار حبه لمدام دوديتو، وصدامه مع دالامبير عقب القطيعة مع ديدرو صديق الطرفين، وعصبة البارون دولباك التي ناصبته العداء وحاولت تلطيخ سمعته، وخطاب مدام دوديتو الذي تضمن اتهامه بإذاعة أسرار حبهما ومطالبته بقطع صلته بها، وسوء حالته المالية نظراً لاضطراره إلى مجاراة علية القوم الذين يعاشرهم في أسلوب حياتهم ومظاهرها رغم قلة موارده من أعماله الأدبية، وخلافاته مع أصهاره الذين حاول جريم ودولباك شراءهم بالهدايا: كل هذا، والزيارات، والمجاملات، والمرض، لم يحل دون إنجازه لهذه الروائع التي أثارت دوياً في العالم، وهو ما يشهد له في الوقت نفسه بشجاعة نادرة وإرادة حديدية.

إن الماريشال دي لوكسمبورج هي أول من عرف شيئاً عن إميل. ونحن نعلم أنها غمرت روسو بعطفها وملاطفاتها منذ قبل الإقامة في القصر الصغير في مونمورنس. وخوفاً من أن

يخطىء معها في الحديث ـ الذي لا يجيده ـ اقترح أن يقرأ عليها هلويز الجديدة، وما أن انتهى من هذه القراءة حتى جنت بها. ثم بدأ يقرأ عليها إميل فأصرت على أن تتولى بنفسها أمر نشره، بالاشتراك مع ماليزيرب مدير دار الكتب، على النحو الذي ذكرناه من قبل. وفي تلك الأثناء كان روسو يتردد بين مقره الجديد، القصر الصغير، أو بيته في مون لوى الذي تم ترميمه، والذي أصبح كعبة يحج إليها الزوار من علية القوم؛ من الأمراء والأميرات والأدواق والدوقات، وإن اعتز روسو بصداقة واحد من بينهم هو الأمير «كونتي» الذي لاعبه الشطرنج في برج القصر الصغير الذي اتخذه مكتباً. ذلك أن هذا الأمير ظل صديقاً مخلصاً له إلى النهاية.

وأخيراً، على كل حال، ظهر إميل. ولم يقابل في البداية بذلك التهليل الذي صاحب كتابات روسو دائماً. صحيح أنه قوبل بإعجاب هائل في الجلسات الخاصة، لكنه لم يثر إعجاباً عاماً، رغم ما أكده له أصحاب الرأي وقادة الفكر من أنه أحسن ما كتب على الإطلاق، غير أنه توكيد مشوب بحذر شديد وغريب حتى أن مدام دي بوفلير التي كتبت له مؤكدة أن مؤلف هذا الكتاب جدير باحترام البشر أجمعين، عادت ترجوه أن يعيد لها القصاصة التي تتضمن رأيها هذا! كما أن دالامبير الذي كتب له مؤكداً أن هذا الكتاب قطع بتفوقه

ووضعه فوق كل أدباء عصره، لم يوقع خطابه! غير أن روسو لم يستشف التي كانت تقترب منه. كان آمناً مطمئناً، ومعتقداً أنه سلك طريقاً سوياً ولم يقل كفراً. وكـان في حمايـة ماليـزيرب ومدام دي لوكسمبورج.

غير أن البرلمان أصدر في ٩ يـونيو ١٧٦٢ قـراراً بحرق الكتاب والقبض على جان جاك روسو، لأنه يدعـو إلى اعتناق الـدين الطبيعي ويتضمن إلحـاداً صريحـاً. وفي المسـاء بعث الأميـر كونتي بـالخبـر إلى مـونمـورنس، فـأيقـظت مـدام دي لوكسمبورج ضيفها في منتصف الليل، وتوسلت إليه أن يرحل، وقبل روسو حتى لا يحرج أصدقاءه، وغادر مـونمورنس زهـاء الرابعة بعد الظهـر؛ مقابـلاً في الطريق المحضـرين المكلفين بالقبض عليه والذين كانوا يحيونه مبتسمين واخترق باريس دون قلق حيث عرفه الناس وحيوه، ثم ركب عربة بريد متجهـاً إلى سويسره. لقد سافر علناً رغم الأمر باعتقاله، كان هذا الأمر لم يصدر أن البرلمان أدانه ثم تركه يهرب. وقد أدانـه في الواقـع لأنه كان يتأهب لضرب الجيزويت، وكان يريد أن يغلق أفـواه المتدينين.

إميل وفكر روسو :

كـان روسو يعلق أهميـة كبيرة على كتـابه «إميـل» لأنـه

يتضمن حجر الزاوية في نظريته. فبعد أن كشف في مقالاته وفي الرسالة عن المشاهد رذائل المجتمع الحديث، كان يتعين عليه أن يحدد في مؤلفاته الكبرى نواحي الإصلاح التي يجب إدخالها عليه. وقد أوضح في هلويز الجديدة نموذج الأسرة، «في العقد الاجتماعي أسس المدينة، وبقي عليه أن يقدم نموذج الإنسان الطبيعي. وقد كان يعرف جيداً أن أحداً لا يستطيع أن يشرع في إصلاح الدنيا دون أن يسعى أولاً إلى إصلاح التربية. والواقع أننا لا بد أن نبدأ بالطفل أن شئنا أن نطبق شيئاً على الناس. فإنما تتكون أخلاق المجتمع تبعاً لما نغرسه من عادات ومبادىء في نفوس النشىء. وقد حرص روسو نفسه في «حواراته» على أن يوضح لنا كيف أن الأفكار الواردة في إميل مكملة لمبادئه ومتمشية مع فكره.

«لقد تتبعت بكل جهدي خيط تأملاته، فوجدت فيها جميعاً نمو مبدئه العظيم، وهو أن الطبيعة جعلت الإنسان سعيداً وطيباً، ولكن المجتمع يفسده ويجعله شقياً تعساً. وإميل، بصفة خاصة، هذا الكتاب الذي قرأه الناس كثيراً ولم يفهموه إلا قليلاً، وأساءوا تقديره إلى هذا الحد، ليس إلا رسالة في الطيبة الأصلية للإنسان مكرسة لإيضاح كيف أن الرذيلة والخطأ، الغريبين على كيانه يأتيان إليه من الخارج

ويفسد أنه على نحو غير محسوس»[1].

تحليل الكتاب :

يضم الكتاب خمسة أجزاء. ويفترض المؤلف أنه يتبع خطوة خطوة نمو الطفل الذي عهد به إليه، فهو إذن رواية تروى ، يقطع سياقها كثيراً بالتأملات، والاستدلالات، والتحقيقات. وتعالج الأجزاء الثلاثة الأولى الطفل والتعاليم التي ينبغي أن يتلقاها حتى الخامسة عشرة من عمره. ويتناول الجزء الرابع التكوين الأخلاقي والديني للمراهق. وفي هذا الجزء يظهر «إقرار إيمان الخوري السافوي «الذي أثار ضجة كبيرة وسبب إدانة الكتاب واضطهاد مؤلفه[2] أما الجزء الخامس فيتناول موضوع زواج إميل، فضلاً عن موضوع تعليم البنات.

---

(١) الحوار الثالث، في المصنفات الكاملة لروسو، طبعة فيرن، المجلد الرابع.

(٢) نظراً لأهمية إقرار الإيمان فقد قمنا بترجمته منفصلاً، بالاشتراك مع. الأخ الأديب جودت عثمان الذي شاركنا من قبل في ترجمة أزمة الضمير الأوروبي لبول هاندار ، وجرازيلا للامارتين. ارجع إلى ترجمتنا لإقرار الإيمان، طبعة دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٠ .

الجزء الأول :

يبدأ الكتاب بداية «روسوية» كالمعتاد، أي بعبارة من عباراته ذات التأثير القوي الرنان: كل شيء يخرج طيباً من يدي خالق الأشياء وكل شيء يفسد بين يدي الإنسان».

وبعد أن قال أن الإنسان يقلب كل شيء ويفسده يضيف «ومع ذلك فلولا هذا لصارت الأمور إلى أسوأ» وهو استطراد غير متوقع ولكنه يشرحه:

«في الحالة التي انتهت إليها الأمور الآن، فإن إنساناً يترك وحده منذ ولادته وسط الناس يصبح أكثرهم تشوهاً وفساداً. إن المعتقدات الباطلة، والسلطة، والضرورة، وكل الأنظمة الاجتماعية التي نجد أنفسنا منغمسين فيها سوف تخنق فيه الطبيعة ولا تضع محلها شيئاً».

ويناشد روسو الأم الرؤوم الحنون أن تلتفت إلى واجبها وترعى طفلها وتنشئه نشأة حسنة وتحيط روحه بسياج من التعاليم التي تقيه شر الانحراف والفساد المتفشي في المجتمع. ويميز روسو ثلاثة أنواع من التربية: أولها يأتينا من الطبيعة؛ والثاني يأتينا من الناس، والثالث نتلقاه من الأشياء. وهذه الأنواع الثلاثة ليست فقط مختلفة هي أحياناً متناقضة. وفي الصراع الناشب بين الطبيعة والنظم الاجتماعية علينا أن

نختار بين تكوين إنسان، أو تكوين مواطن لأننا ـ كما يقول ـ لا يمكننا تكوين هـذا وذاك في وقت واحد. وهكـذا فإن يلمس مسألة خطيرة: هل ينبغي تنشئة الشخص من أجـل ذاته أم من أجل الآخرين؟ إنه يضيف: إن النظم الاجتماعية السليمة هي التي تعرف أكثر من غيـرها كيف تغيـر طبيعة الشخص، كيف تجرده من وجوده المطلق لتعطيه بدلاً منه وجوداً نسبياً، وتذيب أنيته في وحدة المجتمع».

ويتحدث روسو عن الـرعايـة التي يجب أن يحظى بهـا الطفل، ويكافح الأباطيل والعادات السائدة في عصره فيقول: «إن كل حكمتنا تكون من معتقدات باطلة وضيعة، وكل عاداتنا ليست سوى استعباد. ومضايقة وقهر. إن الشخص يولد ويعيش ويموت في العبودية: فعند ولادته يلفونه في قماط ، وعند وفاته يلفونه في كفن».

وبعد أن يحمل روسـو بشدة على تقـارير تقييـد الطفـل بالقماط منذ ولادته يتناول انحلال رابطة الأسرة ذاتها، ومع أنه لم يكن أول مبشـر في هذا المعنى إلا أنـه يستعمـل بـلاغته الخارقة ليجعل نفسه مسموعاً، كما كم يسمع مبشر من قبل.

«. . . . . إن كـل شيء يأتي تبـاعاً من هـذا الإنحـلال الأول، كـل النظام الأخـلاقي يتغير ويفسـد، ومـا هـو طبيعي

ينطفىء في كل القلوب، إن دخيلة البيت تتخذ مظهراً أقل حيوية، إن المشهد المؤثر لأسرة تتولد لم يعد يربط الأزواج، والعادة لم تعد تقوي روابط الدم، فليس ثمة آباء ولا أمهات، ولا أولاد ولا أشقاء ولا شقيقات، كل يتعرف على الآخر بشق النفس، فكيف يتحابون؟ عندما لا يصبح البيت إلا عزلة حزينة فلا بد من البحث عن المسرح في الخارج.

لكن فلتتنازل الأمهات برعاية أطفالهن، تنصلح الأخلاق من تلقاء نفسها وتستيقظ مشاعر الطبيعة في كل القلوب. . إن فتنة الحياة المنزلية هي خير ترياق ضد الأخلاق السيئة. إن ضوضاء الأطفال التي تظنها مضايقة تصبح ممتعة إنها تجعل الأب والأم أكثر ضرورة وعزة، كلاهما بالنسبة للآخر، إنها توثق رابطة الزوجية فيما بينهما. وعندما تكون الأسرة عائشة وحية فإن الشؤون المنزلية تكون أعز مشاغل الزوجة وأمتع تسلية للزوج. وهكذا فمن إصلاح هذا الخطأ وحده سرعان ما ينتج إصلاح عام، وسرعان ما تسترد الطبيعة حقوقها.

الجزء الثاني :

يهاجم روسو في هذا الجزء نظام التربية العادية، التربية البربرية، التي تستعبد الأطفال، والتي تفسد عليهم أنفس سنوات عمرهم في سبيل إعدادهم لمستقبل مشكوك فيه:

«ما الرأي إذن في تلك التربية البربرية التي تضحي بالحاضر من أجل مستقبل غير مضمون، والتي تبهظ كاهل الطفل بسلاسل من كل نوع، وتبدأ بجعله شقياً تعساً لتعد له على المدى البعيد ما لست أدريه من سعادة مزعومة. . . . إن سن المرح تنقضي وسط دموع وعذاب وتهديد وعبودية. . . أيها الناس كونوا إنسانيين، هذا واجبكم الأول. كونوا كذلك بالنسبة لكل دولة، ولكل عمر. أي حكمة تجدونها خارج الإنسانية؟ أحبوا الطفولة، ناصروا لعبها، ومتعها وغريزتها المحببة. من منكم لم يأسف أحياناً على هذا العمر حيث الضحكة دائماً على الشفاه، والروح دائماً في سلام؟ لماذا تريدون أن تحرموا هؤلاء الأبرياء الصغار من متعة وقت جد قصير يولي منهم؟»

ويجب ألا نحرم على الطفل أن يخطىء ويسيء، وإنما يكفي أن نحول دون إرتكابه ذلك. كذلك يجب ألا نجبره على أن يتصرف وفقاً لإرادتنا نحن، وفي الوقت نفسه ينبغي ألا نذعن لكل رغباته.

«احتفظوا بالطفل في حالة الاعتماد على الأشياء وحدها. بذلك تتبعون نظام الطبيعة في نمو تربيته.

لا توجهوا إرادته إلا بعقبات بدانية أو عقوبات تتولد من

تصرفاته نفسها، يتذكرها في الظروف المماثلة، فدون أن تحرموا عليه ارتكاب الخطأ يكفي أن تحولوا دون أن يرتكبه».

.. «إن الطبيعة، لكي تقوي الجسم وتنميه، لديها وسائل يجب ألا نعارضها أبداً. يجب ألا نرغم الطفل على أن يبقى إذا كان يريد أن يذهب أو أن يذهب عندما يريد البقاء في مكانه. إن الأطفال لا يريدون شيئاً هباء إذا كانت إرادتهم لم تفسد بسبب خطئنا. فلا بد من أن يقفزوا، وأن يجروا وأن يصيحوا عندما يحسون رغبة في ذلك. فكل تحركاتهم هي احتياجات لتكوينهم. «ثم يعارض التدليل..» هل تعرفون ما هي أضمن وسيلة لجعل أطفالكم تعساء؟ إنها تعويدهم على الحصول على كل شيء، لأن رغباتهم تنمو نمواً غير محسوس بفعل سهولة إرضائهم، وسوف يرغمكم العجز عاجلاً أو آجلاً على رفض بعضها. هذا الرفض غير المعتاد يصيب الطفل بعذاب أكثر من عذاب حرمانه مما يرغب فيه». إنه في البداية يريد العصا التي تمسكها وسرعان ما يريد ساعتك، وبعدها يريد العصفور الذي يطير، ويريد النجم الذي يراه يتألق، إنه سوف يريد كل ما يراه: وما لم تكن إلهاً فكيف تلبي رغباته هذه..؟».

ويعارض روسو مبدأ «لوك» في استعمال المنطق مع الأطفال، ولا يوافق على الاستدلال معهم بالعقل، على أساس

أن العقل آخر وأصعب ما ينضج في الإنسان، ومن ثم يجب ألا يكون العقل أول ما يستعمله الإنسان، وإلا كنا كمن يريد أمن النهاية. ولو كان الأطفال يفهمون بالعقل وبالاستدلال لما احتاجوا إلى تنشئة وتربية.

وهنا يصل بنا روسو إلى نظرية غريبة يسميها «التربية السلبية» فعلى نقيض الأساتذة الذين يتعجلون تعليم ذهن الطفل وتثقيفه، وتكوين قلبه أو إرادته، يقول روسو إنَّ أعظم قاعدة في التربية ليست هي كسب الوقت بل فقده لأنها ليست تعليم الفضيلة والحق، وإنما حماية القلب من الرذيلة والعقل من الضلال.

«إن الخطر مرحلة في حياة الإنسان هي ما بين الولادة ومن الثانية عشرة. إنه الوقت الذي تنبت فيه بذرة الأخطاء والرذائل. ولو كان الأطفال يقفزون دفعة واحدة من الأجسام إلى سن الرشد لكانت التربية التي نلقنها لهم مناسبة ملائمة، لكنهم وفقاً للنمو الطبيعي تلزمهم تربية على النقيض منها تماماً. . . إنها ليست تعليم الفضيلة والحق، وإنما حماية القلب من الرذيلة والعقل من الضلال».

إنه يرى أنك إذا نجحت في أن تجعل طفلك سليماً وقوياً في سن الثانية عشرة، حتى لو لم يميز بين يده اليمنى

ويده اليسرى، فإن عيون إدراكه سوف تتفتح للمنطق، دون عادات ودون أباطيل، ومن ثم يكون نقي الطوية ويصبح عجينة طيعة تشكلها برعايتك كما تشاء، ولو شئت أن تجعله أحكم الحكماء.

الجزء الثالث :

إن إميل يبلغ الآن الثانية عشرة من عمره، وقد آن الأوان لكي يبدأ دراساته. ويجب أم نختار الأشياء التي نعلمها له. وبين المعارف، ما هو باطل، وبينها ما هو غير نافع، وبينها ما لا فائدة منه إلا تغذية الكبر في نفس الإنسان. وإذن فإن الواجب أن نعرض عليه القليل الباقي الذي يسهم حقيقة في إسعاده وفي جعله خيراً. وحتى هذا القليل الباقي من المعارف يجب أن نحذف منه الحقائق التي يحتاج فهمها إلى إدراك كامل ناضج.

اجعل تلميذك يواجه الوقائع والأحداث. وظواهر الطبيعة لتنير فضوله. ولا تتعجل إشباع فضوله. ضع الأسئلة في متناوله ودعه يحلها بنفسه لا تجعله يعرف شيئاً لأنك قلته له وإنما لأنه فهمه من تلقاء نفسه.

إذا أردت أن تعلمه الجغرافيا فلا تربك نفسك بالخرائط . ما عليك إلا أن تصحبه في الصباح الباكر إلى مكان

مرتفع ليرى مشهد شروق الشمس الرائع ودعه لتأملاته، ولا بأس أن تعرض عليه بعض الموضوعات وأن توجه إليه بعض الأسئلة:

«.... ولتتذكر أن روح نظامي ليس هو أن نعلم الطفل أشياء كثيرة وإنما هو ألا ندع شيئاً يدخل مخه إلا الأفكار الصحيحة الواضحة. وعندما لا يعرف شيئاً فإن ذلك ليس مهماً، شريطة ألا يخدع نفسه، وأنا لا أضع الحقائق في رأسه إلا لحمايته من الضلال الذي سيتعلمه بدلاً منها. إن المنطق والتقدير يأتيان على مهل، أما الأباطيل فتأتي سريعة وجماعة، وهي التي يجب حمايته منها».

ويعارض روسو حشو رأس الطفل بالعلوم دون إرادته. ويقول إن الواجب هو تنمية حب العلوم في نفسه بحيث يدفعه إلى تعلمها ميل ورغبة ومتعة. ويتحدث عن الكتب فيوضح أنه يكرهها، ولكنها ضرورية مع ذلك وهو ليس يختار منها كتب أرسطو ولا بوفون وإنما كتاب روبنسون كروزو لأنه نموذج للتربية الطبيعية. فهو هناك، في جزيرته، وحيد، محروم من مساعدة بني البشر ومن الأدوات الخاصة بكل الفنون، يعتمد على نفسه، ويهيء لنفسه وجوداً سعيداً ويبني بيتاً، ويربي عنزاً، ويزرع نباتاً، وكل هذا ليس فقط يعطي الفتى اليافع نموذجاً طيباً لما يمكن عمله في مثل الظرف الذي تعرض له

روبنسون كروزو، وإنما يمكن أن يقدم لكل طفل بطريقة مثيرة جذابة.

ولأن إميل لم يتأثر بأباطيل المجتمع فإنه سوف يقدر أعمال الناس بميزان ـ دقيق وسليم هو ما تنطوي عليه من فائدة. وهكذا فإنه يرى الجديد أهم من الذهب، والزجاج أهم من الماس، وبالتالي فإن الحداد والبناء كلاهما أهم من الصايغ. فقيمة كل عمل هي في مدى اتساع الخدمات وفي الفائدة التي يقدمها للمجتمع. ومن هنا أيضاً فإنه يضع الزراعة في المقام الأول بين كل الفنون والمهن. وهنا يتحدث روسو عن ضرورة العمل، وواجب إميل في أن يتعلم إحدى الحرف، ويندد برغبة الأم، دائماً في أن يصبح ابنها مركيزاً أو أميراً ويقول إن عمل إميل في أية مهنة مفيدة للمجتمع غير له من هذا الهوان! ويقول «أما أنا فأني أريد أن أعطيه مركزاً لا يستطيع أن يفقده، مركزاً شرفه في كل زمان، أريد أن أرفعه إلى حالة الإنسان».

وعند هذه النقطة يتنبأ روسو بالثورات: «إنكم تثقون في الوضع الحالي للمجتمع دون أن تفكروا أن هذا الوضع عرضة لثورات حتمية ، وأنه يستحيل عليكم أن تتنبأوا أو تستشفوا الوضع الذي يمكن أن يشهده أطفالكم حيث يصبح الكبير صغيراً، والثري فقيراً، والملك رعية: هل ضربات القدر من

الندرة بحيث تحسبون إنكم تستثنون منها؟ إننا نقترب من حالة الأزمة ومن عصر الثورات».

إن فولتير أيضاً قال: «إن كل ما أراه ينثر بذور ثورة سوف تقع حتماً وإن كنت لن أسعد بمشاهدتها». أليس عجيباً حقاً، إن هذين العلمين رغم تعارض طباعهما بشدة، قد تنبأ كلاهما بالثورة قبل انفجارها بربع قرن؟

الجزء الرابع :

يعالج روسو في هذا الجزء التربية الروحية للفتى إميل، وهنا تبدأ على حد قوله التربية الحقيقية حتى أن ما قبلها يمكن أن يعد لعب أطفال. ففي هذه السن تبدأ أزمة المراهقة، وهي ثورة عاصفة عارمة تعلن عن هبوبها بهمهمة الشهوات المتولدة. وهذه الشهوات، من حيث المبدأ، ليست سيئة ما دامت تنبع من الطبيعة:

«إنها الأدوات الأساسية لحفظ نوعنا: فهي إذن محاولة باطلة بقدر ما هي سخيفة أن نريد سحقها، إن ذلك بمثابة رقابة منا للطبيعة، بمثابة إصلاح لعمل الله. فلو أن الله قال للإنسان أن يلغي الشهوات التي يعطيها له لكان الله يريد ولا يريد، ولناقض نفسه. ولكنه لم يصدر مثل هذا الأمر غير المعقول، لو شيء مثل هذا مكتوب في القلب البشري، وما يريد الله أن

يفعله له إنسان فإنه لا يقوله له بواسطة إنسان غيره، وإنما يقوله له بنفسه يكتبه في أعماق قلبه».

كلام جريء، يخالف الأخلاقيات المسيحية، ويمهد لإقرار إيمان الخوري السافوي الذي سنصل إليه عما قريب ولنعد إلى الشهوات. إنها طيبة تكون طبيعية، ولكن بعضها غريب دخيل علينا:

«إن منبعها طبيعي هذا صحيح، ولكن ألف رافد غريب نمتها، إنها نهر كبير ينمو دون انقطاع، ولا يكاد المرء يجد فيه بضع قطرات من مياهه الأولى. إن شهواتنا الطبيعية جد محدودة، إنها أدوات حريتنا إنها تعمل على حفظ نوعنا. أما كل الشهوات التي تستعبدنا وتهلكنا فإنها تأتينا من الخارج، فالطبيعة لا تعطينا إياها».

إن دور الأستاذ هو توجيه قدرات المراهق. فالشاب الذي أفسدته الأنانية والمتعة جاف جامد بالنسبة للغير، وعلى العكس فإن الشاب الذي احتفظ بنفسه شريفاً بريئاً هو خير شفيق رؤوف. يجب إيقاظ بواكير اختلاجات الحساسية المتولدة، باطلاع الغنى، ليس على مشهد الغنى والسعادة وإنما على حياة المخلوقات التي تتألم. هكذا يجبل على الشفقة والحنان.

والآن وقد دخل الشاب في الحياة الأخلاقية فإنه سيواجه الآخرين، وسيكون أول شعور له أن يرغب في المركز الأول. إن الكرامة تتحول إلى أنانية، والكرامة لا غبار عليها لأنها طبيعية ومتفقة مع حفظ النوع ومن ثم فإنها تولد العواطف الرفيعة، أما الأنانية أو الأثرة فتولد الشهوات الحاقدة. ولكي نوجه إميل في علاقاته مع الآخرين يجب أن يدرس قائمة الدرجات الاجتماعية. سوف يتعلم إميل معرفة الناس ورؤيتهم كما هم. وهنا يتدخل التاريخ.

ويريد روسو أن نضعه بين يدي المؤرخين الذين يجعلون القارىء يقرأ ما في النفوس: ليس هيرودوت، لأنه وإن كان حافلاً بالتفصيلات الشائقة إلا أن هذه التفصيلات كثيراً ما تحل إلى صغائر تفسد ذوق الشباب أكثر مما تكونه. وليس تيو سيديد وقيصر اللذان يتحدثان دائماً عن الحرب ولا يرى المرء في رواياتهما إلا أقل الأشياء تزويداً بالمعلومات. وليس تيت ليف لأنه سياسي وخطيب ولا يلائم هذه المرحلة من مراحل العمر. وليس تاسيت الذي لا يلائم غير العجائز، وإنما الذي يصور، برشاقة ليس لها نظير، عظماء الرجال في صغائر الأشياء.

التكوين الفلسفي والديني :

إن تربية إميل كانت حتى الآن عملية، فكيف نوصله إلى

الأفكار المجردة وإلى فكرة الخالق بصفة خاصة؟ كيف نجعله يدرك هذا الكائن السامي والمستغلق الكائن الذي يحرك الكون، ويشكل كل نظام الكائنات، والذي لا نستطيع أن نراه بالعين ولا أن نلمسه باليد، ولا أن ندركه بأية حاسة من الحواس والذي نرى منه الصنع دون أن نرى الصانع؟.

«إنها ليست مسألة بسيطة أن نعرف وجوده في النهاية، وحينما نصل إلى ذلك، نسأل أنفسنا من هو، وأين هو؟ يرتبك منا الذهن ويضل. . .».

ويعارض روسو ما ذهب إليه «لوك» من البدء بدراسة الأرواح ثم الانتقال بعدها إلى دراسة الأجسام، ويقول أن هذه نظرية الأباطيل والخرافة والضلال، وليست نظرية منطقية ولا طبيعية، لأن حواسنا هي أول أدوات معارفنا ومن ثم فإن الكائنات المادية والمحسوسة هي أول الكائنات التي تتكون لدينا فكرة عنها. فالروح لفظ لا يدرك معناه إلا الفيلسوف، لأنها عند الشعب وعند الأطفال ليست سوى جسم. ولهذا السبب فإن كل الشعوب أقامت لنفسها إلهة مادية في بداية عصور الإنسانية، مثل الكواكب والجبال والرياح والأنهار ثم أن أفكار الخلق، والأزل، والقدرة التي يراها القليلون غامضة عويصة ولا يدرك العامة ما فيها من غموض لأنهم لا يفهمون شيئاً منها، هي أفكار من الصعب أن نعرضها ـ بكل غموضها ـ

على أذهان «شابة ما زالت مشغولة بعمليات الحواس المتفتحة، والتي لا تتصور إلا ما تلمسه، حتى أنك لو حدثت الطفل عن قوة الله لقدر أن الله في مثل قوة أبيه.

وينتقل روسو إلى العقائد ويتساءل عما يؤمن به الطفل المسيحي، ويقول أنه يؤمن بما يتصوره، وما أقل ما يتصوره مما نلقنه، حتى أننا لو لقناه عكسه تماماً لآمن به أيضاً. ويؤكد أن الإيمان بهذا الشكل هو مسألة جغرافية. فالطفل الذي في مكة يقال له أن محمداً رسول الله فيؤمن بذلك، والطفل الذي في باريس يقال له أن محمداً ليس رسول الله فيؤمن بذلك. ولو تبادل الطفلان مركزيهما فذهب الفرنسي إلى مكة وذهب المكي إلى باريس لأكد كلاهما ما قاله الآخر، أو لتغير إيمانهما، بل لتبادلا مركزيهما في الجنة والنار مستقبلاً أيضاً. على أساس أن كل دين يرى أنه وحده الدين الحق.

ومع ذلك لا بد أن يتحدث الأستاذ إلى تلميذه إميل عن الله، وهنا تبرز صعوبة أخرى، فعلى أي دين ينشأ الفتى؟ السؤال قد لا يتبادر إلى ذهن الكثيرين لأن الوضع الطبيعي أن ينشأ الفتى على دين أبيه:

«فهم يثبتون له دائماً أن هذا الدين ـ أياً كان ـ هو الدين الوحيد الحق، وأن كل الأديان الأخرى خرافات وسخافات.

وقوة البراهين في هذه النقطة تتوقف على الدولـة التي تعرض فـيهـا . دع التركي، الـذي يرى المسيحية في القسطنـطينيـة سخيفة إلى هذا الحد، يذهب ليرى كيف ينظرون إلى الإسلام في باريس!»

في مسـألة الـدين على الأخص يتمثل انتصـار الـرأي. ونحن الذين نزعم أننا نتبع سلطانه في كل الشؤون، ونرفض أن نسلم بشيء للسلطة، في أي دين ننشـيء إميـل؟ الـجـواب سهـل: إننا لن نعلمـه هذا الـدين أو ذاك، وإنما سنضعـه في مـوضع يتيـح له استعمـال عقله على أفضل نحـو ليقـوده إلى الاختيار السليم.

إقرار إيمان الخوري السافوي :

يعـرض روسو على إميـل مبادىء الـدين الـطبيعي على لسان الراهب السافوي وهو شخصية ليست خيالية، لأن روسو عرف فعلاً زهاء عام ١٧٢٨ راهبين من سافوي هما الأب جيم والأب جاتييه، فخرج شخصيتهما وأخرج منها شخصية الراهب السافوي الذي يلقي بخواطره الدينية على إسماع شـاب منفي من بلاده ـ يقضي أياماً في تورين ـ هو روسو نفسه الذي تعرض لهذه التجربة. ونميز في إقـرار الإيمان بين قسمين: أحـدهمـا قوامه التأييد، والثـاني قوامـه الانكار، ففي الأول يؤكـد روسو

اعتقاده في ثلاثة: الله، العناية الإلهية، خلود الروح وهكذا يضع أسس الدين الطبيعي ويمد يده إلى المؤمنين. وفي الثاني يحمل روسو على التنبؤ والمعجزة وعلى كل ما هو خارق للطبيعة، وهنا يولي ظهره لحظة للمؤمنين ويبدو صديقاً للفلاسفة.

القسم الأول:

يبدأ الراهب إقراره بأن يعرض على الفتى خواطره وخوالجه؛ ضعفه وشكه وبحثه وتفكيره العميق وما اهتدى إليه من حقائق.

«كنت في ذلك الموقف من الشك والارتياب الذي يستلزمه ديكارت للبحث عن الحقيقة. ومن طبيعة هذه الحالة ألا تدوم أمداً طويلاً، فإنها شاقة مقلقة ولا يطيل مكثنا فيها إلا محبة الرذيلة أو خمول الروح. ولم يكن قلبي قد فسد إلى الحد الذي يجعل هذه الحالة تروقني، وما من شيء أحسن حفظاً لعامة التفكير من رضا المرء على نفسه أكثر من رضاه على حفظه.

كذلك جعلت أتأمل النصيب التعس للناس الضالين في بحر الآراء البشرية بلا بوصلة ولا دفة، والمستسلمين لشهواتهم العاصفة، ولا مرشد لهم سوى ربان قليل الخبرة، لا يدري

طريقه، ولا يعرف من أين جاء ولا إلى أن يذهب وحدثت نفسي: إني أحب الحقيقة، وأسعى وراءها، ولا أستطيع أن أتعرفها فليدلني أحد عليها. وأنا أبقى متشبثاً بها. لماذا ينبغي أن تتهرب من لهفة قلب خلق ليعبدها؟»

ويستطرد الراهب فيقول أن تفكيره في البداية زاده اضطراباً، فهو قد درج في كنيسة تجزم في كل شيء ولا تسمح بأي شيء، وتأمر بالتصديق بكل شيء حتى ما لا يقبل التصديق، وهو قد استشار الفلاسفة فوجدهم يشككون في كل شيء ولا يؤكدون أي شيء:

«استشرت الفلاسفة، وتصفحت كتبهم، وفحصت مختلف آرائهم فوجدتهم جميعاً متعجرفين، جازمين، اعتقاديين - حتى في ارتيابهم المزعوم - غير جاهلين شيئاً، غير مثبتين شيئاً، ساخرين بعضهم من بعض، وخيل إلي أن هذه النقطة التي يشتركون فيها جميعاً هي الوحيدة التي كانوا فيها على صواب. إنهم ينتصرون عندما يهجمون، ولكن تعوزهم القوة عندما يدافعون. ولو وزنت البراهين لما وجدت عندهم منها إلا ما يصلح للتقويض والتدمير. وإذا أحصيت الأصوات، لما وجدت لكل منهم إلا صوته. وهم لا يتفقون إلا للجدل، فلم يكن الاستماع إليهم الوسيلة التي تنشلني من الارتياب».

ولذلك قرر أطراح الفلاسفة والاعتماد على نفسه، على تأمله الفكري وهدايته الضميرية، في استخلاص الحقائق. وكذلك يدخل في تأمل فلسفي طويل، يهتدي فيه إلى أنه يجد في نفسه كائناً يشعر، ويفكر ويجد أن المادة موات، وأنها تتحرك بدافع خارجي عنها، يتميز بالحركة والإرادة، وبهذا نصل إلى الحقيقة الأولى: إن إرادة تحرك الكون وتبعث الحياة في الطبيعة.

وإذا كانت المادة المتحركة تدل على وجود إرادة تحركها، فإن هذه الحركة طبقاً لقوانين معينة تبرهن على وجود عقل محرك. وهذه هي الحقيقة الثانية:

«ليست الدنيا إذن حيواناً كبيراً يتحرك تلقائياً، وإذن فهناك علة لحركاتها غريبة عنها، وهي علة لست أدركها، ولكن الاقتناع الباطن يشعرني تماماً بهذه العلة، حتى أني لا يسعني أن أرى الشمس تدور في فلكها دون أن أتخيل قوة تدفعها، وإني إذا رأيت الأرض تدور خلت إني أشعر بيد تديرها»

وإذا كان لا بد من التسليم بقوانين عامة تحكم حركة المادة. فإن هذه القوانين ليست كائنات حقيقية، ليست جواهر، فلا بد أن لها أساساً آخر لا نعرفه. لقد جعلتنا التجربة والملاحظة نعرف قوانين الحركة، ولكنها قوانين تحدد النتائج

دون أن تبين العلل، فهي لن تكفي لتفسير نظام الدنيا وسير الكون:

«برمية زهر أغلق ديكارت السماء والأرض، ولكنه لم يستطع أن يعطي الدفعة الأولى لذلك الزهر، ولا أن يجعل لقوته الدافعة دوراً إلا بتوسله بحركة دائرية. واكتشف نيوتون قانون الجاذبية، بيد أن الجاذبية وحدها كانت تحيل الكون سريعاً إلى كتلة غير متحركة: فلم يكن بد من إضافة قوة قاذفة لجعل الاجرام السماوية تدور في خط منهن. فليقل لنا ديكارت أي قانون فيزيقي جعل دواماته تدور، وليرنا نيوتون اليد التي قذفت الكواكب على مساس مدارها..

إن العلل الأولى للحركة ليست أبداً في المادة، فهي تتلقى الحركة فتنقلها لكنها لا تولدها. وكلما لاحظت ما لقوى الطبيعة من فعل ورد فعل، في تأثيرها بعضها على بعض، وجدت أنه لا بد من الرجوع إلى إرادة ما بحسبانها العلة الأولى، لأن افتراض توالي العلل إلى ما لا نهاية لا بد افتراضاً لأية علة. وجماع القول أن كل حركة لا تتولد من حركة أخرى لا يمكن أن تأتي إلا من فعل انبعاثي اختياري. «إن الأجسام الجامدة لا تعمل إلا بالحركة، وما من عمل حقيقي بغير إرادة: هاك مبدئي الأول، فاعتقادي إذن أن هناك إرادة تحرك الكون

وتحيي الطبيعة: هاك عقيدتي الأولى، أو أولى مواد إيماني»[1].

وبعد أن قرر روسو أن أولى مواد إيمانه أن الله موجود وأنه المحرك لكل شيء يواصل تأمله ليصل إلى ثانية مواد إيمانه. وهي أن هناك عقلاً منظماً لهذه الحركة.

«ولئن كان في المادة المتحركة دليل على إرادة، فإن في المادة المتحركة وفقاً لقوانين معينة دليلاً على عقل: هذه هي ثانية مواد إيماني[2] إن العمل، المقابلة، الاختيار، أفعال كائن فعال ومفكر: إذن هذا النجم الذي ينير، لست أراه فقط في نفسي، بل أراه في الشاة التي ترعى، والطير الذي يطير، والحجر الذي يهوي، والورقة التي تذروها الريح.

إنه يعتقد إذن أن الكون تحكمه إرادة قادرة وعاقلة.

---

(١) أولى مواد إيمانه إذن: إن الله موجود، وأنه المحرك الأول. وقد قال ارسطو بذلك في كتابه الفيزيقا ـ الجزء الثاني ـ كما قال به فنيلون في «بحث في وجود الله، الجزء الأول ص ٨١.

(٢) هاك البرهان الثاني على وجود الله، البرهان بالعلل الفائية: هاك عقل منظم. ارجع إلى فولتير، القاموس الفلسفي، باب الكفر حيث يقول: عندما نرى آلة جميلة تقول: هناك صانع قدير، وهذا الصانع ذو إدراك واسع ولا مراء في أن الدنيا آلة جديرة بالاعجاب، إذن تفي الدنيا إينما كان ـ عقل جدير بالإعجاب.

ولكن هل هذا الكون أزلي أم مخلوق؟ وهل هناك علة واحدة مفردة للأشياء أم أكثر من علة؟ إنه لا يدري ولا يهمه ذلك. إن هذا الكائن الذي يريد والا يقدر، هذا الكائن الذي يحرك الكون وينظم كل الأشياء يسميه الله، وهو يقرن باسمه أفكار العقل والقدرة والإرادة، ثم الطيبة التي هي صفة ضرورية له بالتبعية. هو يدرك وجوده ولكنه لا يدرك ماهيته. ولن يستطع أن يدركها لأن عقله من القصور بحيث لا يدركها:

«إنه يستخفي على حواسي استخفاءه على فهمي، وكلما فكرت في شأنه ملياً ازددت حيرة وتخبطاً. إني أعرف عن يقين أنه موجود، وإنه موجود من تلقاء نفسه، وأعرف أن وجودي منوط بوجوده، وأن كل ما أعرف من أشياء هو في الحالة نفسها تماماً. إني ألمح الله في كل مكان فعلياً في آياته، وأشعر به في ذاتي، وأراه في كل ما يكتنفني، ولكني لا أكاد أزمع أن أتأمل في ذاته ولا أكاد اعتزم أن أبحث أين هو، وما هو، وما هو جوهره حتى يستخفي عليَّ تماماً ولا يدرك ذهني المضطرب شيئاً.

إنني لمقتنع بصوري، ولذا فلن أناقش في طبيعة الله، إلا إذا أجبرني على ذلك شعوري بعلائقه معي. إن هذه الاستدلالات لتهور وتبجح على الأوام، ولا يجوز أن يقدم عليها حكيم إلا مرتعداً، وواثقاً من أنه لم يخلق ليتعمقها: لأن

أكبر إهانة للالوهية ليست عدم التفكير في شـأنها، وإنمـا هي سوء التفكير في شأنها».

ويعود روسو إلى نفسه على لسان الراهب دائماً ـ ليبحث عن المحـل الذي يشغله في نـظام الأشياء التي يهيمن عليهـا الله، فيجد نفسه في الصدارة بمقتضى نوعـه، ويفضل إرادة، وما يملك من قوة تؤثر على الأجسام بحيث يرضى بأفعـالها أو يتفاداها، وذكاء يمنحه قدرة الرقابة على كـل الأشياء. وينتهي من هذا التأمل إلى أنه لاستخف في تفكيره بأن كل شيء خلق للإنسان ليكون ملكاً على الأرض، وليت ليكون مجرد حيوان، كما يريد له هلفسيوس أن يكون[1] وهـو هنا يشيـد بفضل الله عليه أن خلقه إنساناً:

«هل استطيع أن أرى نفسي في مثل هذا الامتياز دون أن أغبط نفسي على شغل هذا المكان المشرف، ودون أن أبارك اليد التي أحلتني فيه؟ من أول نظرة ألقيها على نفسي يتولد في قلبي شعور من الشكر، والحمد، لخالق نوعي، ويتولد من هذا الشعور أول تبجيل أكنه للالوهية الخيرة المحسنة. إني لعـابد

---

(١) مذهب هلفسبوس الذي شرحه في كتابه «عن الذهن» وقد ذهب هو والفلاسفة الانسيكلوبيديون إلى أن الأفكار مصدرها الحواس، وأبـو على على الإنسان امتياز الفكر.

للقدرة السامية، أسير لجمائلها ومننها، ولست في حاجة إلى أن يعلمني أحد هذه العبادة، فإن الطبيعة ذاتها تمليها عليَّ إملاء...». .

لكن يا للعجب! إن لوحة الطبيعة تعرض التناسب، فما بال لوحة البشر تعرض التخبط والارتباك، والتنافر؟ إن الألوهية الخيرة خلقتنا أبراراً فما للأرض يسودها الشر؟

«بالتأمل في طبيعة الإنسان خلت أني اكتشفت فيها مبدأين متميزين، أحدهما يعلو به إلى دراسة الحقائق الأزلية، إلى محبة العدالة والخلق الجميل، إلى آفاق العالم الفكري التي يجد الرجل الحكيم فيها لذته، في حين أن الآخر يهبط به إلى نفسه، ويحوله إلى عبد لسلطان حواسه، وللشهوات التي هي خدامها وسندتها، ويخالف بها كل ما كان يوحيه إليه شعوره بالمبدأ الأول. حدثت نفسي وقد تجاذبتني وتنازعتني هاتان الحركتان: لا، ليس الإنسان واحداً فرداً، إني أريد ولا أريد، إني أحس نفسي حراً وعبداً في وقت معاً، إني أرى الخير وأحبه ولكني أفعل الشر[1].

---

(١) كلمة لأوفيد على لسان الأميرة ميديه

ارجع إلى ترجمتنا لأزمة الضمير الاوروبي لبول هازار ص ٢٨٩ حيث أوردنا في البيان تعليق بيير بايل في كتابه «أفكار عن المذنب».

بهذا المبدأ الذي يقدر ويحكم ويريد فـإن الإنسان حـر في تصرفاته، وهو بهذه الصفة يحييه جوهـر غير مـادي، وهذه هي المادة الثالثة في إقرار إيمان الراهب.

ما من كائن مادي فعال بذاته، في حين أني فعال بذاتي، عبثاً يجادلني النـاس في ذلك فـإني أحسه، وهـذا الإحساس الذي يحدثني أقوى من العقل الذي يصارعه. إن في جسداً لا يؤثر عليه الغير، ويؤثر هو عليهم وهذه الحركة المتبادلة ليست موضع شك، بيد أن إرادتي مستقلة عن حـواسي إني استسلم وأقاوم، إني أزل أو أخرج ظافراً، وعندما أفعل شيئاً أحس في نفسي تماماً أكنت أفعل ما أريد أن أفعله، أم كنت لا أفعل غير الاستسلام لشهواتي. إن لي دائماً قدرة الإرادة، لا قوة التنفيذ. فعنـدما استسلم للغـواية أعمـل تحت ضغط أشياء خـارجية، وعنـدمـا أؤنب نفسي على هـذا الضعف فـإني لا أستمـع إلا لإرادتي، إني بـرذيلتي عبـد رقيق، وبنـــدمي حـر طليق، ولا يمحى من نفسي شعوري بالحرية إلا عنـدما انحط وأفسط، فأمنع صوت الروح من أن يعلو مناهضاً ناموس الجسد».

ويناقش روسو حـريـة الإنسـان في التقـديـر والاختيـار واستنادها بـالضرورة إلى دافـع أولي، وينتهي إلى أنه حـر في أفعاله، وبوصفه هذا فإن جوهراً غير مادي هـو الذي يحـركه. وهكذا تكتمل عناصر إقرار إيمانه الثلاثة وهي: إن أرادة تحرك

الكون وتحيي الطبيعة، وإن هناك عقلاً منظماً لهذه الحركة، وأن الإنسان حر في أفعاله وهو في حريته هذه مدفوع بجوهر غير مادي.

ومن هذه المبادىء الثلاثة يسهل على المرء استنباط المبادىء الأخرى:

١ ـ حرية الاختيار:

إن الإنسان حر. وهو مخير لا مسير. فكل ما يفعله بحرية لا يدخل في النظام الذي وضعته العناية الإلهية، ولا يمكن أن يعزى إليها. إنها لا تريد الشر الذي يقترفه الإنسان بإساءته استعمال الحرية التي تعطيها له، ولكنها لا تمنعه من اقترافه. فقد جعلته حراً ليس ليرتكب الشر وإنما ليفعل الخير، باختياره لقد وضعته في حالة تهيىء له إجراء هذا الاختيار باستعمال مقدرات زودته بها ولهذا فإن الشر الذي يرتكبه الإنسان تقع عواقبه على رأسه دون أن يتغير شيء من نظام الدنيا.

الشكوى[1] من أن الله لا يمنعه من فعل الشر، هي بمثابة

---

(١) إشارة إلى بروتس، إذ أنه عندما كان انطونيوس واوكتافيوس يطاردان =

الشكوى من أن الله له طبيعة فائقة، الشكوى من أنه صبغ أفعاله بصفة أخلاقية تشرف قدرة وترفع شأنه، ومن أتاحته له الحق في الفضيلة».

٢ ـ خلود الروح:

إن الإنسان ليس حراً فقط بل هو خالد أيضاً، فما دام الله قادراً فهو بالضرورة خير عادل. فالذي يقدر على كل شيء لا يمكن أن يريد إلا الخير. والكائن الفائق الطيبة لأنه فائق القدرة، لا بد أن يكون أيضاً فائق العدل، وإلا ناقض نفسه بنفسه. لأن حب النظام الذي يخلقه يسمى «خيراً»، وحب النظام الذي يحفظه يسمى «عدلاً».

يقال أن الله ليس مديناً لمخلوقاته بشيء. أما أنا فاعتقد أنه مدين لهم بكل ما وعدهم عندما منحهم الوجود. فإن إعطاءه إياهم فكرة عن الخير واشعارهم بحاجتهم إليه، إنما هو وعد منه لهم بهذا الخير..

= بروتس وكاسيوس، انهزم الأخيران في سهول فيليب. ويقول فلوطرخوس، أن بروتس صاح متعجباً في مرارة وقال: أيتها الفضيلة، لست إلا كلمة ١ ثم هرع إلى سيف ناوله له صديق فأغمده في صدره.

إلا أننا لو نظرنا إلى واقع الحال لما وجدنا لذلك أثراً أي أثر، فإن الشرير يفلح وينعم، والعادل الخير يضام ويظلم. ثم انظر ما يضطرم في نفوسنا من سخط وتبرم عندما نرى أملنا هذا يخفق ولا يتحقق، فينهض الضمير ضد خاطره ويتظلم! ويصيح به في توجع وألم: لقد خدعتني!

خدعتك أيها المتبجح! من قال لك هذا؟ هل فنيت روحك؟ هل بطل وجودك؟ أي بروتس، أي بني، لا تدنس حياتك النبيلة بالاجهاز عليها، لا تتخل عن أملك ومجدك مع جسدك في سهول فيليب[1] لماذا تقول: لا قيمة للفضيلة في اللحظة التي ستحظى فيها بجزاء فضيلتك؟ إنك تظن أنك ستموت: كلا سوف تعيش، وحينئذ سأفي بكل ما وعدتك..

وكأنما يلوح من تذمر غير الصابرين من البشر أن الله مدين بالأجر قبل الاستحقاق، وأنه ملزم بأداء ثمن فضيلتهم سلفاً. ولتكن خيرين أولاً وسنكون سعداء فيما بعد. ولا نطالبن بالجزاء قبل الظفر، ولا بالأجر قبل العمل.

---

(١) إشارة إلى بروتس، إذ أنه عندما كان انطونيوس وأوكتافيوس يطاردان بروتس وكاسيوس، انهزم الأخيران في سهور فيليب. ويقول فلوطرخوس، أن بروتس صاح متعجباً في مرارة وقال: أيتها الفضيلة، لست إلا كلمة! ثم هرع إلى سيف ناوله له صديق فأغمده في صدره.

. . . إذا كانت الروح غير مادية فإنها تستطيع البقاء بعد فناء الجسد وإذا هي بقيت بعده فإن في ذلك تزكية للعناية الإلهية، ولو لم يكن عندي دليل على عدم مادية الروح سوى انتصار الطالح واضطهاد الصالح في هذه الدنيا لكفاني هذا الدليل وحده لكي لا يخالجني في ذلك شك، ولكان مثل هذا الشذوذ الصارخ في الاتساق الشامل يحثني على السعي لإزالته ولكنت أقول: لا ينهني كل شيء لنا بانتهاء الحياة، وإنما كل شيء يعود للنظام بعد الممات».

٣ ـ الغبطة في الحياة الأخرى:

ويقول روسو أنه طوبى للأبرار في الحياة الأخرى، أما مستقبل الأشرار فلا يعنيه في شيء:

«. . . لكني أقول طوبى للأخيار، لأن خالقهم، خالق كل عدل وقد خلقهم ذوي إحساس ـ لم يخلقهم ليلاقوا العذاب، ثم أنهم لم يسئوا استعمال حريتهم في هذه الدار، ولذا فإنهم لم يحيدوا عن مصيرهم بخطئهم: ومع ذلك فقد تعذبوا في هذه الحياة، فلا بد أن يجدوا تعويضاً في الحياة الأخرى. وليس أساس هذا الشعور فضل الإنسان بقدر ما هو فكرته الطيبة التي تبدو لي ملازمة للعناية الإلهية. ولست في

ذلك إلا مفترضاً تنفيذ نواميس النظام، والتزام الله لماهيته على الدوام.

ولا تسألني بالمثل عما إذا كان الأشرار سيلقون عذاباً أبوياً، فإني أجهل ذلك أيضاً، وليس من رأيي حب الاستطلاع الباطل حتى أحاول إيضاح مسائل ليس وراءها طائل. ففيم يهمني مصير الأشرار؟ إني لا أعير نصيبهم أدنى اهتمام، ومع ذلك فإنه عسير علي أن أعتقد أنهم سيدانون بعذاب أبدي، فإذا كان العدل السامي ينتقم فإنه ينتقم منذ هذه الحياة. أيها الناس، أنتم وضلالكم وسائله! إنه يجعل الشرور التي تجلبونها على أنفسكم عقاباً للجرائم التي تسببها. إلا أنه ـ في قلوبكم الجشعة التي ينهشها الحسد والبخل والطمع وسط زائف رفاهيتكم ـ تعاقبكم الشهوات المنتقمة على جرائمكم فأي مدعاة للبحث عن الجحيم في الحياة الأخرى: إنه لفي قلب الأشرار منذ هذه الحياة».

٤ ـ قواعد السلوك:

وبعد أن أستخلص روسو المبادىء الحقيقية التي يهمه أن يعرفها، بقي عليه أن يبحث عن قواعد السلوك التي يجب أن يستنبطها ليؤدي دوره في الحياة. إنه يجد هذه القواعد في أعماق قلبه.

«إني لا أستخلص هذه القواعد من مبادىء فلسفة عالية، وإنما أجدها في أعماق قلبي، وقد نقشتها الطبيعة بأحرف لا تمحى. ما علي إلا أن أستشير نفسي فيما أريد أن أعمل: فكل ما أحس أنه خير فهو خير، وكل ما أحس أنه شر فهو شر: إن أفضل صوت هو الضمير، ونحن لا نلتجىء إلى براعة الاستدلال إلا إذا ساومناه. إن أول عناية هي العناية بالنفس، ومع ذلك فكم من مرة ينبئنا صوت الضمير بأننا بالعمل في سبيل خيرنا على حساب الغير إنما نقترف الشر ونحن نظن أننا نتبع حث الطبيعة في حين أننا نقاومها، لأنها باستماعنا ما تحدثنا به حواسنا نزدري ما تحدثنا به قلوبنا: الكائن الفعال يطيع، والكائن المنفعل يأمر!! إن الضمير هو صوت الروح، والشهوة هي صوت الجسد، فأي عجب في أنه كثيراً ما يتعارض هذان الصوتان؟ وحينئذ إلى أيهما نستمع؟ كثيراً ما يخدعنا العقل حتى لقد أصبح لنا كل الحق في أن نصده ونرده، أما الضمير فهيهات أن يخدع. إنه المرشد الحق للإنسان: وهو للروح بمثابة الغريزة للجسد. فالذي يتتبعه يطيع الطبيعة ولا يخشى أبداً أن يضل.

.... هناك إذن في أعماق النفوس مبدأ مفطور من العدل والفضيلة، نحكم بمقتضاه، برغم مبادئنا الذاتية، على أفعالنا وأفعال الغير، وهل هي طيبة أم سيئة. وهذا المبدأ هو ما

اسميه الضمير».

ويختم روسو هذا القسم من إقرار الإيمان بفقرة بليغة يشيد فيها بالضمير، وذلك الصوت العلوي الخالد، والمرشد الأمين لكائن محدود الذهن رغم ذكائه وحريته، والفيصل المعصوم بين الخير والشر، الذي يقرب الإنسان من الله، والذي بعونه ينحدر الإنسان إلى مستوى الحيوان، ويضيع في بحر الضلال بفعل فهم بلا قاعدة، وعقل بلا مبدأ.

وبهذا ينتهي روسو من قسم التأييد في دينه الطبيعي، أو التييزم[1].

القسم الثاني:

استمع الفتى إلى القس الطيب وهو يعرض عليه مبادئ

---

(١) التييزم يفترق عن الدييزم (الاعتقاد بالله وإنكار الوحي) فهو يعتقد في العناية الإلهية وخلود الروح ووجود حياة أخرى يجد فيها الأبرار الثواب والأشرار العقاب، ولا يرفض من الدين إلا الاسراء والمعجزات. أما المدييزم فلا يعتقد بالعناية الإلهية ولا بخلود الروح، وبالتالي لا يعتقد بالأخرى فعنده أن كل شيء ينتهي بانتهاء هذه الحياة هكذا فكر الفلاسفة العقليون. وننصح بالرجوع في هذا الشأن إلى رسالة روسو إلى فولتير «عن العناية الإلهية».

الدين الطبيعي في اهتمام وشغف وأنه يستمع إلى أورفيوس [1] العلوي، وهو يترنم بالأناشيد الأولى ويعلم الناس عبادة الآلهة، ولكنه طلب منه مواصلة الحديث لأنه لم يطلعه إلا على نصف ما ينبغي أن يعرفه، وسأله عن رأيه في الوحي، وفي الكتب المقدسة، وفي العقائد الغامضة التي لقنت له منذ صغره دون أن يدرك منها شيئاً أو يصدق بها، ودون أن يعرف هل يقبلها أم يرفضها.

وهنا يغير القس نغمته ويتحدث كفيلسوف، ويتحول من التأييد إلى الإنكار، ويستهل كلامه قائلاً:

«إنك لا تتبين في حديثي إلا الدين الطبيعي: وإنه لغريب حقاً أن يلزمنا دين آخر. أنى لي أن أعرف هذه الضرورة؟ أي ذنب ارتكبه في عبادتي لله حسب الأنوار التي يزور بها ذهني، وحسب المشاعر التي يبثها في قلبي . . . أرني ماذا نستطيع أن نضيف - في سبيل تمجيد الله، وخير المجتمع وفائدتي الخاصة - على واجبات القانون الطبيعي؟ وأي فضيلة

(١) أورفيوس في الميتولوجيا الاغريقية هو ابن أبوللو، وكان يمتاز بجمال فاتن وصوت عذب ساحر فيه رنة الهبة يستجيب لها كل من سمعه حتى الحيوان في الحقل والوحش في الغاب، ويتحدث عن الإلهة والحقائق الدينية بطريقة تبديه ملهماً. وفيما يتعلق بدوره الديني ارجع إلى كتاب إدوار شورى «كبار الموقفين» الفصل الخامس، اورفيوس.

يمكن أن نخلق من عقيدة جديدة لا تكون نتيجة لعقيدتي؟ إن أعظم الأفكار عن الألوهية تأتينا من العقل وحده. تأمل مشهد الطبيعة، واصغ لصوت الضمير، ألم يفض الله بكل شيء لعيوننا، وضميرنا، وتقديرنا؟ ماذا يستطيع الناس أن يقولوا لنا فوق ذلك؟ إن أوحاءهم لا أثر لها إلا الحط من قدر الله إذ ينسبون إليه الأضواء البشرية، إني لا أرى العقائد تعظمها بل توضح فكرة الكائن الاسمى بل أراها، ولا أراها تعظمها بل تصغرها، وأراها تضيف سخيف المتناقضات إلى ما يكتنفها من مستغلق الألغاز، وتجعل الإنسان متعجرفاً، قاسياً، غير متسمح، وبدلاً من أن تقيم السلام على الأرض فإنها تغرقها في الحديد والنار».

وعن اختلاف الأديان يقول:

«يقول لي الناس أنه لم يكن بد من وحي يعلمنا الطريقة التي يريد الله أن نعبده بها، ويدللون على ذلك باختلاف ما وضعوا من غريب الأديان ولا يرون أن هذا الاختلاف نفسه مأتاه هوى مختلف الاوحاء. إذ لم تكد الشعوب ترتمي أن يحدثها الله حتى جعل كل منها يحدثه على طريقته، ويقول ما أراده أن يقول، في حين أننا لو لم نستمع إلا إلى ما يقوله الله لقلب الإنسان، لما وجد على الأرض سوى دين واحد».

ثم يحذر من الخلط بين مراسيم العبادة وبين الدين:

إن العبادة التي يسألنا عنها الله هي عبادة القلب. وإذا كانت هذه العبادة صادقة فإنها دائماً على نسق واحد. إنه لبطلان في غاية الجنون، أن نتوهم أن الله يهتم كل هذا الاهتمام بشكل زي القسيس، وبترتيب ما ينطق من كلمات، وبما يؤدي على الهيكل من حركات، وبكل هذه الركعات.. إن الله يريد أن نعبده روحاً وإخلاصاً، وهذا فرض على كل الأديان، وعلى كل البلدان وعلى كل إنسان. أما العبادة الظاهرة، فإذا كان لزاماً أن تكون على نسق واحد تحقيقاً لنظام، فهذه مسألة إدارية محضة، ولا لزوم للوحي لتحقيق ذلك».

ويعجب روسو لكثرة الأديان والمذاهب السائدة في الأرض، وتبادلها التهم، وادعاء كل منها أنه وحده الحق، وأن غيره على ضلال، ويقول:

«وكنت أفكر: عجباً، أليست الحقيقة واحدة؟! هل ما أراه حقاً يمكن أن تروه باطلاً[1]؟، إذا كان منهج ذلك الذي

---

(١) يقول شارون في كتابه «عن الحكمة» أن دين المرء هو الدين الذي يعتنقه المكان الذي نشأ وتربى فيه، فنحن نجن أو نعمد أو نكون يهوداً أو مسلمين أو نصارى قبل أن نعرف أننا أناس. فالدين ليس من

يسلك الطريق القويم هو نفسه منهج ذلك الـذي يضل، فـأي فضل أو أي ذنب يزيد فيه أحدهما عن الآخـر؟ إن اختيارهمـا نتيجة للصدقة، وعزو هذا الاختيار إليهما ظلم أنه مكافأة امرىء أو معاقبته على أنه ولد في هذا البلد أو ذلك. إن التجاسر على القول بأن الله يحاسبنا على هذا النحو لمساس بعدالته».

لكن أي وحي نصـدق؟ إن كل وحي يستنـد إلى شهادة «الناس» وإلى معجزات لتأييد رسالة، وهذه المعجزات ثابتة، لكن بشهادة الناس أيضاً، ويصيح روسو:

«واعجبـاه! أشهادات بشـريـة على الـدوام؟! وأنـاس يبلغـونني دائماً مـا بلغهم أناس آخـرون؟ ألا ما أكثـر

اختيارنا وانتخابنا. (الكتاب الثاني الفصل الخامس ص ٢٥٧ طبعـة بوردو) وقال مونتاني في نفس المعنى ـ قبل شارون: «نحن مسيحيون لعين السبب الذي نحن من أجله فرنسيون أو ألمان». الكتاب الثاني الفصل الثاني عشر.

وقال أبو العلاء المعري في نفس المعنى:

عجبت لكسـرى وأشيـاعــه ... وغسـل الوجـوه ببـول البقـر
وقـول النصـارى إلـه يضـام ... ويـظلم حيـاً ولا ينـتصـر
وقــول اليهــود إلــه يـحب ... رشـاش الدمـاء وريح الفتـر
ويوم التقوا من أقاصي البلاد ... لـرض الجمار ولثم الحجـر
فــواعجبــاه من مقــالاتهم ... أيعمى عن الحق كـل البشر

الناس بين الله وبيني»[1].

ويهاجم روسو المعجزة وكل خارق للطبيعة لأنها إمارات خاصة يشهد بصحتها قلة من الناس يكتنفهم الغموض، ولا يعرف بقية الناس عنها شيئاً قط إلا بطريق النقل أو السمع، مما يفقدها قوة الإقناع، ولا يجعلها أوراق اعتماد صالحة للتصديق.

ويطلب روسو أن تكون العقائد الدينية جلية نيرة أخاذة ببداهتها، وأن تقدم لنا ديناً وأخلاق ومبادىء تتفق مع الصفات التي بها وحدها نتصور ماهية الله، ويقول:

«.... فإذا هي لم تعلمنا إلا سخافات لا منطق فيها، وإذا هي لم تقدم إلينا إلا بمشاعر العداء والبغضاء نحو أقراننا، والجزع والفزع من أنفسنا، وإذا هي لم تصف لنا إلا إلهاً، غضوباً، غيوراً، منتقماً، متغرضاً، حاقداً على البشر، إلهاً للعراك والحرب، دائم الاستعداد للتدمير والبطش، دائم التحدث عن العذاب والألم دائم المباهاة بمعاقبته حتى للأبرياء.. إذا هي كانت

---

(١) يختلف الأسلوب هنا عن أسلوب رده عن أسقف باريس كريستوف دي بومون: «هل من الطبيعي أن يبحث الله عن موسى ويستدعيه ليتحدث عن جان جاك روسو؟».

كـذلـك، مـا أمكن أن يجتـذب هـذا الإلـه المـرعب قلبي . . . وإذن لقلت: لا ، إن إلهكم هذا ليس إلهنا . إن الإلـه الذي يبـدأ باختيـار شعب واحد وإبعـاد بقية الـجـنس الـبشـري، لـيس بـالأب الـمـشـتـرك للناس. . . »[1].

ومـع ذلك فـإن الكتب المقـدسـة جـلالاً يمس شغـاف القلب، وفيها رقة مؤثرة وعذوبة وطهارة وتعاليم أخلاقية أخاذة وباهرة، ولكن فيها أيضاً تناقضات ظاهرة فماذا يفعل الإنسـان إزاءها؟ .

«من الواجب أن نكون دائماً متواضعين، متحفـظين، يا نبي ، وأن نحتـرم في سكون مـا لا نستطيع أن نرفضـه، وأن نخشع أمام الكائن الاسمى الذي لا يعرف الحقيقة سواه» .

وهي دعـــوة إلى الإيمـــان بـــالله ، بـــالقلب والضميـــر والوجدان، لكن ليس بالاستدلال لأن في الأديـان متناقضـات وأسرار لا يدركها العقل، ولا يقرها المنطق، ويجب أن تؤخذ على علاتها، لأنها على كل حال لا تؤثر في الحقيقة الأساسية

---

(١) يقصد روسو المسيحية وفي هذا المعنى قال فولتيـر في «قصيدة إلى اورانوس» : يجعل الناس منك طاغية وأنا أبحث فيك عن أب، وإذا لم أكن مسيحياً فإنما لأني أفوقهم حباً لك .

الكبرى: وجود الله وقدرته وطيبته وعدالته.

بعدها يعود روسو ليكمل الجزء الرابع من «إميل» وهو التكوين الأخلاقي للشاب.

الإعداد للحياة:

إن إميل لم يعد طفلاً. لقد أصبح رجلاً. يجب أن ننمي فيه الآن الشعور بالمسؤولية، ويجب أن نطلعه على الأسرار الخطيرة التي أخفيناها عنه فترة طويلة بحذر شديد. لكن علينا أن نتفادى إغراقه في القراءة، والعزلة، والحياة الرخوة المرفهة، وأن نرهق جسمه ونخفف خياله وحواسه بشغل طاقته في أعمال وأنشطة شاقة، ويحسن أن يبتعد به أستاذه عن المدنية، والظروف الاجتماعية فترة.

ولا بأس بعد أن أنرنا له الطريق وأعددناه للحياة، وحذرناه من المخاطر التي تتهدده، أن يفاتحه أستاذه في أمر الحب، لكن ليس بخطب توحي إليه بقطاعته وبشاعته، وإنما بتبصيره تبصيراً حريصاً واعياً بالفارق بين الانحلال والحب. ومع ذلك فإن إميل لن يعيش عمره وحده، وإنما سوف يعيش في المجتمع.

إميل في المجتمع :

«إن إميل لم يخلق لكي يبقى منعزلاً، إنه عضو في المجتمع ويجب أن يؤدي واجبه فيه. ولقد خلق ليعيش مع الناس ولذا يجب أن يعرفهم. إنه يعرف الإنسان بصفة عامة، ويتبقى عليه أن يعرف الأفراد. وهو يعرف ماذا يفعل الناس في المجتمع: ويتبقى عليه أن يرى كيف يعيش الناس فيه».

وهنا يبدو روسو وكأنه يدين طريقته في التربية. ولكن هذا غير صحيح. إنه لم يقل قط بأنه يجب حفظ الفرد معزولاً عن المجتمع، وإنما اعداؤه هم الذين يحاولون أن يلصقوا به هذه الفكرة الباطلة. فهو يقول ببساطة أن مدينتنا فاسدة، ولكنا يجب أن نوقف سريانها، فهي مصدر الخلل في المجتمع.

ومع ذلك فإن إميل لن يدخل المجتمع، ليلهو أو ليعيث فيه فساداً، وإنما ليبحث فيه عن الصحبة التي يشعر أن قلبه محتاج إليها. إن روسو يؤمن الشاب ضد مخذورات معينة يجب أن يلاحظها في بحثه، ويعني بأن يحدثه مسبقاً ومراراً عن الصفات التي يجب أن تتوافر في تلك الموعودة التي عليها أن تسعده، بل نراه يعنيها له بالاسم: إنها صوفيا.

وهو يرسم لها صورة كاملة، جسماً وخلقاً يجعله يأنف سلفاً من فتيات أخريات قد يغرينه برشاقتهن أو مفاتنهن، وحتى

يقارن الشاب بين طيشهن وخفتهن وبين المثل الأعلى الذي رسخ في ذهنه يستهول التباين الشديد.

ويدخل إميل المجتمع وعمره عشرون عاماً. وهو لا يتألق فيه ولا يسعى لكي يتألق، ولكنه يستلفت الأنظار ويجتذب عطف الناس ببساطته وطبيعته وصراحته. إنه يحب الناس، ويريد أن يحظى بالإعجاب. وبالاختلاط يتعلم ما هو الذوق «فما الذوق إلا القدرة على تقدير ما يروق وما لا يروق في نظر أكبر عدد من الناس»

وهنا يحين وقت مطالعة الكتب المفيدة اللطيفة. هنا يجب على الأستاذ أن يسعى لتكوين الشاب أدبياً، لينمي فيه ذوق الجمال الذي سيعتمد عليه روسو مستقبلاً في تحويل الشاب عن البحث عن السعادة المبتذلة الرخيصة وعن حب الثروة.

وبعد حديث طويل عن الثروة والذوق ببلاغة لا نظير لها يعود روسو إلى صوفيا ويقول:

«إننا نبحث دائماً عن صوفيا، وليس هذا مذهلاً: فقد كنت أبحث عنها دائماً حينما أثق أنها غير موجودة أبداً. «أما الآن فقد حان وقت البحث عنها ولهذا فهو يودع المجتمع، يودع باريس مدينة الضجة والدخان

والطين، ويعلن أنه ذاهب للبحث عن الحب والسعادة والبراءة».

الجزء الخامس:
صوفيا أو المرأة:

يعالج روسو في هذا الجزء الأخير من «إميل» تعليم المرأة. وهو يبدأ بإثبات أن الجنسين يختلفان اختلافاً بيناً وعميقاً ومن ثم يتعين أن تكون تنشئتهما مختلفة تماماً. ويناشد روسو كل أم أن تنشىء ابنتها لتكون امرأة طيبة صدوعاً لامر الطبيعة التي تريدها مختلفة عن الرجل.

ولكن هل ننشىء الفتاة على الجهل بالأشياء، ونقصر معارفها على إجادة التدبير المنزلي، وهل يرضى الرجل بأن يكون دورها في بيته أقرب إلى خادمته منها إلى شريكة حياته؟ إن روسو يستنكر هذا التصور الأناني والسخيف لمخالفته للطبيعة: «التي تريد للنساء أن يفكرن، أن يقدرن، أن يحببن، أن يعرفن، أن يعنين بذهنهن عنايتهن بزينتهن، فهذه هي الأسلحة التي يستعضن بها عن القوة التي تنقصهن...».

ومع ذلك ـ يلاحظ روسو ـ أن النساء يعتمدن على الرجال: «فناموس الطبيعة يقول فإن النساء تحت رحمة حكم

الرجال. لا يكفي أن يكن خليقات بالتقدير بل ينبغي أن يكن محل تقدير، ولا يكفي أن يكن حكيمات بل ينبغي أن يعترف بهن فعلاً كحكيمات. إن سعـادتهن ليست فقط في سلوكهن وإنما في سمعتهن».

وقد لا يكون هذا متناقضاً في الظاهر مع أفكارنا الحالية في تربية المرأة، ولكننا لا نورد الكتاب كاملاً، وبالتالي لا نورد كل حجج روسـو المنطقيـة. ولكن الأيام تثبت صـدق نظريـة روسو في شأن أخطار المدنية المتزايدة وما تستتبعه من خلل في العلاقات الإنسانية. ولعلنا لا ننسى أن نظريته واحدة، ولا تقبل التجزئة وأن أساسها نظريته في التربية.

يقول روسو: وكذلك فإن كل تربية النساء يجب أن تكون متعلقة بالرجال، أن يعجبنهم، إن يكن نافعات لهم، أن يكن محل حبهم وتقديرهم أن ينشئنهم صغاراً، ويرعينهم كباراً، أن ينصحبنهم، أن يسلبنهم، أن يجعلن حيـاتهم ممتعـة وديعـة وعـذبة: هـاك واجبات النسـاء في كـل زمـان. ومـا يجب أن نعلمنهن منذ طفولتهن. وطالما لا ترتفع إلى هـذا المبدأ فـإننا نبعد عن الهدف، وكل التعاليم التي نلقنها لهن لن تجدي في تحقيق سعادتهن وسعادتنا.

ويستطرد روسو مبدئياً ملاحظاته في شأن مـلابس المرأة

وألعابها ودراساتها ويؤيد أن تحتفظ وأن تتحكم في نفسها وتصرفاتها، ولكنه يعارض في حرمانها من الغناء والرقص واللعب، لأنه يريد أن تكتسب المواهب الجذابة. أما بالنسبة للدين فلا ينبغي أن نعاملها فيّ شأنه كما عاملنا الرجل وناقشناه وعلمناه، لأننا لو انتظرنا حتى نصبح في حالة تسمح لها بمناقشة هذه المسائل العويصة فإننا أغلب الظن لن تتهيأ لنا هذه الفرصة، ومن ثم فإن الفتيات يجب أن يكون لهن دين، وأن يؤمن به دون مناقشة.

ويرى روسو أن نفتح باب المجتمع للفتيات ولكن بعد تبصيرهن بمتعه وسخافاته وأوهامه الباطلة، وهو يطالب الأم التي تقدم ابنتها إلى المجتمع أن تجعلها تراه على حقيقته، أن تنفذ بها إلى جوهره ولا تكتفي بمظهره وأخيراً فإنه يشيد بفعالية التربية المنزلية: «لكي تحب الفتاة الحياة الهادئة والعائلية يجب أن تعرفها، يجب أن تكون قد شعرت بعذوبتها منذ طفولتها. وأنه لفي بيت الاسرة تتعلم حب بيتها الخاص، وكل امرأة لم تنشئها أمها لن تحب تنشئة أطلالها.

وهكذا فإن الفتاة لن تخرج عن المحيط العائلي ولن تبتعد عن أمها حتى تتعلق ببيتها في المستقبل. وبذلك فإنها ستعرف التدبير المنزلي، ولن تقتصر على الأعمال المتعلقة بجنسها، وإنما سيكون لها ذهنها المستنير الذي يربي الأطفال

ويفتن الـزوج. ولكنهـا يجب ألا تتبحـر في العلم: إن الفتـاة المتعلمـة والمدعية كارثة، ولو كان الرجال عقـلاء لظلت كـل عالمة عانساً!

القسم الرابع

الفصل الأول

روسو في موتييه

رأينا كيف صدر الأمر بحرق «إميل» واعتقال روسو، وكيف ساعده الأمير كونتي ومدام بوفليه والماريشال دي لوكسمبورج وعقيلته على الفرار من فرنسا إلى سويسرة، وكيف تهاون المحضرون في القبض عليه وكيف تركوه يهرب عندما قابلوه في الطريق يركب عربة البريد التي أقلته حتى عبر الحدود.

وما أن وصل روسو إلى حدود سويسرة حتى ترجل من العربة وقبل تربة بلاده في انفعال شديد. وقد نزل في ايفردون وهي قرية صغيرة في مقاطعة بيرن. لدى صديقه القديم روجان الذي استقبلته أسرته بالأحضان. والواقع أنه تحاشى المرور على جنيف لا خوفاً من مشاعر المواطنين، وإنما شكا في اتجاهات الحكومة.

وقد كان على حق. فما كاد يستقر في ايفردون حتى أصدر المجلس الصغير في ١٩ يونيو سنة ١٧٦٢ قراراً بحرق

«إميل» بوصفه كتاباً ملحداً. والعقد الاجتماعي بوصفه كتاباً مدمراً مخرباً، وبإدانة روسو ومحاكمته إذا وطئت قدمه أرض الجمهورية. وهكذا لم تكن حكومة جنيف أكثر رقة ولطفاً من حكومة فرنسا تجاه كاتب كان فخوراً باستعادته صفته السويسرة وفرحاً بوصوله إلى أرض الحرية. ولم تكتف حكومة جنيف بما اتخذت ضده من إجراءات وإنما ضغطت على حكومة بيرن، التي اتخذت قرارات مماثلة وطلبت من روسو مغادرة أرضها، فاضطر إلى الالتجاء إلى «موتييه ترافير» في واد من أودية جبال «جورا» في مقاطعة نيوشاتل التي لم تصدر قرارات عنيفة ضد روسو، لأنها كانت تابعة لفردريك الثاني ملك بروسيا، صديق الفلاسفة. وصحيح أن روسو هاجم فردريك وسياسته في كتابه «إميل» إلا أنه كتب للملك رسالة بليغة ماهرة أثار فيها نخوته فضمن كرم ضيافته. فضلاً عن أن فردريك وجد في ذلك فرصة طيبة لاعطاء أوروبا درساً في التسمح.

وكان الحاكم الذي يمثل فردريك في المقاطعة رجلاً اسكتلندياً يدعى اللورد كيث، ويسمى بالميلورد ماريشال وكان يعجب بشخصيته روسو ولذا فقد عامله كصديق. واستدعى روسو تيريز، ولكنه لم يقدمها للمجتمع بوصفها زوجته أو مرافقته، وإنما بوصفها مدبرة منزله. واتخذ روسو زياً غريباً أرمينياً فلبس قفطاناً وقلنسوة من الفرو. ولعلها نزوة، ولعلها

رغبة منه ألا يلبس كما يلبس الناس، ولكنه علل ذلك على كل حال بأن مرضه يستدعي أن يلبس القفطان، وعندما رآه اللورد ماريشال لأول مرة في هذا الزي داعبه قائلاً له بالعربية: السلام عليكم!

وكان روسو قد قطع على نفسه عهداً بأن يكف عن الكتابة وكانت تسليته الأولى الدراسة الهادئة للنباتات، وهو ذوق اكتسبه من اتصاله القديم بمدام دي فاران. وعاش في هذا الهدوء بضعة أسابيع، ثم علم أن كريستوف دي بومون، أسقف باريس أصدر بياناً يدين «إميل»، في ٢٠ أغسطس سنة ١٧٦٢.

وقد تأثر روسو لصدور هذا البيان من أسقف فاضل كريم كان يكن له التقدير لأنه لم يكن له ـ في نظره ـ محل بعد أن أدان الكتاب البرلمان والسوربون، بل رآه طعنة غادرة وخبيثة في ظهر رجل تعس تنكل به السلطة وطغت هذه الفكرة على كل تبرير منطقي لاقدام الأسقف على إصدار البيان. والواقع أن دي بيمون رأى من واجبه في هذه الفترة التي تتعرض لها الارثوكسية لهجوم الفلاسفة من كل اتجاه، أن يبدي رأيه في الكتاب ـ ممثلاً لرجال الاكليروس ـ إزاء شهرة مؤلفه. وبصرف النظر عن العادة جرت في مثل هذه الحالة ـ على ترك الإدانة للسلطات المدنية المختصة.

رسالة إلى كريستونف دي بومون :

شكا روسو أن أسقف باريس خلط تفنيد أفكاره بحملة شديدة على شخصه. ففي مستهل بيانه وصفه بأنه من حماة الضلال نهض يتفلسف وهو غير فيلسوف، وأن ذهنه مليء بالمعارف دون أن يستنير، وأنه ينشر الظلمات في أذهان الآخرين، كما وصفه في مواضع أخرى بأنه سيء للنية ودجال.

وفي اعتداد وثقة مطلقة واقتدار رد روسو على الأسقف الذي أصدر بيانه كمدافع عن الكاثوليكية الارثوذكسية ولكنه لم يرد كبروتستانتي، وإنما كفيلسوف غير منضم إلى أي دين. إمعاناً في إطلاق حريته في التفنيد، وفي الاستدلال العقلي. وبعد أن أخذ دي بومون على أنه لم يكن إنساناً ولا كريماً ولا عادلاً نحوه، أوضح أنه كلما أراد تفنيد نقطة في إميل أساء الاستدلال. وأنه لجأ إلى التشهير به ثم انبرى للبيان يرد عليه فقرة فقرة.

---

١ ـ جان جاك روسو، المصنفات الكاملة، طبعة فيرن باريس ١٨٣٥ ـ رسائل الجبن ـ المحاورات ـ أحلام جوال منفرد بصفة خاصة

٢ ـ ب . فلاندران، جان جاك روسو مؤلفات مختارة

٣ ـ أ . فاجيه. حياة روسو

٤ ـ ل . ديكرو. جان جاك روسو، المجلد الثاني

٥ ـ ب ـ موريس ماسون. دين روسو.

مثلاً، قال دي بومون في بيانه: إن الإنسان يشعر أنه مشدود بحبل مشؤون فكيف يتصدى لمقاومته بصلابة ما لم يتول توجيه طفولته أساتذة مفعمون بالفضيلة والحكمة والرعاية، وما لم يبذل هو ذاته طوال حياته، في ظل حماية الله وفضله، جوداً قوية ومتصلة؟

فيرد روسو في إطار نظريته المبينة على أن الطبيعة خبرة وأن الإنسان هو الذي يفسدها، فيقول أن الشر يصيب الإنسان يأتيه من التعليم، «إن الشاب لا يضل أبداً لا تلقاء نفسه، فكل الضلالات التي تصيبه منشؤها سوء التوجيه».

وقال دي بومون مفنداً تأخير تلقين الطفل تعاليم الدين كما اقترح روسو في إميل: لكي نجعل الشباب أكثر التفاتاً إلى الدروس التي نعدها له يريد هذا المؤلف أن نجرده من كل مبدأ ديني.

ويرد روسو وماذا يا سيدي لو أني قلت: لكي نجعل الشباب أكثر التفاتاً للدروس التي نعدها له فإننا نعني عناية فائقة بأخذه قبل سن النضج العقلي، فهل أكون أسأت الاستدلال أكثر منك؟.

ويصل روسو إلى الشيء المهم إلى إقرار إيمانه الذي نسبه إلى الخوري السافوي وعندئذ فإنه لا يخاطب أسقف

باريس وحده، وإنما كل رجال الاكليروس، وبصفة خاصة مجمع جنيف، ويطالبهم جميعاً بالاتفاق في ترديد التهم الموجهة ضده لأن بعضهم أدانه لأن كتابه يتضمن نظرية كافرة، وغيرهم أدانه لأنه يمجد الله في كتابه دون أن يؤمن بذلك، في أعماق قلبه ـ إن اختلاف أسباب التشهير به يجعله تشهيراً يفضح نفسه بنفسه. ويقول أنه ليس منافقاً، بل أنه الكاتب الوحيد في عصره الذي كتب باخلاص وصدق، والذي لم يقل إلا ما يعتقد به.

ويقال له أنه ليست كل الحقيقة تقال، فيرد بأن هذا مبدأ غامض مشبوه. وهنا يتبع منهجه المعتاد، ويقدم تاريخ أفكاره، ويقول أنه لاحظ الناس منذ شبابه ووجد تناقضاً بيناً بين جوهرهم ومظهرهم، بين تصدقهم وكلامهم، وأنهم دائماً واقعون تحت ضغط اجتماعي مستمر مناقض للطبيعة، ومن هنا فإنه ليس لزاماً أن نفترض أن الإنسان شرير بطبيعته، ما دمنا نستطيع أن نلاحظ أصل شره وأطراد نموه.

ويضيف روسو أنه لاحظ الذهن البشري في حالته الاجتماعية فوجد أن نمو الأنوار والرذائل مرده إلى أسباب واحدة، ليس بين الأفراد وإنما بين الشعوب، أي أن المدنية والفساد متلازمان، وأنه حاول أن يبحث عن الحقيقة في الكتب فلم يجد فيها سوى الضلال والكذب. فالكتاب ليسوا سوى

نصابين يزرعون الناس دون اعتبار لقانون سوى تحقيق مأربهم ومصالحهم. والقوم المسموح لهم بمخاطبة الناس علناً لا يجترؤن أو لا يريدون أن يقولوا إلا ما يلائم أولئك الذين أمروهم. وكل التعليم العام يميل دائماً إلى الكذب ما دام الذين يديرونه يرون مصلحتهم في أن يكذبوا. إن الناس يجب ألا يتلقوا نصف تعليم، فإذا كان يجب أن يظلوا على ضلال فلماذا لا تدعونهم في جهلهم يعمهون؟

وبطبيعة الحال فإن روسو يطبق ملاحظته عن السياسة هذه على الدين أيضاً يجد فيه نفس البطلان. فقد لاحظ أن الناس لديهم أديان ومذاه ب وعقائد يتبعونها دون أن يعتقدوا بها، ولأنها لا تنفذ إلى أعماق قلوبهم أو عقولهم فإنها لا تؤثر على سلوكهم. وهذا يدعو الأسقف الذي يناقضه إلى البحث معه عن الدين الحق، ولكنه يذكره بأن آراء القساوسة باطلة ولا ينتج عنها إلا إثارة الجدل السخيف: «إنهم مثلاً، لم يعودوا يسألون المسيحي ما إذا كان يخشى الله وإنما يسألونه إذا ما كان أرثوذكسياً. وهم يجعلونه يوقع على نماذج تتضمن اتفه الأسئلة واغباها. وعندما يمهرها بتوقيعه يصبح كل شيء على ما يرام، لا يدرون شيئاً عن الباقي، ويستخلص روسو من ذلك أنه: عندما ينتهي الأمر بالدين إلى ذلك فأي خير يضيثه على المجتمع؟ . . . فإن لا يكون هناك دين أفضل من أن يكون دين

فهمه سيء إلى هذا الحد.

ومن هنا بإنه يسعى إلى إنشاء دين يمكن أن يكون مشتركاً بين الناس أجمعين، ويفترض أن كل الشعوب اجتمعت لتتناقش وليعرض كل منها مزايا دينه، فإن كلا منها يتمسك بأفضلية دينه. وعندما تمل الجدل دون وصوله إلى تفاهم فإنها تسعى إلى إيجاد حد أدنى من النقط يمكن الاتفاق عليها. هذا الحد الأدنى يصبح ديناً شاملاً يتعين على أن يتبعه كل البشر، ومن يخالفه ينفى من المجتمع بوصفه عدواً لقوانينه الأساسية. وفيما يتعلق بالباقي الذي لم يتفق عليه الناس جميعاً، فلكل إنسان أن يعتقد فيه وكما يشاء، ولتتكون عقائد خاصة وبقدر عدد الشعوب، لكن فلتتبع بإخلاص نابع من القلوب، ويضيف روسو أنه مثل خلفي أن الذي يستدل على هذا النحو لن يكون ملحداً أو كافراً، وإنما هو يعرض وسيلة للسلام عادلة ومعقولة ونافعة للناس، وأنه يعتقد أن محاولة إدخال دين جديد في دولة ما دون موافقة «السيد»: لأنها إن لم تكن عصياناً مباشراً لله فهي عصيان مباشر للقانون، ومن يعصي القانون فهو يعصي الله[1].

ويتولى روسو تفنيد أقوال الأسقف دي بومون في شأن الوحي والمعجزة، بأنيا نظريته على الاتصال المباشر بين

---

(١) نلاحظ في هذه الفقرة نفس أسلوب التفكير في العقد الاجتماعي.

النفس البشرية والالوهية دون ما حاجة إلى وسائط . ومع أنه لا تنقصه بلاغة التعبير ولا براعة المنطق، ولا قوة الاستدلال وصدق الانفعال إلا أن الأسقف لم يرد عليه ثانية، ليس عن عجز أو عن إقحام، وإنما لأن تقاليد السلطة الكاثوليكية لا تسمح بالرد. رغم ما تضمنه من مواضع تحتمل الأخذ والرد.

وقد كان في تقدير روسو أن رسالته القاسية هذه قد زعزعت الأسقف الكاثوليكي وهزته، وأن ما أبداه من تمسك بالبروتستنتية ومحبة لها سوف يدعم مكانته في قلوب مواطنيه، ولا سيما المجلس الصغير[1]، غير أنه خاب ظنه فلم يشأ المجلس أن يراجع نفسه أو يعيد النظر في إدانته وفي قرار إحراق إميل. بل أنه وقف ضد رسالته إلى الأسقف دي بومون، وبناء على طلب الأسقف قرر المجلس مصادرة هذه الرسالة ومنع نشرها في جنيف.

عندئذ ثارت ثائرة روسو وأعلن تنازله عن صفته كمواطن من جنيف في ١٥ مايو ١٧٦٣، وفي الوقت نفسه كتب روسو إلى «سايوي» مستحثاً أصدقاءه على التحرك، ومحفزاً إياهم على استعمال حقهم في تقديم «رغبات» إلى المجلس الصغير

---

(١) المجلس الصغير هو الحكومة في جنيف وتتكون من ٢٥ عضواً. والمجلس الكبير هو المجلس التشريعي ويتكون من ٢٠٠ عضو.

«الحكومة»، لإعادة النظر في موقفها تجاهه. ونفذ أصدقاءه طلبه. وتقدموا بثلاث رغبات، غير أن المجلس لم يعرها التفاتاً يذكر، وأصر على موقفه في عناد. وأصبح في جنيف جبهتان تتنازعان: الأولى تتكون ليس فقط مَن أصدقاء روسو بل من جميع المتطلعين إلى الحكومة أكثر حرية وديمقراطية والذين ملوا تحفظ الارستقراطية الحاكمة المتحكمة، وهم في الواقع أغلبية الطبقة المتوسطة وجميع الشعب بمعناه الحقيقي أو العامة. وأولئك لم يكن لهم حق في جنيف إلا تقديم «رغبات» عن طريق المواطنين والبورجوازيين، فهم ليسوا مواطنين. أما الجبهة الثانية فهي طبقة السلبيين «المؤيدة للنظام القائم، وهي تتكون من الارتستقراطيين أعضاء المجلس الصغير أو الحكومة، وأعضاء المجلس الكبير أو المجلس التشريعي وعددهم مائتان من ٢٠ ألفاً هم مجموع أهالي جنيف. ومعظم رجال الاكليروس، وبعض البورجوازيين. وكل أولئك بطبيعة الحال ضد روسو ودينه الطبيعي وعقده الاجتماعي الذي يضيع ما لهم من امتيازات. ونشأ موقف خطير يهدد دستور جنيف وكيانها، فالأقلية الارستقراطية الحاكمة تواجه غلياناً من الأغلبية الديمقراطية.

عندئذ اتخذ المحامي العام تروا شان موقف الدفاع عن السابيين أو الأقلية في رسائل كان لها صدى كبير سماها «رسائل

الريف» لأنه كتبها وهو خارج المدينـة، وأحست الأغلبية أنهـا يتعين أن ترد على تلك الرسـائل، وكـان طبيعياً أن تلجـأ إلى روسو، ليس فقط باعتبـار صاحب الكتب التي أدت إلى هـذا الموقف، وإنما باعتباره خير من يرد ببلاغته ومنطقه البارع.

رسائل الجيل:

وقـد بادر روسـو إلى تلبية رغبـة الشعب، وأعد رده في تسع رسائل مقسمة إلى قسمين، قسم من ست رسـائل وقسم من ثلاث، وسماها «رسائل الجيل» لتواجه «رسائل الـريف». وهي في جملتها تبريـر لمؤلفات روسـو ولفكره. ولكنهـا أيضاً إدانة لخصومه. لقد مزق الكاثوليكية في رسـالته إلى الأسقف دي بومون، ولقد سعر بأن البروتستانية الاورثوذكسية ليست أقل ابتعاداً عن أفكارها وأقل عداوة له، فثار على هذه الارثوذكسية المتـزمتة، وحـاول استخلاص روح البـروتستينية التي سمـاها « مسيحية الإنجيل » وهي نوع من الإيمان العميق والـرقيق لا يقوم على أصول وعقائد وشعـائر بقـدر ما يقـدم على الاقتناع الشخصي.

ففي الـرسالـة الأولى: قال أن حقـوق المواطنين يجب ألا تـظل محـل شـك، أي يجب مـواصلة النضـال حتى يتحقق النصر، وهو لا يقول ذلك لمصلحته وإنما للمصلحة العامـة،

ويشكو المعاملة الجائرة القاسية التي لقيها من وطنه، ويندد بقرار إدانة كتابة موضحاً أم من قواعد القانون الطبيعي أنه لا جريمة بلا نص ولا عقوبة دون دفاع، وأنه لم تتح له فرصة الدفاع عن نفسه بعد أن دمغ كتابه بالكفر والزندقة والتبجح والتهور ويوضح أنه قد يخطىء لأنه من السر، ولكن الخطأ لا يعاقب صاحبه إلا إن كان عن قصد. وعقاب الخطأ من غير عمد من حق الجمهور لا من حق السلطة، أما إذا كان خطأ المؤلف ضاراً ومقصوداً فهو ليس خطأ بل جريمة تختص بها المحاكم، فإذا ثبتت الجريمة يتعين تحديد طبيعتها، والقانون الذي ينطبق عليها، والعقوبة التي توقع في شأنها، ثم يدافع عن إقرار إيمانه، موضحاً أنه ليس ضاراً سواء من ناحية المبدأ أو من ناحية النتيجة، ويختتم الجزء الثاني من الرسالة بالاستشهاد بقول المسيح عليه السلام: إن مملكتي ليست في هذه الدنيا.

وفي الرسالة الثانية: يبين أن دين جنيف الحقيقي ليس هو الدين السائد فيها وقتذاك. فإن مصلحي القرن السادس عشر ثاروا على السلطة «الكاثوليكية وانفصلوا عنها وعندما سئلوا عن السلطة التي يستندون إليها قالوا أنها سلطتهم الذاتية، سلطة عقولهم، كما قالوا أن معنى الإنجيل واضح ومفهوم لكل الناس في كل ما يخص السلام، وإن كل إنسان هو الحكم المختص

في شأن عقيدته، ولذلك أجازوا كل تفسير سوى تفسير واحد هو ذلك الذي يحرم حرية التفسير. هذا هو الأساس في عقيدة مدينة كالفين، ولكن القساوسة تحولوا عنها رويداً رويداً بفعل الاستدلال والمناقشة، وأنشأوا أورثوذوكسية جديدة، مخالفة لجوهر البروتستانتينية.

وفي الرسالة الثالثة: احتج روسو على الزعم أنه ينكر المعجزات وأوضح أنه يكتفي بتأييدها ويفضل الاستناد إلى أدلة غيرها. ونوه بأن السيد المسيح كثيراً ما رفض الإتيان بالمعجزات عندما طلب منه ذلك. وقال أن الناس يخلطون بين المعجزة وبين الظواهر الخارقة للطبيعة، وأن الكثير مما أخذ على أنه معجزة قد فسره العلم، حتى أصبح مستحيلاً أحياناً أن نفرق بين ما هو معجزة وما ليس بمعجزة. وهو يلجأ بطبيعة الحال إلى الاستدلال على شرح وجهة نظره القائمة على استنكار المعجزة كدليل على صحة عقيدته، رغم وجود معجزات، فحتى الكتاب المقدس تحدث عن معجزات سحرة فرعون.

وفي الرسالة الرابعة: تناول موضوعاً مختلفاً تماماً عما سبق، فانتقد الاجراءات التي اتخذت لإدانته. فحتى لو كان مذنباً حقيقة لما جاز أن يعامل على هذا النحو، وخطأه على كل حال لا يمس عهده كمواطن برجوازي، لأنه يعيش طبقاً للعقيدة

السائدة في المجتمع، ولم يتصرف تصرفاً يخل بها، ومن ثم فإن خطأه ـ إن كان قد أخطأ هو خطأ إيمان، يقع في اختصاص المجتمع الديني وليس المجلس الصغير المدني الذي أدانه ومن ثم فإن إجراءات إدانته.

وفي الرسالة الخامسة: فند روسو الأدلة التي ساقها ترونشان في كتابه «رسائل الريف» لتبرير قرار إدانته، لا سيما فيما يتعلق بما زعمه ترونشان من أن الأمر يختلف بين كتابي «إميل» و «العقد الاجتماعي» والكتب الأخرى التي مست الدين والمجتمع ولم يصدر أمر بإدانتها لأنها لم تمس جوهر العقيدة. وهنا يقول روسو «آه، إني أرجو أن تدان التخرصات وليس الاستدلال». إنه يقدر أنه إذا أخطأ الشخص الذي يستدل كان الرد عليه بالاستدلال أيضاً، فإذا كانت السلطة لا تريد أن تتجشم هذا العناء عليها على الأقل أن تتركه في هدوء. ولهذا فإنه عجيب حقاً أن يعاقب الاستدلال ولا تعاقب السخرية والاحتقار والإهانات الموجهة للدين.

وفي الرسالة السادسة: انتقل روسو من الدين إلى المجتمع. من إميل إلى العقد الاجتماعي فعالج موضوع الحكومة، فانتقد النعيم في الاتهام الموجه ضده. ولخص مبادىء العقد الاجتماعي موضحاً أنها نفس مبادىء حكومة جنيف، وبين عجب من أن حكومة جنيف التي امتدحها انقلبت

إلى حامية للحكومات الأخرى التي انتقدها، كأنما تعمل هي ضد نظامها.

وفي الرسالة السابعة: خاطب أهل جنيف قائلاً: إنكم تتساءلون ما هي الحالة الراهنة لجمهوريتكم، وماذا يجب على مواطنيها أن يفعلوا. والجواب على السؤال الأول أسهل منه على السؤال الثاني. أن قوماً في غاية العقل والحكمة يقولون: نحن أكثر الشعوب حرية على الإطلاق، وقوم آخرون في غاية العقل والحكمة يقولون: نحن نعيش في ظل أقسى عبودية. وأنتم تسألونني أيهم على حق؟ كلهم على حق، من وجهات نظر مختلفة: إن تمييزاً بسيطاً يوقف بينهم. فلا شيء أكثر حرية من حالتكم الشرعية، ولا شيء أكثر عبودية من حالتكم الحالية!

وبعد أن أجاب على السؤال تلك الإجابة الواضحة القاطعة يشرح روسو كيف أن أهل جنيف الأحرار الأقوياء أصلاً، قد انقلبوا إلى عجزة أذلاء فعلاً، بعد أن أصبح المجلس الصغير ـ الحكومة ـ كل شيء والغي كيان المجلس الكبير ـ السلطة التشريعية.

وفي الرسالتين الثامنة والتاسعة: واصل روسو حديثه عن دستور جنيف، وعن طغيان الحكومة، واختتم الرسائل بقوله: إن سلطة المجلس الصغير لديكم أصبحت مطلقة من كل

وجـه. إنه الـوزير والأمير أنـه الخصم والحكم: فهـو يشـرع وينفـذ، وهو يستـدعي ويعتقل ويسجن. إنـه يحاكم ويعـاقب بنفســه، ولـديــه السلطة لكي يفعـل كــل شيء، وكـــل من يستخدمهم لا يقعون تحت طائلة القانون، وهو لا يقدم حساباً لأحد عن سلوكه ولا عن سلوكهم. ولقد جاء الكتـاب بالقنبلة الحارقة التي ألقيت فجأة في قلب جنيف، ولكن ملقيها نفسـه لم ينـج من آثارهـا فقد قلبت حيـاتـه رأسـاً على عقب، وأي منقلب!

الفصل الثاني

من منفى إلى منفى

١٧٦٥ - ١٧٧٠

قبل أن ننتقل إلى المرحلة التالية من حياة روسو لا بد أن نتوقف هنا لحظة لنوضح أن كل حياته ومؤلفاته بعد العقد الاجتماعي وإميل بصفة خاصة قد كرست لتوضيح أفكاره في الكتابين، ولا سيما في إميل وإقرار إيمانه، نظراً لما كان لهما من دوي ـ شديد، ولتباين وجهات النظر فيهما إلى مد مذهل، ولأنه هو نفسه تسلطت عليه فكرة أنه ضحية مؤامرة ليست خالية من بصمات فولتير إلى اضطهاده لا إلى نحو لم يسبق له مثيل.

لقد آمن روسو بأن إميل هو «أفضل مؤلفاته وأهمها»[1]. ورأينا كيف دافع عن كتابه بحرارة وعنف في «رسائل الجبل» رداً على ترونشان. وسنرى كيف يواصل دفاعه في «أحلام جواد منفرد» حيث يقول: إنه كتاب ورثه وحط من شأنه الجيل الراهن، ولكني أرجو أن يحدث ذات يوم ثورة بين الناس إذا

(١) الاعترافات، الكتاب الحادي عشر.

تولد فيهم يوماً سلامة الادراك وحسن النية[1]، بعد أن قال في رسالته إلى الأسقف دي بومون» لو لم تكن في هذا الكتاب كلمة حق، لكان الواجب تمجيد ما فيه من خواطر وأعزازها بحسباتها أعذب أحلام يمكن أن تداعب وتغذي قلب رجل خير»[2]

ولم يكن هذا رأيه وحده، بل كان رأي الكثيرين من الكتاب المستنيرين. فقد قال شاتو بريان عن إميل: «إن الحكم يجب أن يعد كتاب روسو هذا كنزاً ثميناً. ولعله ليس في الدنيا بأسرها خمسة كتب تستحق القراءة أحدها إميل. إن إقرار إيمان الخوري السلفوي، والمباديء السياسية والأخلاقية التي تضمنها هذا الكتاب قد أصبحت المعول الذي هدم بناء حكومات اوروبا الحالية لا سيما حكومة فرنسا المهدمة الآن. ويستفاد من ذلك أن الحقيقة لا تفيد أشرار الناس، وأنها يجب أن تظل في صدر الحكيم مثل الأمل في قلب صندوق بندورا. ولو أني عشت في مصر جان جاك لوددت أن أكون من تلامذته، ولنصحت أستاذي حينئذ بأن يكتم سره»[3]. وقال عنه: فيكتور

(١) أحلام جواد منفرد، النزهة الثالثة.
(٢) رسالة إلى الأسقف دي بومون.
(٣) شاتوبريان، مقال عن الثورات، الجزء الثاني. وبندورا في الميثولوجيا الأفريقية هي أول امرأة خلقها فولكان. فقد أحبتها منيرفا =

كوزان: «أنه أعظم إنتاج في القرن الثامن عشر وأسلمه»[1]. وقال عنه روبسبير بعد أن جعل دين روسو دين فرنسا: بين أولئك الذين برزوا في ميدان الأدب والفلسفة أثبت رجل بسمو نفسه ونبل شمائله أنه جدير بمنصبه ومربي الجنس البشري، فقد هاجم الطغيان بصراحة وتحدث عن الالوهية بحماسة، ووصفت بلاغته الحازمة النبيلة بألفاظ من نار مفاتن الفضيلة.

ولكن الاضطهاد الذي لاقاه الكتابان ـ إميل والعقد الاجتماعي ـ يجل عن الوصف فقد هوجما بشدة أيضاً من السلطات الدينية والفلسفية لأسباب ظاهرها الحرص على كيان المجتمع، وجوهرها الخوف من تأثيره الهائل وبلاغته الأخاذة ومنطقه المقنع البارع.

وكما صدرت القرارات بإدانة إميل والعقد الاجتماعي وبتحريقهما بسرعة، فقد صدر قرار بإدانة رسائل الجيل وتحريقهما في باريس ـ في نفس الوقت مع القاموس الفلسفي

= إلهة الحكمة، وحبتها بكل المفاتن والمواهب وأهداها زيوس رب الأرباب صندوقاً حبست فيه كل الشرور، وبعث بها على الأرض إلى أبيتموس الرجل الأول الذي تزوج بها وفتح ابيتموس ذلك الصندوق والمشئوم فاطلق الشرور كافة من عقالها، ولم يبق في قلب الصندوق سوى الأمل.

(١) فيكتور كوزان، جريدة العلماء، نوفمبر ١٨٤٨.

لفولتير ـ وهي مصادفة ساخرة، كما عوملت بالمثل في لاهاي، وفي جنيف. ولم تخف عنه صديقته مدام دي لاتور مخاوفها، وكتب له صديقه مولتو يقول: «إن رسائلك الجبلية هي نشيج بطل، ولكن ترى ماذا يكون تأثير كتابك بيننا؟ إن الله وحده يعلم ما إذا كانت سوف تمسحه بدموعك، أو ما إذا كان وطنك سيقيم لك الهياكل!

أما روسو نفسه فقد واصل مصيره التعس الذي كتب له طوال خمس سنوات. فالمنفى هنا والمنفى هناك، المنفى عن الدوام. لقد حرقت عليه الإقامة في باريس، وفي جنيف عند مرسوم ٩ يونيو ١٧٦٢، وطرد من إيفردون، ثم وجد ملجأ زهاء ثلاث سنوات في موتييه، ولكن رسائل الجبل غيرت الموقف، وإذا كانت تلك الرسائل قد وقعت كالصاعقة على رؤوس خصومه، فقد عرضته هو نفسه لاضطهادات جديدة.

كان روسو قد أرسل كتابه إلى القس موفولان مقروناً بكتاب قال له فيه أنه إذا كان قد تناول أمر الدين في الكتاب فلكي يدافع عنه ضد المتحرصين عليه، وفي الوقت الذي لم يعوز النفس فيه أن يقتنع تعرض للضغط فاضطر إلى الوقوف ضد المؤلف المقيم في دائرة اختصاص ابرسيه نيوشاتل.

وكانت في صف روسو إرادة فردريك ملك بروسيا ـ التي

تتبعها نيوشاتل ـ والمساهمة المخلصة من جانب صديقه بيرو الذي كتب من نيوشاتل ضد مضطهديه، ولكن كانت تقف ضده الطائفة «الموقرة» في المقاطعة وكل القساوسة الذين سيقودهم موتولان منذ ذلك الوقت.

وخلال ذلك الوقت ظهر في نهاية ١٧٦٤ في جنيف كتيب شديد اللهجة موجه ضد جان جاك روسو، عنوانه «شعور المواطنين»، يتخذ كاتبه المجهول موقف الدفاع عن الدين وعن المعجزة بأسلوب بارع ولهجة صادقة تخلصها من أي شك. وكان واضحاً أنه قس يدافع عن ربه بحرارة مقدسة، ومواطن يدافع عن موطنه بحماسة بالغة. وقد كشف الكتيب كل مثالب الحياة الخاصة لروسو ـ التي يجهلها الناس وقتذاك ـ مع إضافات وهوامش تستهدف التشهير، لا سيما فيما يتعلق باتحاده المشؤوم مع تيريز ليفاسير، وإهمال أطفاله منها.

وقد ظن روسو أن مؤلف الكتيب هو القس «فيرن» الذي كان صديقه من قبل، والذي اعتقد أن من واجبه مناقضة أفكار روسو الدينية في «إميل» فلم يغتفر له روسو وقفته ضده، وعده من المتفقين. وكان روسو مخطئاً في ظنه. لأن يد فولتير هي التي دبجت الكتاب!.

على أن موقف روسو بدأ يسوء في موتييه، فأوقف

مشروع عمل طبعة عامة لمصنفاته كاملة، وكانت مطبعة فوش على وشك بدئه، واستدعى للمثول أمام المجمع الديني للمقاطعة يوم ٢٩ مارس ١٧٦٥، ولكنه تخلف وأرسل قصاصة قال فيها أنه لن يقدم حساباً عن إيمانه إلا لله وحده. وكان أصدقاؤه في المجمع أغلبية فلم يصدر قرار بإدانته. بيد أن مونولات الذي أعلنها حرباً عليه لم يتوقف ولم يهدأ، بل دمغه بالكفر، فتغيرت نظرة الأهالي إليه، بعد أن كانوا يجلونه ويعطفون عليه، فبدأوا يسيئون إليه ويشتمونه ورفيقته في الشوارع والطرقات!.

وأخيراً بلغ السيل الزبى في ليلة ٧ سبتمبر ١٧٦٥ وقام لفيف من الفلاحين الثائرين والصبية برجم بيت روسو بالحجارة، وتحطمت بعض النوافذ، وأصيبت مدبرة بيته. وفي اليوم التالي تدخل بعض الوسطاء من كبار القوم في المدينة لذى روسو، لكي ينحني للعاصفة ويغادر المدينة ولو لبعض الوقت، ما دام لا يستطيع أن يقيم فيها مكرماً مؤمناً. واقتنع، ولكن أين يذهب؟.

لقد تردد في اختيار المكان الذي يلتجيء إليه فقد عرض عليه أن يقيم في انجلترا، أو في سكوتلندا، أو بوتسدام، بل فكر في كورسيكا. ولكن تعلقه بسويسرة حمله على اختيار جزيرة سان بيير في بحيرة بيين، وكانت العقبة الوحيدة أنها من

أعمال مقاطعة «بيرن» التي طرد منها منذ ثلاث سنوات. ولكن السلطات المسؤولة في المقاطعة رضيت بتأمين إقامته فيها بعد تدخلِ الوسطاء.

في سان بيير:

كانت بمثابة «ارميتاج» جديدة بالقياس إليه. وكان يحصل هو وتيريز على معاش يتسلمه من مندوب الحكومة الذي يقيم مع أسرته في البيت الوحيد في الجزيرة. وكان يقضي سحابة النهار في التجوال والتأمل ودراسة النباتات. وكان سعيداً بهذه المشاغل الريفية في أحضان الطبيعة التي أحبها دائماً، ولكنها سعادة لم تطل.

فلم تمضِ ستة أسابيع حتى تلقى روسو أمراً بمغادرة المقاطعة. وكان لا يصدق، فقد أمنوا إقامته، وأجروا له مقراً في الجزيرة، وتركوه يقيم بالفعل. وطلب منهم مهلة، ليتدبر أمره، فهو لا يدري أين يذهب وما هو مصيره، بل تمنى أن يعتقلوه اعتقالاً دائماً بدلاً من أن يتشرد على الأرض دون انقطاع، ولكنهم كانوا من القسوة بحيث انذروه بالمغادرة خلال ثمان وأربعين ساعة.

وصدع للأمر، وهو على «بيين»، وفكر في برلين، وعرج

على «بال» ثم وصل يوم ٤ نوفمبر إلى ستراسبورج في حالة من التعب لا تسمح له بمواصلة الرحيل، ولكن الاستقبال الطيب الذي لقيه هدأ من روعه وطيب خاطره. وانهالت عليه الدعوات وأقيمت له الحفلات حتى حل به الارهاق. وعرضت روايته «عراف القرية» في أوبرا المدينة، واتخذت العدة لعرض مسرحياته الهزلية، حتى ظن أنه سينفق الشتاء في تلك المدينة المضيافة، إلا أن السيد «لوتز» ـ أحد أصدقائه ـ عرض عليه أن يصحبه إلى انجلترا. وقبل روسو الاقتراح، ونصحه الميلورد ماريشال ومدام بوفير على قبول دعوة «دافيد هيوم». وكان هيوم في مثل سنه، وكان نبيلاً، أنفق فترة من حياته في فرنسا، ويجيد الفرنسية أجادته للإنجليزية، ويكن لروسو أعظم التقدير[1]

وحزم روسو أمره وغادر ستراسبورج في ٩ ديسمبر، وعلى باريس عرج حيث أقام فيها أسبوعين في ضيافة «الأمير كونتي»، وسط عناية فائقة واهتمام بالغ وإغضاء من السلطة، وإن استحثت هيوم عن استعجال سفره.

---

(١) دافيد هيوم فيلسوف إنجليزي ولد عام ١٧١١ وله مؤلفات عدة أهمها: مقال في الإدراك الإنساني.

في إنجلترا:

وفي ٢ يناير ١٧٦٦ سافر إلى انجلترا، ووصل يوم ١٣ إلى لندن برفقة صديقه لونز ومضيفه هيوم، الذي وعد بناء على طلبه، بالبحث عن مقر ريفي له على الفور. وقد أقام فعلاً زهاء شهرين في «شيزويك» من ضواحي لندن، حيث لحقت به تيريز، كما أرسلت له كتبه ومذكراته. وكان قد بدأ في كتابة «الاعترافات» أثناء إقامته في فال ترافير». ثم انتقل في منتصف مارس إلى «ووتون» في دير بيشاير، حيث وضع المستر دفنيورت صديق هيوم قصره تحت تصرفه. وأنفق روسو سنة في هذا القصر الريفي. كان وسط الخضرة التي يهواها، والطبيعة التي يتمناها، ولكنه كان تعساً غاية التعاسة.

لقد بدأت علاقته بهيوم تتدهور. كان قد طلب الا تصل إليه مراسلاته بطريق البريد، لفرط شكه في الناس، واعتقاده بأن أعداء كثيرين غير مرئيه، معروفين كانوا أو غير معروفين. ومنذ الأيام الأولى أصبح دافيد هيوم محل اشتباه في نظره حتى أنه كتب في ٣١ مارس ١٧٦٦ إلى المسيو ديفرانوا يقول:

«كتبت لك أمس الأول يا صديقي، وتلقيت في نفس الليلة رسالتك المؤرخة ١٥ ووجدتها قد فتحت وأعيد إلصاقها، وقد وصلتني عن طريق المستر هيوم الوثيق

الصلة بـابن ترونشـان النصاب والمقيم معـه في نفس المنـزل، والوثيق الصلة أيضـاً ـ في باريس ـ بـأخـطر أعدائي، والذي سوف أسوي حسابه معي فيما بعد إذا لم يكن نصاباً. إني مـدين له بكـل ما شملني بـه من رعـاية في بلد أجهـل لغته. وهـو يشغل نفســه كثيـراً بمصالحي الصغيرة، ولكن سمعتي لا تكسب من ذلك شيئاً، ولا أدري كيف أن الصحف السيارة كانت تكتب عني كثيراً ويشرف دائماً قبل وصـولنا، لم تعـد تتكلم عني منـذ وصولي إلى لنـدن، أو لم تعد تقـول إلا ما يسيء إلي وكـل شؤوني، كــل رسـائلي لم تتم على يـديه، والـرسائـل التي أكتبهـا لا تصـل أبـداً، والتي أتلقاها وجدتها مفتوحة. إن وقائع أخرى كثيرة تجعلني أشك في أمره. . ».

وفي الوقت نفسه حرر أعداء روسو رسالة موجهة إليه من فردريك ملك بروسيا، وحشوا الرسالة المزعومة بفقرات ساخرة تتناول طباع روسو بصفة خـاصة، وتـرجموهـا إلى الإنـجليزيـة ونشروها، وعلقت عليها الصحف وانتقدت تصـرفاتـه لا سيما في رحيله من سويسره ومروره في باريس[١].

---

(١) ظن روسو أن دالامبير هو كاتب هذه الرسالة. ولكن كاتبها هو والبول =

كذلك فإن ڤولتير لم يكف عن إلقاء الكتيبات الهدامة عليه ـ من بعيد ـ كالقنابل ففي مايو ١٧٦٦ ظهرت في الصحف الإنجليزية «رسالة إلى الدكتور يانسوف «مليئة بالسخرية من روسو مثل قوله: أي عزيزي يانسوف، قيل لي أنك تريد الذهاب إلى إنجلترا، إنها بلد النساء الحسان والفلاسفة الطيبين. وأولئك النساء الحسان وهؤلاء الفلاسفة الطيبون قد يدفعهم حب الاستطلاع إلى رؤيتك، وسوف تسمح لهم برؤيتك. ورجال الصحافة يمسكون سجلاً لكل حركاتك وسكناتك، وسيتحدثون عن جاك روسو العظيم حديثهم عن فيل الملك وحمار الملكة الوحشي، لأن الإنجليز تجذبهم المنتجات النادرة من كل نوع مهما كانت أندر مما يقدرون. . . إنهم سوف يفحصونك بدهشة من أخمص قدميك إلى ذؤابة رأسك، وهم يفكرون في الجنون البشري. . .

وقد كتب روسو إلى أحد أصدقائه شاكياً حقد فولتير الأسود الذي تنضح بهذه الرسالة، ولكنه ازداد شكاً في دافيد هيوم، وأيقن أنه ورءها أيضاً، وأنه ما دعاه إلى انجلترا إلا ليلطخ سمعته وليجعله موضع سخرية.

= صديق روسو الوثيق الصلة بهيوم.

قطيعة مع هيوم:

ولذا فإنه بعد أن كظم نفسه طويلاً كتب له في ٢٣ يونيو (كنت أظن أن صحتي، حين يفسره ضميرك، سيقول لك الكفاية، أما وليس في نيتك أن تفهمه فإني سأتكلم.

«إني أعرفك، يا سيدي، وأنت لا تجهل ذلك. دون روابط مسبقة، ودون معارك، ودون مجادلات، ودون تعارف إلا عن طريق السمعة الأدبية، أبديت إلحاحاً في أن تقدم لي خلال تعاستي أصدقاءك وعنايتك. ولقد تأثرت لكرمك فألقيت بنفسي بين ذراعيك: وتقودني إلى إنجلترا، لتقدم لي من الظاهر ملاذاً، ولكي تجللني بالعار في الواقع.. وأنت تعرف كيف رد قلبي باستنكار شديد أول اشتباه في أغراضك. وأني لأقول لك، وأنا أعانقك والدموع تنهال من عيني، أنك إذا لم تكن أحسن الناس طراً فلا بد أن تكون أكثرهم سواداً. ولو أنك فكرة في سلوكك الخفي لقلت أحياناً أنك لست أفضل الناس طرا..»

---

(٢) المركيز ميرابوهو والد الخطيب المشهور، وكان يجد متعة في تسمية نفسه «صديق الناس» وقد عرض على روسو استضافته في أحد ممتلكاته.

وقد طلب هيوم تفسيراً بطبيعة الحال، فأرسل لـه روسو رسالة من ٣٦ صفحة من القطع الكبير مؤرخة ١٠ يوليو ١٧٦٦ توضح له أسباب الشك والقطيعة. وقد رد عليهن هيوم برسالة طـويلة أثـارت ضجـة كبيـرة، كمـا أثـارت على روسـو بعض أصدقائه حتى اللورد ماريشال ومدام بوفلير، وكان ذلك سبباً في وصول روسو إلى درجة من التعاسة لم يتعرض لها مفكر، ولكن هذا نصيبه المقدر.

على أن الشيء المـدهش حقاً أن إقـامتـه في «ووتـون» طالت ـ في مثل هذه الظروف القاسية ـ زهاء سنة، إلى إبـريل ١٧٦٧. ولكنه لم يكن حراً في أن يرحل كمـا يريـد، أو كان ـ كما قال ـ سجيناً لدى الذين استضافوه، وتركـوه فيما يشبـه استحالة الاتصال بأصدقائه القليلين الذين بقـوا له، حتى أنـه كتب إلى ديفنبورت الذي وضع بيته تحت تصرفه رسالة في ٢٢ ديسمبر ١٧٦٦ يقول فيها: «هل يجب أن أبقى في منزلك رغماً عنك؟» وهل يمكنني أن أغادره دون مساعدتك؟».

الـواقع أنـه كان يتلمس وسيلة للرحيـل. وقد كتب إلى المركيز ميرابو في ٣١ يناير ١٧٦٦ يقول: «كم يكون جميلاً لو أن صديق الناس قدم ملاذاً لصديق المساواة!».

العودة إلى فرنسا:

وأخيراً غادر «ووتون» يوم ٣٠ إبريل، ووصل إلى كاليه في ٢٢ مايو، ثم إلى فليرى في ٥ يونيو، وهي في مقاطعة «ميدة» حيث نزل في ضيافة الماركيز ميرابو. ولكن إقامته هناك أثارت لغطاً في باريس وفي البرلمان، فلم يكن بد من أن تكون مؤقتة. وفي ٢٦ يونيو وصل إلى قصر «ترى» في نورماندي في ضيافة الأمير كونتي، الذي عرفه إبان إقامته في مونمورنس لدى الماريشال دي لوكسمبورج. ومع أن الأمير كونتي أكرم وفادته إلا أن المعادة كانت قد خاصمته نهائياً، وأصبح متعذراً عليه أن يجدها في أي مكان، فقد كتب إلى المركيز ميرابو يقول: «إنك تريد أن أقص عليك كيف أعيش هنا. كلا، يا صديقي المحترم، إني لا أريد أن أمزق قلبك النبيل بقصة مثل هذه. إن المعاملة التي ألقاها في هذا البلد، من جانب كل السكان بلا استثناء، ومنذ لحظة وصولي، مخالفة جداً لروح الوطن ولنوايا الأمير العظيم الذي منحني هذا الملاذ..»

كذلك كتب إلى الدوقة دي لوكسمبورج طالباً تدخلها لدى الأمير لكي يعفيه من الإقامة في هذه المنطقة دون أن يفقد صداقته ورضاه، وملتمساً منها أن تتقصى ما إذا كانت الحكومة تسمح له بالاستقرار في أي ركن هادىء في المملكة يمكنه أن يعيش ويموت فيه في هدوء وسلام، أو أن يستمر في البحث

عن ملاذ له خارج البلد.

وسواء في رسالته إلى الدوقة أو في رسالة أخرى إلى المركيز ميرابو أشار روسو إلى أن مصدر تعاسته أنه يعيش دائماً في ضيافة أحد الكبراء وأنه لا بد دائماً من وسطاء بينهما وأنه يحن إلى المعيشة في بيت خاص به لينفق أيامه الأخيرة في صفاء وسلام.

الإقامة في دوفينيه:

وفي منتصف يونيه ١٧٦٨ غادر فايري إلى ليون ثم توجه إلى جرينوبل، وفي نيته أن يذهب إلى شامبيري ليزور قبر مدام دي فاران، ورجع إلى برجوان في دوفينيه، بين ليون وشامبيري، حيث استقر وحيث قرر أيضاً تصحيح علاقة دامت خمسة وعشرين عاماً بينه وبين تيريز لوفاسير. لقد فكر أولاً أن يطلق سرحاً ـ كما قال في الاعترافات، ولكنه رأى حرصها على مشاركته حياته ومصيره، فجعلها زوجته وأم أولاده ومنحها اسمه، وعقد قرانه عليها في حفل بسيط أقام اثنين من الشهود، وكان زواجه بها أول زواج مدني في فرنسا.

وقد لاحقته المتاعب في مقره الجديدة. . فمراسلاته في هذه الفترة حافلة بالتعليق على ضجة أثارها حوله نصاب يدعى

تيفينان ادعى أنه أقرضه منذ عشرة سنوات تسعة كتب، وجعل يلح في ردها إليه. وكذبه روسو ومسخره، ولكنه اعتقد أنه آلة في يد خصومة الحاقدين.

ولم يجد روسو في بورجوان الإقامة البسيطة المريحة التي كان يرجوها، وكتب إلى صديقه يبرو يشكو من أنه كاد وزوجته أن ينفقا الشتاء بطوله في علب الليل [1] . وكان يزعجه أنه يسمع حديثاً عن العودة للإقامة في « ترى » : في قصر الأمير « كونتي » [2] . وذات يوم بدا عليه أنه يفكر في العودة إلى إنجلترا ، بل إلى ووتون بالذات [3] .

ولكن الحقيقة أنه لم يكن يعرف أين يذهب ولا ما هو مصيره. كان يريد ـ على حد قوله ـ حجراً يريح عليه رأسه. وعلى ذلك فإنه في عز الشتاء غادر بورجوان لأن هواءها الرطب أضر بصحته وصحة زوجته، ليقيم في «مونكان» في الجبل، على بعد ميل من بورجوان حيث كان قد عرض عليه بيت للإقامة فيه منذ زمن طويل. وكان انتقاله في أواخر يناير حيث

(١) المراسلات، رسالة إلى المسيو دي ييبيرو في ٢٦ سبتمبر ١٧٦٨ .

(٢) المراسلات، رسالة إلى السيد لاليو في ٥ أكتوبر ١٧٦٨ ، إنك ما كنت لتقترح على هذه العودة لو عرفت ما جعلوني أعانيه، وفي يد أي أناس وقعت. إني ارتعد لمجرد التفكير في ذلك».

(٣) المراسلات، رسالة إلى المسيو لاليو في ٢ نوفمبر ١٧٦٨ .

كان قد عرض عليه بيت لـلإقامـة فيه منـذ زمن طويـل. وكان إنتقاله في أواخر يناير ١٧٦٩، وأقام هناك سنة وثلاثة شهـور. ومع أن تغيير الهواء قد أفاده كثيراً فإنه غادر مونكـان في نهايـة إبريل ١٧٧٠، وبعد أن أنفق بضعة أسابيع في ليون، وصل إلى باريس في مستهل يوليو.

وكان قد انتهى من تحرير «اعتـرافاتـه» لغايـة رحيله من جزيرة سان بيير عام ١٧٦٥ ومع أنه لـم يفكر في نشـرها إبـان حياته، غير أنه لفرط حرصه على تبريـر نفسه أراد أن يقـرأها على الناس في الصالونات. ولعل ذلك كـان من أهـم عوامـل عودته إلى باريس وقد أشرنا من قبل إلى إلحاح فكرة «التبرير» هذه عن ذهنه، حتى أخذت كل جهده ومؤلفاته في أواخر أيام حيـاته. فـالواقـع أنه لم يعـان من السلطات الدينيـة والمدنيـة فقط . بل من كل الفلاسفة الحاقدين عليه، وعن كل ضحـايا صراحته حتى بين أصدقائه.

وعلى رأس الأعـداء العـاملين على تحـطيم سمعتـه ومواصلة اضطهاده كان «شوازيل» ماريشال فرنسا الذي إثارتـه فقرة في «العقد الاجتماعي» اعتقد أنهـا طعنة لـه، فإلى على نفسه أن ينتقم منه، وأحاطه بالجواسيس، ونسب إليه الجرائم، وقد انضم إليه ديـدرو الذي لـم ينس هـو وزمرتـه إهانـة روسو لهم، ومدام بوفلير ـ صديقتـه السابقـة ـ لأنه قـال: «إن زوجة

الفحام أشرف من عشيقة «الأمير»، وترونشان الناقم على شهرته في جنيف والبارون دولياك وجماعة الاسكلوبيدين الذين ينهشهم الحسد، وفولتير الذي أغرق الأسواق بالكتيبات التي تمسخره وتشهر به ولعل أخرت «شعور المواطنين» الذي كتبه تعليقاً على «رسائل الجبل» والذي استهله بهذه العبارة المهينة: «إننا نشفق على المجنون، ولكن عندها يصبح الخبل رعباً فإننا نقيده. إن التسامح ـ وهو فضيلة يصبح عندئذ رذيلة»(١) .

على أن هناك أسباباً أخرى لعودته إلى باريس غير فكرة التبرير، ولعلها لم تكن أقل إلحاحاً. من ذلك ضيق تيريز بالريف الذي جرها إليه روسو على الدوام ورغبتها في الإقامة في باريس وإقناعها روسو أن خطر اضطهاده هناك قد زال بعد مرور ثماني سنوات على قرار البرلمان، ورغبته هو في التخلص من عواقب مشاجراتها الدائمة مع مضيفيهم ومع

---

(١) ظهرت هذه الرسالة عام ١٧٦٤ رداً على رسائل الجبل وهي مليئة بالسخرية والتشهير الوضيع والمكر الذي يهدف إلى تأليب أهالي جنيف وسويسرة كلها على جان جاك روسو. فمنها: «إنه بعد أن أهان المسيح ليس عجيباً أن يهين قساوسة الكتاب المقدس». ومنها: أن مدينتنا لم تكن معروفة من قبل إلا بأخلاق نقية وكتب قوية تجذب الأجانب إلى أكاديميتنا: ولأول مرة يجعلها أحد مواطنينا معروفة بكتب تهز الأخلاق يحتقرها الشرفاء، ويدينها الأنقياء.. الخ.

خدمهم، ويضاف إلى ذلك ـ على حد قوله ـ حاجته إلى كسب قـوته من مهنتـه ككاتب للمـوسيقى ، بصرف النـظر عن دخله الدائم من كتبه وهو ألف وثمانمائة فرنك في السنة .

الفصل الثالث

السنوات الأخيرة في باريس

١٧٧٠ - ١٧٧٨

نزل روسو في شارعه القديم جرينيل سان اونوريه الذي أصبح اسمه بلاتريير وسيصبح فيما بعد شارع جان جاك روسو، وأقام في مسكن متواضع يتكون من غرفتين في الطابق الرابع. وجعل يتنزه كل يوم، ويتردد على المقاهي دون أن يضايقه أحد. ولا ننسى أن شوازيل سقط في عام ١٧٧٠، وأن البرلمان قد تغير وحل محله برلمان آخر أكثر تسمحاً وأقل ضغينة وحقداً، وأن ولي العهد كان يتزوج ماري انطوانيت، وكل ذلك ساعد على عدم التعرض لروسو.

وكان أول عمل في باريس مجاملة رقيقة لفولتير رد عليها أسوأ رد. كان رجال الأدب يجمعون تبرعات لإقامة تمثال له ـ وهو على قيد الحياة ـ ورغم أن فولتير لم يكف حتى ذاك الوقت عن التشهير بروسو في رسائله، فإنه أرسل جنيهين ذهبيين مساهمة في إقامة تمثال خصمه اللدود، واستشاط فولتير غضباً عندما علم بذلك، وكتب إلى دالامبير الذي تلقى

المساهمة، وإلى توريت الذي كان وسيطاً فيها مستنكراً تدخل الغربا، كما كتب إلى جريم وإلى غيره مطالباً برد المبلغ إلى هذا المجنون الشرير والنصاب!

وفي ذلك الوقت، وفيما بين ١٧٧٠ و ١٧٧٨ لم يذكر روسو اسم فولتير إلا بكل إعجاب وتقدير، وقد أجمع على ذلك كل الشهود. بل أن حفل تكريم كان يقام لفولتير في دار المسرح الفرنسي، فظن شاهد يجلس أمام روسو أن التهكم على الحفل قد يسره، فبادره بقوله: «كيف يسمح شخص لنفسه أن ينتقد تكريم فولتير في المعبد الذي هو ربه، وبواسطة الرجال الذين يعيشون ـ منذ خمسين سنة ـ على روائعه! من إذن أحق منه بالتكريم في هذا المكان.

على أن شغله الشاغل منذ وصوله إلى باريس كان قراءة «الاعترافات» في الصالونات خلال اجتماعات منظمة. ويروي دورزل أن إحدى هذه المطالعات دامت سبع عشرة ساعة متصلة، ولم تتوقف سوى مرتين اثنتين لتناول وجبتين سريعتين وعدة مرات بفعل التنهدات والنشيج والدموع وكان المستمعون ثمانية أشخاص ليسوا من أصدقائه الخلصاء. وفي مرة أخرى طالع اعترافاته على جماعة تضم الكونتيسة أيجمونتي، والأمير بنياتللي، والماركيزة دي ميزم، والمركيز جونييه.

وقد قدم لمطالعته الأولى بإعلان وجد بين أوراقه يقول

فيه: «يهمني أن تكون كل دقائق حياتي معروفة لأي امرىء يحب العدالة والحقيقة ويكون من الشباب بحيث يمكن أن يعيش بعدي. فبعد تردد طويل قررت أن أبوح بمكنون قلبي للعدد القليل المختار من الناس الأخيار الذين يستمعون لي. وأنه لمن أسف أني مضطر ـ وأنا ألقي باعترافاتي ـ أن أسرد معها أسرار غيري، وإلا تعذر فهم اعترافاتي. وقد دعاني هذا المحذور إلى اتخاذ الاحتياطات لكي لا ترى مذكراتي إلا بعد وفاتي ووفاة من قدتهم بوقت طويل. إن تعاستي أخلت بهذه الاحتياطات ولم يعد ثمة وسيلة أخرى للاحتفاظ بوديعتي إلا بوضعها في القلوب الفاضلة الشريفة التي سوف تحتفظ بذكراها».

كذلك فإنه قدم لمطالعته الثانية بالفقرة التالية التي أوردها في نهاية كتابه: «لقد قلت الحقيقة. وإذا كان أحد يعرف أشياء تخالف ما عرضته فهو لا يعرف إلا أكاذيب ومختلات، وإذا رفض تعميقها وتوضيحها معي وأنا على قيد الحياة فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة. أما عني، فإني أعلنها عالية دون خشية أي امرىء، حتى ولو لم يقرأ مؤلفاتي يتفحص بعينيه طبعي. وخلقي، وسلوكي، وميولي، ومتعي، وعاداتي ويمكنه أن يظنني رجلاً غير شريف، فهو نفسه رجل يستحق الشنق».

وقد أثارت مطالعة الاعترافات ضجة كبرى، إذ تسربت

منها وانتشرت، وأصيب الذين تناولتهم بالفزع، حتى أن مدام «دايناي» قدمت مذكرة ضد روسو في قسم الشرطة. وطلب إلى روسو رسمياً أن يوقف مطالعاته، واستجاب، وإن كان اضطر أحياناً إلى ممارستها في سرية تامة وفي أضيق الحدود.

الاعترافات:

كتب روسو الاعترافات فيما بين ١٧٦٥ و ١٧٧٠ اشباعاً لحاجته إلى الحديث عن نفسه، وهي حاجة أصبحت ملحة في أواخر أيامه إلحاح رغبته في الدفاع عن نفسه وكلا الحاجتين مرجعه ما لاقى من عنت واضطهاد وتشهير، وشعوره بأن ظلماً كبيراً قد وقع عليه، وأن هذا الجزء القاسي يتعارض مع ما قدم للإنسانية من آراء وأفكار. وصحيح أن الناشر الهولندي رأى هو الذي أوحى إليه تأليف الاعترافات إلا أن كل الدلائل تشير إلى أنه كان سيؤلفها بدون إيحاء من أحد.

وتتضمن الاعترافات رواية كل أحداث حياة روسو منذ نعومة أظفاره إلى رحيله من جزيرة سان بيير في عام ١٧٦٥. وهي تقع في ١٢ كتاباً ظهرت على قسمين، أولهما يضم الكتب الستة الأولى وظهر عام ١٧٨٢ في جنيف ـ بعد وفاته بأربع سنوات ـ والثاني يضم الكتب الستة الأخيرة وظهر عام ١٧٩٠.

ولقد أوردنا مقتطفات كثيرة منها من قبيل الاستشهاد على

وقائع حياته وأحداثها، ولهذا فإننا لن نحللها أسوة بمؤلفاته الأخرى، ولكنا نرى أن بدايتها جديرة بأن تقرأ.

«. . . فارتدت ساعة الدينونة حين تشاء، فأني سأذهب. وهذا الكتاب في يدي، أقدم نفسي أمام القاضي الاسمى. وسأقولها عالية: هاك ما فعلته، وما فكرته، وكتبته. لقد قلت الخير والشر بنفس الصراحة. لم أسكت عن شر ولم أضف خيراً، وإذا كان قد حدث أني استعملت بعض المحسنات اللفظية العابرة فما كان ذلك إلا لشغل مناسبة خلت بسبب ضعف الذاكرة. لقد استطعت أن أفترض، حقيقياً كل ما عرفت أنه يمكن أن يكون كذلك، وليس ما عرفت أنه باطل، ولقد أوريت نفسيَ كما كنت، حقيراً وضيعاً حين كنت كذلك، خيراً وكريماً وجليلاً حين كنت كذلك: لقد كشفت سريرتي كما اطلعت عليها بذاتك أيها الكائن السرمدي. فليجتمع حولي جموع أقراني التي لا تحصى، وليستمعوا إلى اعترافاتي، وليئنوا لشروري، وليخجلوا لشقائي. وليكشف كل منهم بدوره قلبه بنفس الأمانة تحت أقدام عرشك، وبعدها فلقل لك واحد منهم فقط، إذا جرؤت لقد كنت أفضل من هذا الرجل».

المحاورات:

على أن مطالعة الاعترافات في الصالونات لم تشبع حاجة روسو إلى الدفاع عن نفسه، فلجأ إلى كتابة «المحاورات»، وهي كتاب غريب، صور فيه شخصين عابرين يتناقشان في أمره. أحدهما يدعى «لا فرانسوا» وهو فيما يبدو مثال للفرنسي الساذج السطحي، مشحون ضد روسو معبأ بحملة التشهير به. والآخر يدعى «روسو» ليس متحاملاً عليه ولكنه متأثر إلى حد كبير بما قيل عنه ومع ذلك فهو يتفحص ويستعلم وينتهي به الأمر إلى أن يجد أن جان جاك ـ رغم غرابة أطواره ـ ليس وحشاً على كل حال. ورويداً رويداً يصبح المدافع عن الرجل العظيم المضطهد، ويقوم بتحقيق شاق لا نهاية له ليعرف هل هو وحش حقيقة أم بريء فضله مجحود. ويدل الكتاب كله على أن روسو تأبى نفسه أن يظل محل سخرية وتشهير.

وقد ظل فترة طويلة يبحث عن رجل محايد فلم يجده. وبعد أن انتهى من «محاوراته» الثلاث أراد أن ينشرها، بوصفها وثيقة براءة القاطعة الساطعة، ولكن كيف يقرأها الناس؟ ومن هو الشخص الذي يعهد إليه والذي يأتمنه عليها؟.

عندئذ راودته فكرة غريبة ومؤثرة، هي أن يحرر نسخة

منها، وأن يذهب فيودعها كنوز على الهيكل الرئيسي في كنيسة نوتردام في باريس. وما إن انتهى من تحريرها حتى قام بتحريرها، وكتب على الحرز تحت عنوان «وديعة إلى العناية الإلهية» رسالة إلى الله قال فيها: «أي حامي المظاليم، إله العدالة والحقيقة، تقبل هذه الوديعة التي يضعها على هيكلك ويأتمن عليها عنايتك غريب، منكود، وحيد، بلا معين، ولا مدافع على البسيطة، مضطهد، ممسخر، مشهر به مخذول من جيل بأكمله، مثقل منذ خمسة عشر عاماً، بفعل الحقد، بمعاملات أسوأ من الوقت، ومهانات لم ير مثلها البشر، دون أن يدري قط سببها على الأقل. أما وقد منعت من أي تفسير، وحرمت من أي اتصال، فإني لا أتوقع من الناس الذين تقرهم ظلمهم سوى حملات وأكاذيب وخيانات. أيتها العناية الإلهية الأزلية، أن أملي الوحيد فيك وحدك، فتنازلي بوضع وديعتي في حمايتك، وأجعليها تقع في أيد شابة أمينة، لتنقلها خالية من التدليس إلى جيل أفضل، ليعلم وهو ينعي مصيري كيف عامل الجيل الحالي رجلاً بريئاً من الضغينة ومن التلون، عدوا للظلم وأن صبر في تحمله، ولم يفعل أو يرد شراً لأحد. إني أعرف أنه لا يحق لأحد أن يرجو معجزة، حتى البراءة المظلومة المجحودة، وأنه ما دام كل شيء لا بد أن ينتظم ذات يوم فحسبنا أن ننتظر. . . وإني لانتظر بكل ثقة، واعتمد على

عدالتك، واستسلم لإرادتك».

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ٣٤ فبراير ١٧٧٦ توجه روسو إلى كنيسة نوتردام، ومعه النذر الذي قرر أن يودعه على الهيكل، وكان في حسبانه أن يخترق غرفة الكورس أثناء انشغال القساوسة بالانشاد أمام الهيكل ليتمكن من إيداع الوثيقة، ولكنه فوجيء برؤية الحاجز المؤدي إلى الكورس مغلقاً، وهو ما لم يلاحظه طوال ستة وثلاثين عاماً أنفقها في باريس. وتردد فيها مراراً على الكنيسة. وفي الحال أحس بدوار شديد حتى كان مغشياً عليه، واضطرب كيانه كله، فقد كان يرى الممر المؤدي إلى الكورس مفتوحاً دائماً ولم يلاحظ فيه باباً أو حاجزاً، وظن في غمرة انفعاله الأولى أن السماء نفسها دخل في ظلم البشر، وبادر بالخروج من الكنيسة وهو في أشد الانزعاج مصمماً ألا يدخلها مرة أخرى طوال عمره، واستسلم لاضطرابه يهرول في شوارع باريس وطرقاتها، على غير هدى، حتى أجبره التعب والملل والليل على العودة إلى بيته، فقط حطمه الألم والضنى.

ولما لم يدر روسو ماذا يفعل بوثيقته فقد فكر في مبعوث. وكان قد علم أن أحداً معارفه القدماء من الأدباء قد وصل إلى باريس مؤخراً، وكان يقيم فترة طويلة كل عام في الريف، فاعتقد روسو أنه مبعوث العناية الإلهية لا يداع وثيقته

فبحث عن عنوانه، ووجده بعد مشقة، وتوجه إليه، وسلمه الوثيقة وهو يكاد يطير غبطة وقلبه يخفق بشدة، ولكنه فوجىء به يتسلمها في برود، ويحدثها عنها في أدب، كما لو كان يتسلم كتاباً ليراجعه ويبدي رأيه فيه. وأدرك الأديب خيبة أمل روسو أعاد إليه الوثيقة فاضحاً إياه أن يسلمها إلى شخص أكثر منه شباباً، ويرجى أن يعيش أطول من مضطهديه لينشرها فيما بعد.

وفكر روسو في أن يعهد بالوديعة إلى شاب إنجليزي كان جاراً له في «ووتون» وجاء لزيارته بمناسبة مروره بباريس، ولكنه لم يعطه سوى جزء واحد[1]. وعندئذ لجأ روسو إلى وسيلة أخرى. فقد لخص «إعلانه» في قصاصة صغيرة ونسخ في صبر عدداً كبيراً منها، ليوزعه على المنتزهات والشوارع على المارة المجهولين الذي يتوسم في سيماهم القبول. وكانت القصاصة بعنوان: إلى كل فرنسي ما زال يحب العدالة والحقيقة.

ورغم ما في هذا العنوان من جاذبية فقد صدم روسو لأن أحداً لم يقبل أخذ القصاصة: «الجميع بعد مطالعة العنوان،

(١) المستر بروك بوتاي الذي نشر «الحوار الأول» وأودع في المتحف البريطاني المخطوط الذي عهد به إليه روسو، في إبريل ١٧٧٦.

كانوا يقولون لي بسذاجة أضحكتني غمار ألمي أن هذا ليس موجهاً أليم»!

أحلام جوال منفرد :

بعد هذه التجربة المرة أدرك روسو استحالة تبرير نفسه أمام معاصريه فقرر أن ينطوي على نفسه، وأن ينشد في ضميره السلوة والراحة، وأن يسلم مستقبله وأمره لله. هذه الحالة النفسية الهادئة السامية تتجلى لنا من عمله الأخير: أحلام جوال منفرد. وهو يتكون من عشرة نزهات، والأخيرة منها لم تتم. وقد نشر في عام ١٨٨٢، بعد وفاته بزهاء أربع سنوات. والكتاب ضم صفحات من أروع ما كتب روسو، وإن كان يعد في جملته استمراراً لدفاعه عن نفسه وعن بعض تصرفاته، وتكاد كل نزهة أن تكون مخصصة لموضوع عن عزلته في شيخوخته، وعما لاقاه من ظلم في حياته رغم أصالة حبه للبشر، وعن راحته النفسية بعد تسليم أمره لله.

وفي النزهة الثانية يشرح أزمته المعنوية والدينية، وصنيعة شبابه، وعزمه منذ بلغ الأربعين سنة على أطراح زخرف الحياة، والمركز والجاه، والتمسك بالعزلة والتأمل والتفكير، والإقبال على التأليف دون كلل لينقل للبشرية خلاصة خبراته وتأملاته، واتصالاته بالفلاسفة والأدباء، ودراساته، في صورة

أفكار ونظم وآراء تستهدف خير الناس، رغم ما لاقى من عنت وحسد وجحود عرقلت جهوده بضع سنوات.

وفي النزهة الخامسة يصف ببلاغة أخاذة إقامته في جزيرة سان بيير في بحيرة بيين، كما يتحدث في النزهة السابعة عن هوايته لعلم النبات. وفي النزهة الثامنة عن مقارنة حياته الماضية بحياته في أواخر أيامه، وفي النزهة التاسعة يدافع عن نفسه إزاء الوصحة التي ألحقها به أعداؤه واتخذوها مادة للتشهير به، وهي إيداعه أطفاله من تيريز لوفاسير في ملجأ للقطاء ويوضح مدى حبه للطفولة والأطفال بصفة عامة[1]. وفي النزهة العاشرة يتناول ذكرى مدام فاران بمناسبة مرور خمسين سنة على تعارفه بها ويشرح لنا كيف أثرت في حياته ويقول: «لقد أنفقت سبعين سنة على الأرض عشت منها سبع سنوات». وقد أوقف الموت قلمه فلم يكمل هذه النزهة، هذا الحلم الذي استعاد فيه أعذب ذكريات شبابه.

وفاته في إيرمينونفيل:

كانت صحة روسو تتدهور، ورأى طبيبه ليبج دي بريزل

---

(١) تناولنا هذه النقطة بتفصيل كاف في ص ٤٥ في مناسبة الحديث عن أول أبناء روسو.

أن يذهب إلى الريف إنتجاعاً للصحة، وأوصى المركيز جيرارد أن يستضيفه في قصره في إيرمينونفيل[٢]. وكان المركيز من أشد المعجبين به. واقتاداه إلى هناك بحجة القيام بنزهة ريفية. وكان للخلاء، والعزلة، والمروج، والمياه الجارية الصافية فعل السحر في نفسه. وقبل دعوة المركيز للإقامة في قصره، في يوم ٢٠ مايو ١٧٧٨. ولم يكد يستقر في مقامه الجديد حتى أتاه خبر وفاة فولتير في باريس يوم ٣٠ مايو فحزن أشد الحزن وقال: «إني أشعر بأن وجودي مرتبط بوجوده. ولقد توفي، ولن أتأخر في اللحاق به».

وكان يخرج لجمع الأعشاب، ويعطي دروساً لابن المركيز في علم النبات وكان صبياً عمره عشر سنوات، وزاره صديقه القديم مولتر ورد إليه نسخة من الاعترافات وذات يوم اعتراه القلق عندما أصيب بدوار.

وفي يوم ٢ يوليو خرج لجمع الأعشاب في الخامسة صباحاً كعادته، ورجع من المروج في السابعة فتناول قدحاً من القهوة باللبن. وفي الثامنة شعر بمسحة من الضيق في صدره. وسقط على الأرض يئن ويتوجع، وساعدته تيريز على النهوض

(٢) ايرمينونفيل قرية تعدادها ٥٠٠ نسمة شمال شرق باريس وعلى مسافة ٥٠ كيلومتراً منها.

وحاولت إسعافه ولكنه وقع مرة ثانية وصيب بشج في جبهته، ومات لساعته. وكانت الساعة الحادية عشرة صباحاً.

وكما كانت ولادته غريبة مثيرة، وحياته غريبة مثيرة، كانت وفاته كذلك. فسرعان ما انتشر إشاعة تقول أنه مات منتحراً. وقد ساعد على انتشارها أن تيريز كانت الشاهد الوحيد للوفاة، وأن صديقه كودانسيه عمل على ترويجها بسرعة وبشدة لأسباب غير مفهومة، وأن أعداءه ـ وما أكثرهم وجدوا في ترويجها مصداقاً لزعمهم أنه رجل شاذ عصبي سوداوي المزاج غريب الأطوار. ولكن الحقيقة أن دعوى الانتحار باطلة وليس هناك دليل واحد يؤيدها. وقد ذهب كورانسبه إلى أنه ضرب نفسه بالرصاص. ولكن أحداً لم يسمع طلقة مسدس، كما أن أحداً لم يلاحظ قط أن روسو كان يحمل سلاحاً. وقد أثبت التحقيق والتحليل الذي أجرى بناء على طلب المركيز جيراردان أن هناك جرحاً في جبهته، وأثار قهوة باللبن في معدته، وأن مرض البروتستاتا الذي طالما عانى منه لا شأن له في موته. وهكذا تأكد أنه لا أثر لطلقة رصاص ولا لأي سم من السموم.

ومع ذلك فإن الموضوع لم ينته بثبوت عدم انتحاره. فقد أشيع أيضاً أن تيريز لوفاسير قد قتلته. ونشرت صحف باريس هذه الإشاعة فيما بعد. ولكن لم ينهض ضد مدام روسو دليل

واحد، وطبعها وقدراتها تنفي عنهـا التهمة، كمـا أن خلاعتهـا وابتذالها وانحلالها منذ أن ترملت لا يعني أنها قتلته.

وكان موته إذن طبيعياً فلا انتحار ولا قتل. وقد دفن بناء على رغبتـه في جـزيـرة «بيلبيـه» في الغـابـة المحيـطة بقصـر إيرمينونفيل، وسرعان ما أصبـح قبره كعبـة يحج إليهـا أنصاره ومريدوه من كل صوب. إن هذه البقعة المنعزلة، البعيدة، الشاعرية وذكرى مؤلفاته الرائعة وآلامه وتعاساته المؤثرة: كل ذلك أثر في القلوب الحساسة، فهرعت إلى إيرمينونفيل لزيارته وتحيتـه. حتى مـاري انـطوانيت أدت هـذه الـزيـارة بـانفعـال وحماسة، وصحبها لويس السـادس عشر الـذي انتظرهـا على الشاطىء حتى عادت من الجزيرة.

ولعـل أعجب زيارة لقبـر روسو في جـزيـرة بيبلييـه هي الزيارة التي قام بها الأب بربزار والبارون دي كلوتز دي فال دي جراس فإن ما تخللها من إجراءات وانفعالات يدل على مكانة روسو في قلوب أنصاره وعشاقه. لقد زارا قبره بعد وفاته بثلاث سنوات. وعندمـا وصلا إلى الجـزيرة وهمـا في حالـة هيجان روحي رأيـا أن يتزودا بنفحـة روحية جيـدة قبل لقـائه، بـزيارة مخلفاته مع التوقيع عليها وتسطير مشاعرهما، مثل: التـوقيع: البارون دي كلوتز دي فـال دوجراس المـدافع عن جـان جاك روسو في كتابي «يقين أدلـة الإسلام». ومثـل: «حذاء روسـو

الذي كان يلبسه عادة. لقد أراد بريزار أن يشرف اسمه بتسجيله على الحذاء البسيط للرجل الذي لم يسر قط إلا في دروب الفضيلة.

وفي اليوم التالي تزايد حماسها وانفعالهما: «إن جزيرة جان جاك تعذبني. لقد جفاني النوم. إني مضطرب كأني كاهنة أبوللو قرب الإله». وقد عرجا في الطريق على الصومعة ـ الارمتياج ـ حيث قاما بالدعاء للقديسة جوليا. القديسة هلويز الجديدة. وقدرا أنهما ـ رغم ذلك كله ـ ليسا أهلاً للمس القبر أو الدنو منه، فاكتفيا بالتطلع إليه في وله من الشاطىء، وهما يقرءان بصوت عال صفحات من هلويز الجديدة ومن إميل.

وفي اليوم الثالث وقفا على الشاطىء أيضاً يدعوان ويغنيان «لصديق الأخلاق» وأخيراً، في اليوم الرابع، وقد اقتنعا بأنهما أصبحا أهلاً للدنو من القبر، ركبا قارباً نقلهما إلى الجزيرة، وركعا أمام القبر، ووضعا شفاههما على الحجر البارد وانهالا عليه تقبيلاً. وكان ديدرو قد شهر بروسو في كتابه الأخير «تعال في حكم كلود ونيرون». فجاءا بصفحات الكتاب ومزقاها إرباً أمام القبر وهما يعلنان بصوت عال: «إلى روح جان جاك روسو الخالدة! فليسدل النسيان ستائره من ذكرى الأعداء الجبناء لرجل الطبيعة والفضيلة. نحن دي كلوتز بارون فإن دي جراس، وجابرييل بريزار نقدم قرباناً تطهيرياً على قبر

الرجل العظيم بإشعال النار في تشهير يؤيده الكذب وتنكره الحقيقة. «ثم يشعلان النار في صفحات ديدرو الممزقة وينثران الورد على القبر بعد أن يدورا حوله عدة مرات وهما يلمسانه، ويقدمان سبعة جنيهات إلى امرأة فقيرة، «صدقة على روح القديس». ويقول بريزار أنه لم يؤد هذا المحج من باب حب الاستطلاع الباطل، وإنما لكي يزداد ألفه بالفضيلة، وأن ثمرة هذا المحج كانت تخطيطاً إصلاحياً وعهدا بأن يراجع نفسه دائماً، وأن يصحح أخطاءه، وأن يسعى ليكون أفضل مما هو عليه[1].

هذه الواقعة بكل مظاهرها ومشاعرها ترينا كيف بلغ شأن مذهب روسو في فجر الثورة، إذا تركنا جانباً المدائح والقصائد والمسرحيات والاحتفالات التي كرست لتمجيده.

وفي ٢١ ديسمبر ١٧٩٠ قررت الجمعية التشريعية إقامة تمثال له، وهو شرف لم يحظ به أحد غيره، وقد جاء دور فولتير فيما بعد. وفي ١١ أكتوبر ١٧٩٤ قررت الجمعية الوطنية نقل رفاته إلى البنتيون إلى جانب رفات فولتير التي سبقتها إلى هناك بثلاث سنوات، حيث رقدا بسلام. بالرغم من سريان إشاعة خبيثة خلال القرن التاسع عشر، مؤداها أن أعداء الفيلسوفين

(١) موريس بيير ماسون، دين روسو، المجلد الثالث ص ٨٣

قد سرقا في عام ١٨١٤ هيكليهما العظيميين ونثرا رفاتهما شذر مـذر. إلا أن لجنة رسميـة قامت في عـام ١٨٩٧ بتحقيق هذا المـوضوع، وفتحت القبـرين وتثبت لديهـا بما لا يـدع مجالاً للشك أن رفاتهما لم تمس.

الفصل الرابع

نفوذه بعد وفاته

هذا هو جان جاك روسو، كما عاش، وكما فكر، وكما أحب، إنسان طيب وإيجابي بمعنى الكلمة، خدم المجتمع وعاش له أكثر مما عاش لنفسه، ولكنه لم يخل من عيوب البشر، ولم يحاول أن يخفيها. بل كان أميناً في ذكرها في اعترافاته.

لهذا لم تتناقض أحكام الناس في شأن مفكر كما تناقضت في شأن مفكر. فبين معاصريه أو أسلافه من قال أنه مجنون ومنهم من قال أنه حكيم. وهو في نظر البعض يكره البشر وفي نظر الآخرين صديق الإنسانية. ويرى الكثيرون أنه مفطور على الطيبة ولكنه أحب الخير كثيراً وفعل الشر أحياناً، وأحب الحب فخذله المحب، وقدر الصداقة ولم يدم له صديق، وبشر بالفضيلة ولم ينج من اقتراف الرذيلة، كما بشر بالحكمة وارتكب أكثر من حماقة. ولكن هذا التناقض نفسه يدل على أنه إنسان، وأنه كان صادقاً مع نفسه ومع الناس،

عدواً للنفاق، لا يكتب إلا عن إحساس وامتناع، وأنه حاول أن يعيش في نطاق المبادىء والمثل التي بشر بها بقدر ما في طوق البشر.

ولهذا أيضاً كان لكلامه دوي هائل وأثر عظيم. قال جوته: «مع فولتير، فأنها دنيا تنتهي، أما مع روسو فهي دنيا تبتدىء». وهكذا جعل الشاعر الالماني الكبير المستقبل لروسو. وقد صدق فإن روسو ما زال يعيش بيننا. ما زلنا نقرأ فكره بحرارة وحماسة. وما زالت المؤلفات والمقالات تكتب عنه إلى يومنا هذا، على نحو لم يحظ به مؤلف أو مفكر آخر، وهي مؤلفات بكل لغة، فالعالم كله يدرسه، البعض تجذبهم نظرياته السياسية والاجتماعية، وغيرهم تجذبهم نظريته الدينية، وغيرهم يجذبهم مفاهيمه الجديدة في الحب وفي الأسرة، أو فهم للطبيعة، أو طريقته في التربية. والواقع أنه قلما كان لمفكر مثل نفوذ جان جاك روسو في فكر الأجيال التي أعقبته.

نفوذه السياسي والديني:

لقد هاجم روسو عصره، منذ مؤلفاته الأولى. كان يخاطب مجتمعاً فخوراً بفنونه وآدابه، مقتنعاً بنمو معارفه، فبصدمه ويقول له في قسوة أن كل هذه المدنية زائفة ومفسدة، ويجب على الأقل وقف نموها، ومحاربة الترف، والسعي إلى

بساطة السلوك والأخلاق، وتقدير البراءة، ومنذ المسرح، وترك المدينة إلى الريف ما أمكن. ولم يقل روسو هذا الكلام من قبيل رفع الشعارات. وإنما طبقه على نفسه، وأعطى المثل، وغير حياته، واعتكف في الريف، وقاطع ديدرو وجريم ودولباد، وأعلن الحرب على فولتير.

ولم يكن ذلك كله سوى بداية. فقد فجر البارود في «إميل» وفي إقرار إيمان الخوري السافوي بصفة خاصة. وكان لزاماً أن تدينه الكاثوليكية الارثوذكسية لحملته الشديدة على عقائد أساسية فيها. ولم يدهش روسو لما اتخذ ضده من إجراءات ـ عقب هذا الكتاب، سواء في ذلك قرار البرلمان أو قرار السوربون أو بيان كريستوف دي بومون أسقف باريس، وماتلا ذلك من إدانات في جنيف وبرن وهولنده. فكل ذلك كان يتوقعه المفكر حين هاجم الوحي والمعجزة.

وهو حين ألب عليه المؤمنين لم يكن يعتمد على مناصرة الفلاسفة له، لأنه هاجمهم أكثر مما هاجم العقيدة فقد قال عنهم ـ على لسان الراهب ـ «استشرت الفلاسفة، وتصفحت كتبهم، ومحصت مختلف آرائهم، فوجدتهم جميعاً متعجرفين، جازمين، اعتقاديين ـ حتى في ارتيابهم المزعوم ـ غير جاهلين شيئاً، غير مثبتين شيئاً، ساخرين بعضهم من بعض، وخيل إلي أن هذه النقطة التي يشتركون فيها جميعاً هي

الوحيدة التي كانوا فيها على صواب. إنهم ينتصرون عندما يهاجمون، ولكن تعوزهم القوة عندما يدافعون، ولو وزنت البراهين لما وجدت عندهم منها إلا ما يصلح للتقويض والتدمير. . »

كما قال عنهم: «وهم إذ يقبلون ويدمرون ويركلون بالأقدام كل ما يحترمه البشر، يحرمون البؤساء من آخر سلوة عن شقائهم، وينزعون من الأقوياء والأغنياء الفان الوحيد لشهواتهم، وينتزعون من حنايا القلب الندم على الجريمة، والأمل في الفضيلة، ثم يباهون بعد ذلك بأنهم رسل الخير للبشرية».

ولقد فند مزاعمهم وبراهينهم، ونادى بالاعتقاد في إله طيب وقادر، وبالتمييز بين الروح والمادة، وبحرية الروح وخلودها. وبالحساب في الآخرة. وقال أن العقل وحده لا يدرك ذلك كله، ولكن الإنسان يدركه بالإحساس وبالضمير. وقال أن الوجود. بالنسبة لنا، هو الإحساس، وأن الحساسية لدينا تسبق الذكاء والتفكير، وأن الضمير غريزة إلهية، وصوت علوي خالد، ومرشد أكيد لمخلوق جاهل محدود، وهو حين يقرر ذلك، ويستسلم للشعور والضمير ويهتدي بهما إلى الدين الطبيعي يعرب في الوقت ذاته عن إعجابه المؤثر بقداسة الإنجيل، ويقدم للسيد المسيح آيات التبجيل.

وضاعف من أثر هذا الإعلان أنه جاء في عـام ١٧٦٢، في وقت اشتدت فيه حملات الفلاسفة على الدين، وظهـرت كتب ونشرات وبحوث مثل «وصية الخوري ميسلييه»، و «ميثاق الخمسين»[١]، و «المسيحيـة بـلا قنـاع» للبـارون دولبـاك، و «فحصى الديني» لسانت ايفـريمونـد، و «الطغيـان الشرقي» لبولانجيه، ثم بعد ذلك «القـاموس الفلسفي» و «أسئلة حـول المعجزات» لفولتير، و «تحليل الدين المسيحي» لديمـارسيه، وغيرها. وكان روسو يعرف بكل هـذه الكتب وفحواهـا، فقبل نشرها كانت تقرأ خلسة في الجيوب، وفي الصـالونـات حيث تناقش.

وبعد سنة من «إميل» كانت مواعظ كنائس بـاريس تلقى ضد روسو، وكانت أكثر وأشـد مما ألقى ضـد فولتيـر بطبيعـة الحال، لأن كتيبات فولتير كـانت غفلاً من التـوقيع. ولكن إذا كانت أقوال الخوري السافوي قوبلت بامتعاض واستنكـار بين المؤمنين ورجال الالكليبروس، فـإنها قـوبلت في الصالـونات وبين القراء بتقدير لما فيها من مسحة دينية وإذا كان روسـو قد تساوى مع الفلاسفة ـ بتحفظ ـ في جـانب الانكار، فقـد امتاز عليهم بقسم «التأييد» في إقرار الإيمان، وهو ما حظي بتقديـر الكثيرين حتى من المؤمنين، لأنه على الأقل أبقى على الدين.

(١) كتيبان لفولتير دون توقيعه.

كذلك فإن الحماسة التي أثارها روسو بمؤلفاته، بنغمة جديدة وبمنطق جديد، جمع حوله عدداً كبيراً من النفوس الضالة التائهة التي كانت قد انفصلت عن العقائد الدينية، ولكنها تنشد التوجيه. فكم من شبان وفتيات بكوا وهم يطالعون «هلويز الجديدة» لجأوا إلى الأستاذ «يسألونه النصيحة بل أحياناً شفاء نفوسهم المريضة، بمثل هذه الثقة التي تعرب عنها احدى الفتيات: أرجوك أن تعلمني كيف أعيش، أعني أن تعلمني الوسائل التي تجعلني أقرب ما أكون إلى السعادة، أرني الطريق التي تستطيع أن تقودني - إن لم يكن إلى السعادة، فإلى سلام القلب على الأقل. ؟

ولقد أورد بيير موريس ماسون رسالة من سانت بريسون إلى روسو في ١٧٦٢ قال له فيها: «إني أجعل من مؤلفاتك كائنات حية تحدثني بإشارات. وبعينيك الأسرتين، وبفمك المقنع، وإني لأراك ترفع يديك إلى السماء، في الفقرات الأخلاقية هذه التي تبجل الله القدير والخليقة، فارفعها معك».

هكذا التفت حول روسو رعية، وكان هو بمثابة الراعي الأمين، وهي رعية الخوري لسافوي كما قال فولتير، فلا هي كاثوليكية ولا بروتستانية. لكن ماذا كان نفوذ روسو عليها؟ الواقع أنه كان نفوذاً وسيطاً، أو موفقاً بين الدين والفلسفة، فقد كان بين اتباعه لفيف من المهتدين إلى دينه الطبيعي، ولفيف

من الثائرين على الانكار الفلسفي والسخرية بالدين.

وحتى في السلك الاكليركي تولدت حركة في مصلحة روسو. ورغم إدانة إقرار الإيمان، فقد قدر رجال الدين مدحه للإنجيل، وشعروا أنه إذا كان قد أثر في إيمان بعض الناس، فإنه حول الكثيرين عن دروب المادية والالحاد، وقدم لهم السلوة، واحتفظ لهم بشعورهم الديني.

وعندما قامت الثورة وأرادت الجمعية التأسيسية أن تضع «الدستور المدني للاكليروس» فقد كان نفوذ روسو واضحاً لأنه أول من تحدث عن الدين المدني، وقد كتب بواس وانجلاس: «إن روبسبيير وهو يتحدث عن الكائن الأسمى إلى أكثر شعوب الدنيا استنارة ذكرني بأورفيوس وهو يعلم الناس مبادىء الحضارة والأخلاق». وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه روسو وهو يقدم لنا الخوري السافوي. وفي عهد نابليون بونابرت، وبعد عشرة سنوات من الفوضى، أراد أن يوفق ما بين فرنسا الجديدة والدين التقليدي، فطبق إلى حد ما فكرة روسو، لأنه لم يقبل الكفر، وقرر إنشاء ـ «دين للدولة» ـ بصرف النظر عن إنه اختار الكاثوليكية بوصفها الشكل الظاهر أمامه.

نفوذه السياسي والاجتماعي:

لم يثر العقد الاجتماعي ضجة في البداية. ويبدو أن روسو نفسه لم يدرك، حين نشره، مدى قوة الأفكار الواردة به. كان يعتقد أنها تصورات وتأملات من العسير أن تطبق في فرنسا. كذلك فإن الضجة التي أعقبت نشر «إميل» حالت دون أن يأخذ العقد الاجتماعي الأهمية التي يستحقها. ومع ذلك فإن المجلس الصغير ـ الحكومة ـ صادر الكتاب وأدانه في وقت واحد مع إميل..

لم يمتدح روسو صراحة الجمهورية ولا الديمقراطية في كتابه. لقد قال أن الديمقراطية حكومة أكمل من أن يطبقها البشر: «لو كان هناك شعب من الإلهة لحكم نفسه ديمقراطياً». هو نفسه أوصى بالارستقراطية كنظام للحكم، لكن في المعنى الحالي للديمقراطية، كما أوضح لنا إميل فاجية على النحو الذي ذكرناه في تحليل الكتاب.

وعلى النقيض فإنه يضع في الشعب مبدأ السيادة الكاملة، وهو تأكيد يتعارض ـ مباشرة مع نظرية الحق الإلهي التي استقرت في فرنسا منذ عهد بعيد، فروسو يعلن أن كل دولة مؤسسة شرعياً تستند إلى ميثاق أولى وكل المتعاقدين فيه كأفراد هم الشعب السيد كجماعة، وسيادتهم غير قابلة

للتصـرف ولا للتجزئـة. . . وكل النـظرية تبـدو كـاملة مجـردة جازمة، كأنها قانون أو نظرية هندسية.

ولم يشعر الناس في البـداية بـأهمية هـذا الكتاب، لأن قراءته ليست شائعة ولا سهلة، ولكن مع اقتراب الثورة الفرنسية انتشرت هذه الوثيقة السياسية بطريقة مذهلة، واتخذت أهميـة بل سلطة «هائلة».

وقد كتب ماليه دوبان في عـام ١٧٩٩ يقول: «إن قـراء روسو بين عامة الشعب أكثر من قراء فولتير مائة مرة. فهو الذي نشـر بين الفـرنسيين نـظريـة سيـادة الشعب. إن هـذا العقـد الاجتمـاعي كان قـران الحـاضـرين والخـطبـاء عـام ١٧٨٩، والجمهوريين عام ١٧٩١. وقد سمعت «مارا» في عام ١٧٨٨ يقـرأ العقد الاجتمـاعي ويعلق عليه في الحـدائق العـامـة بين تصفيق هائل لجمهور شديد الحماسة».

وفي يونيو ١٧٩١ كتب مرسييه مجلدين عن «جـان جاك روسو» كواحد من مثيري الثورة الأساسيين». وذكرت مدام دي ستايل أن نابوليون بونابرت قال في معرض الحديث عن روسو: «هو على كل حال سبب الثورة»[١]

(١) ارجع إلى بيرمورس ماسون، دين روسو، المجلد الثالث، ص ٢٢٧

ولقد كانت مدام دي ستايل قد قالت في كتابها «تأملات عن الثورة» أن مثل هذا الحدث الكبير كان له أسباب أخرى، وأنه لا يجوز أن يتحمل مسؤولية شخص واحد، إلاَّ أنه كما لاحظ «تاين» في عام ١٧٨٩» كان المرء يرى العقد الاجتماعي في كل يد، وكأنه كتاب صلوات»[١].

إن هذا ليس غريباً، فمن الطبيعي أن تستهدي الشعب ألفاظ روسو مثل: الحرية، المساواة، سيادة الشعب، المواطن، الظلمة، الطغاة، وهو لم يرددها فقط في العقد الاجتماعي وإنما في المقال عن عدم المساواة بين الناس.

وعندما كانت الثورة تعتمل لم يكن أحد يفكر في خلع الملك، وفي إقامة الجمهورية، ولكن مجرى الأحداث، ومنطق الأفكار التي اختمرت في كتاب مؤلف توفي منذ سنوات، أدت إلى هذا التسلسل الطبيعي. فما من سلطة قديمة استطاعت الصمود أمام أفكار العقد الاجتماعي. فأمام سيادة الشعب إنهار العرش وأمام المساواة اختفت النبالة. ولم يعد هناك أكليروس، ولا برلمان، ولا أي حاجز من الحواجز التي ارتأت عبقرية مونتسكيو أن تقيمها بين السلطة المركزية والشعب لمنع الطغيان. وإنما تولدت سلطة جديدة ـ من هذه

---

(١) تأين، النظام القديم، ص ٤١٥

المخلفات ـ هي جمعية وحيدة تركز في يدها كل السلطات التشريعية والتنفيذية بل القضائية أيضاً.

إن الأفكار السياسية التي نادى بها روسو يؤيدها موقفه الاجتماعي. فمنذ البداية وقف ثائراً ضد الفنون والآداب والمدنية ثم ضد المجتمع بصورته المنحلة التي طالعته. وهو الذي قال في المقال في عدم المساواة: أن الملكية هي السرقة، فكان أول من نادى بالمجتمع المدني. وهو في الجملة المؤلف الذي عاش وهو من العامة وسط النبلاء، وكان فقيراً وسط الأغنياء فأحس الظلم الاجتماعي بصدق، وأحس التعبير عن مطالب الشعب في معناه العام، وناهض الطغيان وعدم المساواة، فكان طبيعياً أن يردد الشعب وراءه عاجلاً أو آجلاً قوله المأثور: «إنه لمناقض كل التناقض للقانون الطبيعي، مهما كان تفسيره أن يأمر طفل شيخاً، أن يقود أبله حكيماً، وان تتوافر لدى حفنة من الناس الكماليات، في حين أن الكافة الجائعين تعوزهم الضروريات.

إن البعض لا يعزو لروسو قيام الثورة وسقوط الملكية وتطبيق الجمهورية والديمقراطية فقط، بل يرى أن كل المذاهب التقدمية وفي مقدمتها الاشتراكية والشيوعية لها جذور في كتب روسو»[1]

---

(١) ل. فلاندران، جان جاك روسو، مقتطفات مختارة ص ٨٢٢

نفوذه الأدبي:

إن النفوذ الأدبي لروسو يستحق كتباً وليس صفحات، ولكنا نركزه في كلمات. إننا ـ باختصار ـ مدينون له بجزء كبير من أدبنا الحديث، وعلى الأخص الرومانتيكية. نحن مدينون له أولاً «بشاتوبرياند» الذي قرأه بحماسة وشغف، وتشبع به، وقلده في المقال عن الثورات»، وفي «عبقرية المسيحية» حيث استعمل براهين روسو، وأسلوبه في إثبات حقيقة الدين بتأمل جماله وما فيه من خير للناس»(١).

وقد شاع أسلوب روسو. وشاعت تعبيراته في كتابات جيل بأكمله. أن مدام دي ستايل ابنة روحية له، فقد كانت تتغذى بمؤلفاته ـ إن جاز القول ـ وفلسفتها، ودينها، هما فلسفة روسو ودينه. وبعد شاتوبريان ومدام دي ستايل، سار شعراء القرن الثامن عشر وكتابه في نفس الطريق الذي سلكه روسو. هو الذي علمهم كيف يرون الطبيعة وكيف يشعرون بها، هو الذي علمهم أن يرجعوا إلى أنفسهم ويكتبوا مذكراتهم واعترافاتهم وينشروها على الناس، على النحو الذي فعله

(١) شاتوبريان له أيضاً ـ كما هو معلوم ـ مؤلفات كثيرة أشهرها بول وفرجيني ودراسات في الطبيعة، واتساق الطبيعة.

لامارتين والفريـد دي موسيـه وجورج صـاند، وفكتـور هوجـو أيضاً. ولكن الحقيقة أن نفـوذه الأدبي لا يقف عند أولئـك بل يمتد إلى ميشلييه، وإلى لوتي، بل هو يتجاوزهما إلى عصرنـا هذا، ويحيط بنا أنه جزء من الهواء الذي نستنشقه.

المراجع

جـان جاك روسـو المصنفات الكـاملة، طبعـة فيـرني، باريس ١٨٣٥ الاعترافات هلويز الجديدة العقـد الاجتماعي، إميل، المقارنة في العلوم والفنون، المقال في عدم المساواة، رسائل الجيل، المحاورات، أعلام جوال منفرد الخ،

م . بابيت حياة جان جاك روسو ومؤلفاته، طبعة دوبون، باريس ١٨٢١ .

ل . فلاندران جان جاك روسو، مؤلفات مختـارة، طبعة هاتييه، باريس ١٩٤٦ .

أ . فاجيه حيـاة جان جـاك روسو، المؤسسـة الفرنسيـة للطبع والنشر، باريس ١٩١٠ .

أ . فـاجيه القـرن الثامن عشـر، روسو المفكـر، طبعـة شاتلان باريس ١٨٩١ .

أ . فاجيه مدنيات روسـو، المؤسسة الفـرنسية للطبـاعة والنشر، باريس ١٩١٨ .

ك . ديكرو جان جاك روسو، المؤسسة الفرنسية للطباعة والنشر، باريس ١٩١٨

ك . ديكـرو جان جـاك روسو، طبعـة كالمـان الـطبعـة الأربعون، باريس ١٩٢٥ .

ج لوميتر جـان جاك روسـو، العقد الاجتمـاعي، طبعة هاشيت، بارريس ١٨٩٣ .

م . شوكيه دين روسو، طبعة هاشيت، باريس ١٩١٦

م . مـاسون هلويـز الجديـدة، طبعة هـاشيت، باريس ١٩٢٥ .

د . مورنيه فكر جان جاك روسو، طبعة شامبيون، باريس ١٩٢٧ .

م . شينز تاريخ الأدب الفرتسي، طبعة هاشيت، باريس ١٨٩٦ .

ن . هيشتن أساتذة الحساسية الفرنسية، طبعة بواخان.

ب . نراها نظرية التربية عنـد جان جـاك روسو، طبعـة هاشيت باريس ١٩٢٠

في . فيال نظرية التربيـة عند جـان جاك روسـو، طبعة هاشيت باريس ١٩٢٠

ت . دوفـور مـراسـلات روسـو، طبعـة كـولات ـ ٣ مجلدات . باريس ١٩٢٤

الفهرس

رقم الايداع: ٨٩/١٥٦٩
الترقيم الدولى: ٠ ـ ٢٨٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧